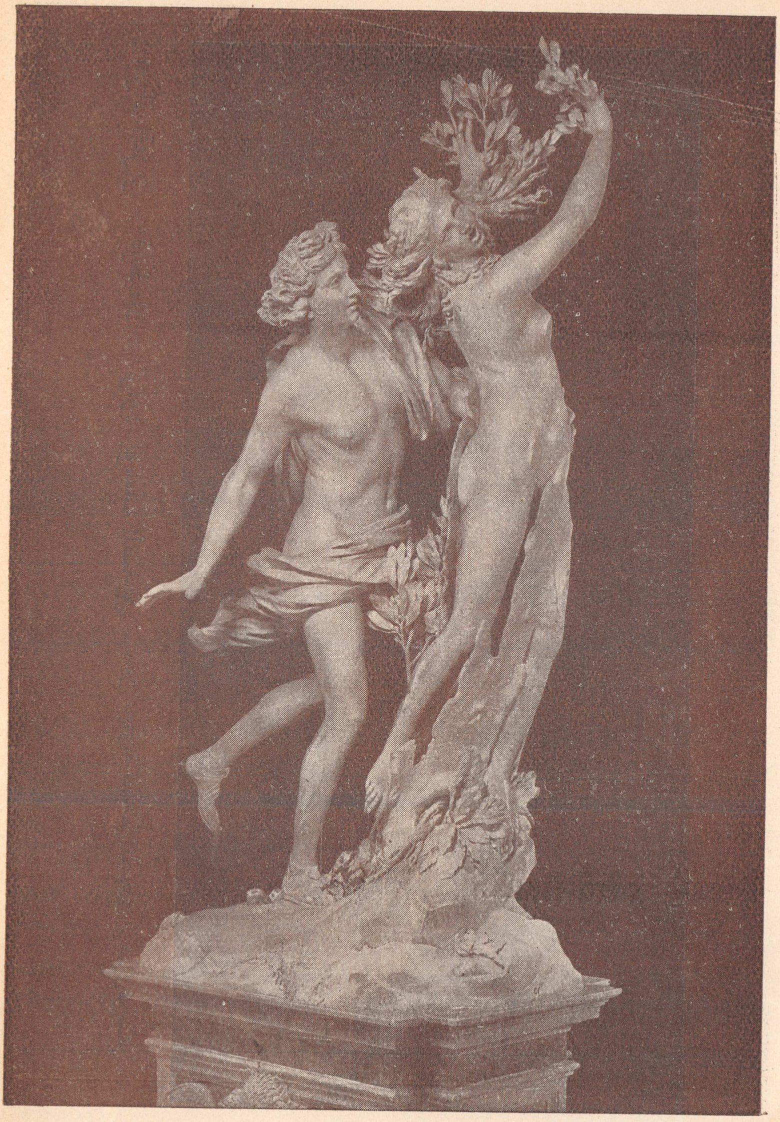
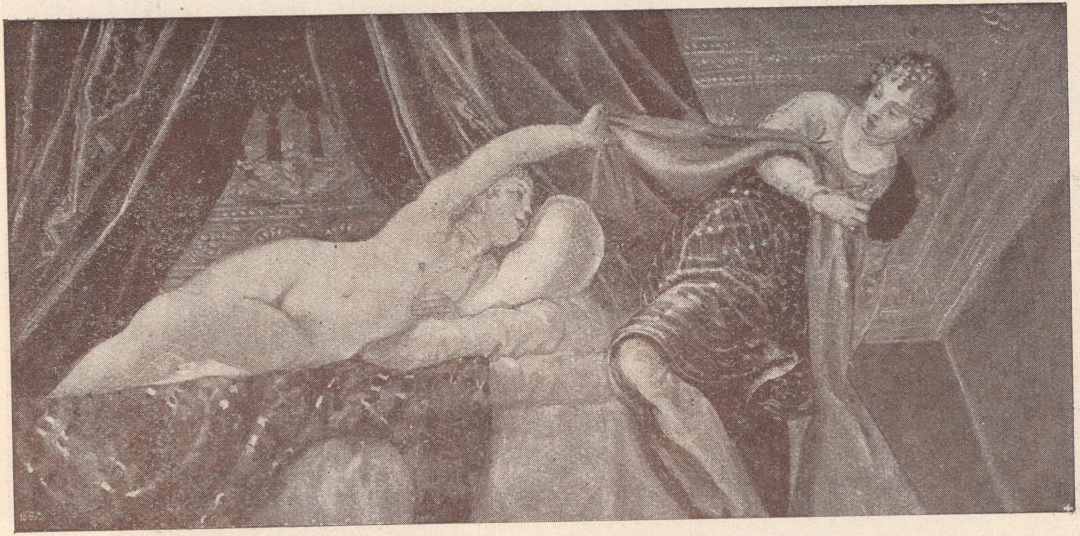

كتابي
الجريمة والعقاب!
لدستويفسكي
وكتب أخرى
حلمي مراد
١٠ قروش



أبوللو ، و دافني — من تماثيل روما الرائعة ، للفنان برنيني



امرأة العزيز « فوطيفار » تراود يوسف الصديق   من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع والعشرون (السنة الثالثة) : يوليو ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

عزيزي القارئ ..

أريد اليوم أن أحدثك فى أمرين يتصلان بهدفى الذى ألتزمه فى «كتابى» و « مطبوعاته » :

◆ **أما الحديث الاول** فهو بصدد رسالة تلقيتها من « قارئة » فاضلة ، تحتج فيها على ما نشرته فى كتابى السابق من تلخيص لكتاب الشاعر الرومانى القديم « أوفيد » فى « فن الحب » ، **بدعوى انه ينطوى على آراء «جريئة» تمتهن « كرامة » الحب ، وتصور العلاقات بين الجنسين فى صورة غير لائقة !**

وردى على هـذا الرأى - (وما قد يعن للبعض من آراء مشابهة فى مناسبات أخرى) - أقول ان ردى على هذا الرأى ، من ناحية «الشكل» - دون دخول فى الموضوع أو تفنيد لحججه - هو أن رسالة كتابى (وهدف الثقافة الذهنية بوجه عام) ليست ولا ينبغى أن تكون من ضيق الافق بحيث لا تقدم لك من الحياة غيرجانبها المشرق المضىء وحده ، دون جانبها الآخر « المعتم » الذى لا يخلو منه واقع .. **وانما رسالة كتابى الثقافية التى يعتز بهـا أن لا يكون منبرا للوعظ والارشاد - اللذين لهما مجالاتهما الاخرى المختصة - وانما يكون منبرا للحرية الفكرية بأوسع معانيها ، فيقـدم لك تلخيصا « أمينا » لشتى الاتجاهات والتيارات الذهنية ، كما تعرضها أشهر الكتب العالمية - الرفيعة طبعا ، دون الرخيصة أو المسفة - وذلك دون تقيد بما يرد فيها من آراء ، لك أن تعتنق منها ما يروقك وتنبذ ما عداه ..**

أما أن أكون «وصيا» على عقلك أو رقيبا على غذاء هذا العقل ، بحيث لا أقدم لك من ألوانه سوى الغذاء « المعقم » وحده ، فهو مسلك ليس من شيمتى ولا مبدئى والحمد لله .. **لانه - فضلا عن رجعيته - يفترض فيك « طفولة » فى العقل ، ونقصا فى نضجه ، أربأ بك أن تتصف بهما .. كما أنه مسلك يضعف من مناعتك فى مقاومة أبسط « تيار هواء » ذهنى أو جرثومة فكرية قد تباغتك عدواها يوما ، من أى مصدر آخر !**

الخاطئة ..

◆ أما حديثى الثانى اليك فهو بصدد الكتاب الجديد من « مطبـوعات كتابى » الذى أعده لك فى هذه الايام .. فقد جرت العادة فى المطبوعات العربية المترجمة أن تنقل عن لغتها الاصلية نقلامشوها ، يتأرجح تأرجحا أعرج بين النص الكامل وبين التلخيص القصير ، وبلا أدنى اشارة الى أن الترجمة المقدمة الى القارىء انما هى مجرد تلخيص مطول مبتور للكتاب الاصلى ..

غير انى - خروجا على هذا التقليد المتبع - وعدتك بأن اقدم لك فى « مطبوعات كتابى » ترجمة دقيقة « كاملة » للكتب التى أخرجها لك فى هذه السلسلة .. وقد حسب البعض ان كتاب « الخالدون » الذى قدمته لك منذ شهور كان « ملخصا » عن الاصل وليس ترجمة كاملة له ، ولكنى أوضحت لك فى عدد سابق ان هذا الظن كان فى غير محله ، وانه اذا كانت سير الشخصيات التى تضمنها الكتاب قد جاءت أقصر مما يشبع نهم القارىء المستزيد ، فان الذنب فى ذلك لم يكن ذنبى بل ذنب المؤلف الذى ابتكر تلك الطريقة « الامريكية » ، اقتناعا منه بأن الالمام « ببعض » المعلومات عن ٢٥ شخصية مثلا ، خير من الالمام بمعلومات أوسع عن خمس شخصيات مثلا أو عشر ..

وجريا على خطتى هذه ، أعتزم ان أقدم لك بعون الله بعد أسابيع - فى موعد سأعلن عنه فى الصحف فى حينه - الكتاب الرابع من « مطبوعات كتابى » ، متضمنا النص الحرفى الكامل لقصة طويلة من أروع ما كتب الروائى الانجليزى المعاصر « سومرست موم » ، هى قصة « الخاطئة » ، التى تكاد تسمو الى مرتبة قصة تولستوى الخالدة « أنا كارنينا » ، فى تحليلها الرفيع للخيانة الزوجية ، وملابساتها ، ودوافعها ، ونتائجها .. فهى «تشرح» عواطف الزوجة الخاطئة ونفسيتها ، بمبضع الجراح البارع سومرست موم.. ولا عجب فقد كان « موم » طبيبا للاجسام قبل أن يحترف الادب فيصبح طبيبا للنفوس .. !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول : ((**خطايا الحب**)) وكتب أخرى ، وكتابى الثانى : ((**قلب عذراء**)) وكتابى الثالث : ((**الهاربة من الجنة**)) وكتابى الرابع : ((**حواء الجديدة**)) وكتابى الخامس : ((**أحدب نوتردام**)) وكتابى السادس : « **جريمة حب** » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

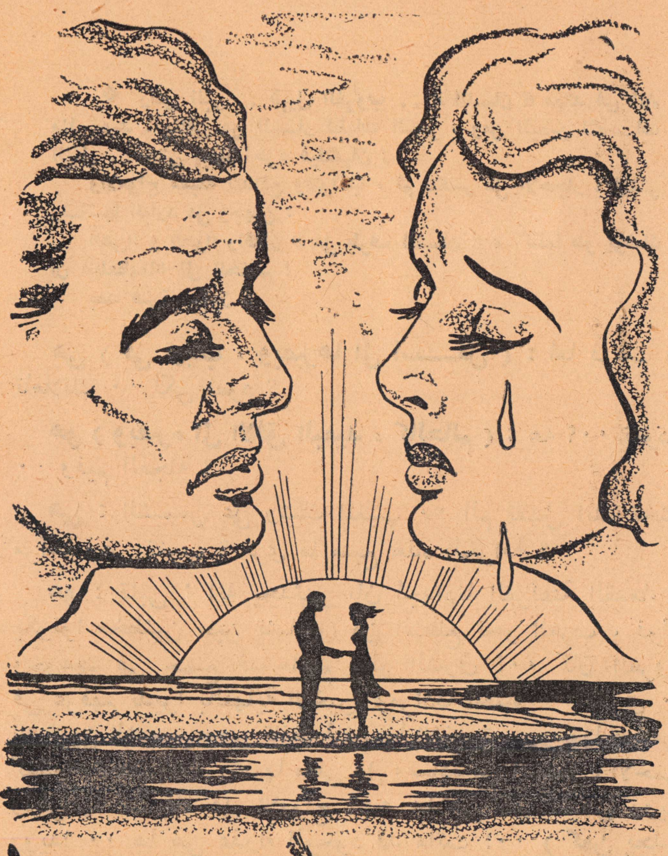
كتابى السابع ((**عشيقة نابليون**)) ، والثامن ((**مذكرات كيوبيد**)) ، والتاسع ((**صنم تحطم**)) ، والعاشر ((**حديقة الله**)) ، والحادى عشر ((**عندما تحقد المرأة**)) ، والثانى عشر ((**لعبة الحب والموت**)) ، والثالث عشر ((**توبة خاطئة**)) ، والرابع عشر ((**ايها الربيع ترفق**)) ، والخامس عشر ((**الشيطان على الارض**)) ، والسادس عشر ((**ليدى هاملتون**)) ،والسابع عشر ((**الارملة المرحة**)) والثامن عشر ((**حياة جورج صاند**)) ، والتاسع عشر ((**حياة سارة برنار**)) ، والعشرون ((**رباعيات عمر الخيام**)) ، والحادى والعشرون ((**حياة بيتهوفن**)) ، والثانى والعشرون ((**حياة موسولينى**)) ، والثالثوالعشرون ((**كوخ العم توم**)) والرابع والعشرون ((**الزوج والعشيق**)) والخامس والعشرون ((**البوهيمية**)) ، والسادس والعشرون ((**فتاة لها ماض**)) والسابع والعشرون ((**ترويض النمرة !**)) والثامن والعشرون ((**فن الحب**))

◆ **وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ،** ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ وثمن كل منها بالبريد المسجل١٢ قرشا ، والعدد العشرون وثمنه عشرون قرشا (تحديدا للطلبات نظرا لوشك نفاده وعدم امكان اعادة طبعه)

◆ **ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية من طريق مكاتب البريد MONEY ORDER** أو بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشتراكات

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة .. وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥قرشا . فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب **شركة فرج الله للمطبوعات في بيروت وفي بغداد (بشارع السنك ، بغداد)**



سراب ..!

قصة مصرية : للمحرر

◆ **راس البر .. قبيل الغروب .. « اللسان » ممتد فى الماء منذ بعيد ، يتلقى من اليسار لطمات البحر ، ومن اليمين لثمات النيل .. حتى يبلغا آخره فيلتقيان !**

والأمواج مقبلة تتدافع وتتواثب ، ثم تتكسر على الأحجار ، فتنثر رشاشها البارد على وجهين :

((هى)) و ((هو)) واقفان ((على طرف اللسان)) ، كأنما هو يوشك أن ((يلفظهما)) الى الخضم !

بعد فترة سكون :

هى (فى تهيب ، وبصرها الى أسـفل) : أما فرغت من تأملاتك ٠٠ لكى نعود ؟

هو (وبصره الى الافق البعيد ، كالحالم) : هه ؟٠٠ نعود ؟ ٠٠ وفيم العجلة ؟

هى : الشمس على وشك المغيب ٠٠ ألم تقل انك تخشى مرآها وهى تغرب ؟ ترى ما منبع هذه الخرافة ؟

هو : قلبى ! انه يحدثنى بأن أجدادنا الفراعنة القدماء لم يكونوا مخطئين حين تشاءموا من التطلع نحو الغرب ، فولوا وجوههم فى جميع فتوحاتهم نحو الشرق !٠٠ كان الغروب فى عرفهم نذيرا بالنهاية الاخيرة ومرادفا للفناء ٠٠ أنظرى ٠٠ ألا ترين الشمس وهى تلفظ أنفاسها الاخيرة ، ووجهها محتقن، كعذراء تحتضر ٠٠ رأسها ملقى على وسادة من السحاب الاحمر، وأطرافها مسجاة على الامواج ؟٠٠ ها هى ذى تغيض رويدا رويدا ٠٠ ها هى عذراء الوجود قد ماتت !٠٠ **(كمن يحدث نفسه ، فى سخرية)** : ثم يتحدث الناس عن « جمال الطبيعة » هه !٠٠ ان هو الا وهم من خيال الشعراء !

هي : وبالامس فقـط كنت تتغنى به ! يا للبصر من مرآة خادعة ، تعكس الاحساسات قبل المرئيات ! انك الليلة لا ترى

الجمال لان نفسك معتمة ٠ دع عنك هذه الخواطر السوداء ٠
(يرق صوتها) هلا اخترت غيرها للقائنا ٠٠ الاخير ؟

هو (فى مرارة) : كأنما يهمك أن يكون الاخير أو لا يكون ! **(يلمح فى عينيها نظرة تجيش لها نفسه فيستدير اليها ، ويقبض على ذراعيها بقوة)** سعاد ! لماذا وضعتك الاقدار فى طريقى ، ما دامت تنوى أن تعود فتأخذك ؟ **(وهو يخفف من قبضته ، ويرق صوته)** ولكن ٠٠ أى حق لى فى أن أزجرك !؟ قلبى هو الاحق بالزجر ٠٠ فانها غلطته !

هى (فى هدوء) : بودى لو أذكرك بهذا ٠٠ غدا ، حين تنسانى !

هو : كيف أنسى أحلامى الهائمة بين أجفانك ؟ دعينى أطيل النظر فى عينيك ٠ ما لهما تهربان من عينى ، وأهدابهما تختلج ، ككتاب يقلب الهواء العابث صفحاته ، أو شريط تتحرك صوره فى سرعة تخطف الابصار ؟٠٠ أوصيهما أن يتمهلا ، كى أقرأ فيهما صحائف حبى ، وأتملى برؤاى الجميلة ٠ أى نوع من المرايا حدقتاك ؟ منذ عرفتهما أحببت الظلام ، كى أراهما تلمعان لى وحدى ، فترتسم على صقالهما أوهامى السعيدة ٠ كم من ليال قضيتها ساهرا فى شرفتى المطلة على البحر ، أتلقى هواءه الرطب على جبينى ، فى نشوة المحموم ، وأنصت لهمسه الحلو فى أذنى ، فأحس بمثل اصطفاق الامواج فى رئتى ، وكأن قلبى طائر حبيس يرف بين قضبان صدرى ، يبغى الفرار !؟٠٠ وكم من ليال سهرت فيها أذرع السماء ببصرى وأرصد عينيك وهما تثقبان الظلام ، وتنيران أمامى الطريق !؟٠٠ سعاد ! محال أن يكون عمر هوانا ثلاثة أسابيع ٠ لكأننى عرفتك منذ دهور ٠٠ عرفتك قبل أن ألقاك !

هى (ترمى ببصرها الى البحر ، فى شرود) : أكل هذا بسببى ؟



٠٠ أفتـح لك قلبى وهى مازالت فيه ٠٠ فتتقـابلان على عتبته !

هو : أو تجهلين ؟ انك أول امرأة تنسى غرورها ! (**بعد لحظات ، فى صـوت آت من بعيد**) ٠٠ كما كنت أول امرأة نسيت فضولها !٠٠ منذ لقائنا الاول توقعت أن تسأليني عن ماضى قلبى ، عن تلك التى كانت تقطنه قبلك ، لكنك لـزمت الصمت ، وكان هذا كل ماأرجو ٠٠ كنت أشفق من أن تذكرينى بها فى البداية، وتلجئينى الى أن أفتـح لك قلبى وهى ما زالت فيه ٠٠ فتتقابلان على عتبته ٠٠ وأفقدكما معا ! ولكم أضنتنى حيرتى وأرهقنى ضميرى وأنا أهيىء نفسى لذلك الموقف الاليم، لولا أن أنقذنى صمتك ، وتكفل بايجـاد الحل ٠٠ أتاح لى الفرصة كى أتبين موقفى على مهل ، فلم ألبث أن أيقنت أنك قد ربحت المعركة ، وأفلحت فى ابعاد « ليلى » من قلبى ٠ وهكذا ، عندما فتحته لك لم تكن هى فيه ٠ كانت المسكينة قد تسللت منه تحت جنح الظلام وهى تكفكف دمعها ٠٠ (**فى صـوت خفيض**) ولكن ، ها هو اثمى قد حاق بى ، وحق على التكفير !

هى (كمن تخفى سرا) : لم يفت الأوان ٠ عـدنى أن تعود اليها ، فهى لا بد تنتظرك ٠٠ انها لا تعلم شيئا

هو : لا أكذب عليك : لن أستطيع !٠٠ بعد أن عرفت فى حبك حرارة الانفعال لن أطيق صقيع الحب الهـادىء الذى أحببتها اياه ٠ تريدين أن تعرفى مدى العاصفة التى أثرتهـا

فى كيانى ؟ اذن فانظرى ! أترين هدوء النيل ؟ هكذا كنت !٠٠ وهياج البحر ؟ هكذا صرت ! (**كمن يتنبـه الى نفسه**) والآن حدثينى عن ٠٠ غريمى ، فلكم يشوقنى أن أعرفه !

هى (**بعد فترة صمت**) : مختار ! هون على نفسـك ٠ ما هكذا يكون ٠٠

هو (**مقاطعا ، فى تهكم مرير**) : ما هكذا يكون لقـاء المحبين ؟ نعم ٠ انك محقة ، فاغفرى لى أننى أثقلت عليـك (**وهو يتطلع الى بعيد ، كمن يحدث نفسـه**) ٠٠ وان يكن شفيعى أننى أتشبث بهنائى الغارب ، وأدفع عنه عدوان الاقدار — خصمى العنيد ! — فالحرب بيننا سجال !

هى (**تلمع فى عينيها دمعتان**) : كلا ٠ لا تخطىء وتظلم الاقدار ، فالذنب ليس ذنبها ٠٠ بل ذنبى أنا ٠٠ أنا الجديرة بحقدك وبغضك ٠٠ أنا التى اعترضت طريقك ، عامدة !٠٠ ولكم كنت حمقاء ! (**كمن تتهيأ لحديث طويل**) مختار ! لقد كذبت عليك حين أخبرتك أن قريبـا لى قد خطبنى من أبى أمس ، واننى مقبلة على الزواج ٠ كلا ٠ لم يحدث من هـذا شىء ، فاننى أنصرف الآن من حيـاتك بمحض رغبتى ! دعنى أعترف لك بالحقيقة كاملة ٠ أعلم أننى سأؤلمك ، وسأدمى كبرياءك ، لكنك ستشفى من حبى حين تعلم كم أثمت فى حقك ٠٠ وفى حق « ليلى » ! انك تجهل اننى أعرفها ، فكيف لو علمت أننا ألصق صديقتين!؟٠٠ منذ تعارفنا وتفتحت بصيرتنا على الحياة ، مضينا معا ، نتسارر ونبحث عن الاحـلام التى تراود أذهان الفتيات ٠ لم تكن تلك الاحلام غير شتيت من الرؤى الزاهية والخيالات ، تحوم دائما حول دنيا الرجال ٠٠ القلعة الشائقة ذات الاسوار ، التى لم نكن قد اقتحمناها بعد ، والتى سبقتنى ليلى اليها حين قدر لها أن تلتقى بك ، فدخلتها معك وتركتنى بمفردى أواصل طوافى العقيم !٠٠ وبين حين وحين ، وكلما أرهقتها سعادتها معـك ، كانت تلقانى كى



تحدثنى عن نعيم الحب ، وما يدور داخل أسوار دنيـاها الجديدة !٠٠ وذات يوم أرتنى صورتك ٠ لم أعرك فى البداية أدنى اهتمام، ولا أثارت الصورة فى نفسى نحوك أى احسـاس خاص ، غير مضاعفة شعورى بالحياة الموحشة التى أحياها٠٠ لولا أن تكاثرت أحاديث ليـلى عنك ، عن عينيك اللتين كأنما تنطويان عـلى ألم دفين ٠٠ وعن نظراتك اليها ، ونجـواك وهمسـاتك ، وحـركاتك وسكناتك ٠٠ صـارت تطلعنى عـلى كل ما يدور بينكما ، ولا تخفى عنى شيئا ٠٠

٠٠ فبدأ يدب فى أعماقى شعور عجيب قاهـر ، يدفعنى دفعا الى محاولة رؤياك ٠ شعور زعمت لنفسى فى البداية أنه فضول برىء ، لا يخفى أية نوايا مغرضة ٠٠ حتى أظهـرت الشهور التالية مشاعرى سافرة أمامى ، فتبينت فيها ما كنت أخشاه ، ما كان يجتاح كيانى من شوق مدمر الى أن أعرفك ، وأجرب معك سائر الانفعالات التى صارت ترهق خيالى ، حتى لكانت تغرينى أحيانا بأن أغافل ليلى فأتناول صورتك وأمضى أمنى نفسى بكل ما شاقنى فيك خلال أحاديثها الطويلة عنك ٠٠ وأحلم بأن تختصنى عيناك بنظراتهما الحزينـة ، وتريق شفتاك فى سمعى همساتك الرقيقة ، وأنت تضغط على ذراعى بأناملك ٠٠

وهكذا مضى زمن وأنا أعيش فى جنة من صنع أوهامى !
٠٠ الى أن حانت فرصتى المنشودة ٠ علمت من ليلى انك قادم كى تقضى شهرا هنا ، عقب جفـاء عـارض بينكما ، فعجلت

بالحضور مع أسرتى ٠٠ فى أثرك !٠٠ ورحت أتعقبك ، فى الصباح على شاطىء البحر ، وفى المساء بين مقاهى النيل ـ اذ كان من حظى أن المصيف صغير ، والملاهى فيـــه محدودة ـ فصرت ترانى أمامك أينما سرت ، وحول المائدة المجاورة حيثما جلست ٠ وصار كل همى أن ألفتك الى نفسى ، وأبدو جميلة فى عينيك ٠٠ حتى سمعتك ذات يوم تهمس لشخص معك ، عن « هذه الحسناء ذات البيجاما الـــزرقاء » فأدركت أنـك تعنينى ، وكدت أشهق من فرحتى !٠٠ وحينمـــا خدمتنى الصدفة وعثرت على قريب لى يعرفك ، ثم جمعتنا فى الكازينو مائدة واحدة ، كانت المسافة بين قلبينا قد قربت ٠٠ ولم يعد يفصلنا الا عائق واحد : ليلى ! آه لو علمت المسكينة أنها هى التى ساقتنى اليك دون أن تشعر !

٠٠ لكننى لم أتعب فى آخمـاد ضميرى ٠ أوهمته أن الجفاء الذى بينك وبين ليلى عتيد أن يصرفك عنها الى غيرها ، واننى أولى بحبك من الاخريات ٠ بل ذهبت الى أبعد من هذا ، الى حد اقناعه بأننى انما أدخل حياتك برا بك ، لكى أطرد الشجن من عينيك ، وأمنحك السعادة التى عجزت هى عن منحـك اياها !٠٠ وصدقنى ضميرى ، أو تظاهر بتصديقى ، فلم يبق الا ضميرك ٠٠ وكنت واثقة أن مجرد معرفتك بمدى صـلتى بليلى ، كفيلة بأن تجعلك تعرض عنى من البداية ، وتبعدنى عن طريقك ، بركلة من قلبك !٠٠ فلم أر بدا من أن أتسلل الى حياتك فى ثيابى التنكرية !

وأنت تعرف البقية : لم تنجح التجربة !٠٠ حين ظفـرت بك ، أحسست بانفعال السائح اذ يضـع قدمه فوق أرض جديدة، يهزه الشوق الى أن يجوبها ، ويدفعه الفضول الى رؤية كل ما فيها ٠٠ ثم ٠٠ ينتهى كل شىء ! وهكذا لم تمض على أيام حتى استعدت توازنى ، وأفقت من ترنح سكرتى ، فرأيت

كم أضلنى قلبى ـ هذا النبى الكاذب ـ حين قادنى وراءه ، معصـوبة العينين ٠٠ وان كنت قد غنمت من رحلتى تذكارا ثمينا منحتنى اياه الحياة وهى تفضى الى بسرها ٠ لن أنسى صوتها وهو يهمس لى فى فحيـح مخيف : « ما من أمل فى الوجود يساوى ـ عند تحققه ـ نصف عناء الوصول اليه ٠٠ ولا من متعة تستحق ـ بعد بلوغها ـ حمى الشوق اليها ! »

هو (فى لهجة رثاء) : هنا تبدأ تعاستك ٠ كان خير لك أن يبقى ايمانك بالسعادة ، فيشعل فيك حرارة الحياة ، من أن تفقدى هذا الايمان فيغمر حياتك الصقيع ٠٠ ولخير لك أن تظل آمالك دائما تسبقك ، لا تبلغينها ٠٠ من أن تبلغيهـا فتتكشف لك عن هباء !٠٠ كما حدث يوما لى **(يبدو الشجن فى عينيه ، ثم يتمالك نفسه)** والآن دعينى أنوب عنك فأكمل القصة ، فلربما يصعب عليك مواجهتى بالبقية : لقد مضيت تجترين أحلامك ، وخيالك يصور لك اللوحة رائعة من بعيد ، فلما فتحت عليها عينيـك ، عن قرب ، لم ترى غير لطخ من الالوان ـ لا معنى لها ـ هى دون ما عشت شهورا تتخيلين ٠٠ فانطفأ حبك لى ، أصبت بخيبة أمل !٠٠ والقلعة التى طالما حمت حولها ، وحلمت بأن تغنميها ، بدت لك ـ حين دخلتها ـ أطلالا خاوية ، مكسوة بطلاء براق !

هى : ككل أمانينا !

هو : نعم ، فاننى لم أكن فى دنياك غير وهم كبير ! **(وهو يمد بصره الى أفق سحيق)** ٠٠ أو لمعة سراب !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى.. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الاثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المرأة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت : رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
فى سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر
الام : مكسيم جوركى
الملك يلهو : فيكتور هوجو
الذبيحة : اندريه اوبيه
الجنس الآلى : كاريل كابيك
الابن الاكبر : جالزوورثى
هرنانى : فيكتور هوجو
ترويض النمرة : شكسبير
الحياة نفاق : لويجى بيراندللو

واليوم أقدم لك هذه المسرحية الفرنسية الحديثة : « اغلال الحب »


LA CHAINE
Par
STEVE PASSEUR
أغلال الحب
قصة تمثيلية كبرى
للروائي الفرنسي المعاصر
" ستيف باسير "

لكل لون من الحب أغلال ..

◆ هذه المسرحية صورة من الحياة الانسانية .. فى أى مكان .. وفى كل زمان .. انها قصة النفوس التى شوهها المرض ، والقلوب التى سممتها الغيرة .. قصة الحب الحيوانى الذى يدفع الى التضحية ، كما يدفع الى القسوة والكيد .. وقصة الحب النبيل الصافى ، الذى يدفع أيضا الى التضحية ، كما يدفع الى القسوة والكيد .. ولكنهما ، فى هذه الحال ، القسوة على النفس لا الغير .. والكيد للنفس لا للغير !

انها لون من الحياة يوجد فى كل وسط ، وفى كل مجتمع .. بل انه بيننا فى حياتنا اليومية ، وان كانت الأنانية ، والنعرة الكاذبة ، والكرامة الزائفة ، تجعلنا نموه على أنفسنا فننكر وجوده ، ونستنكره .. بل وقد نذهب فى المغالاة الى درجة أن نستنكر تصوير الكاتب له فنزعمه اغراقا منه فى الخيال !

الفصل الاول

◆ **ترفع** الستار عن صالون فى « شاليه » بمشتى (اركاشون) الذى يتردد عليه ميسورو الحال من الطبقة المتوسطة فى فرنسا .. فنرى « ايفيت » و « كامى » و« دانييل» يجلسون معا ..

أما الأوليان فهما ابنتا رب الدار : « كامى » عانس فى السادسة والثلاثين ، مصابة بالتدرن الرئوى ، وقد جعلها المرض حقودة ، قاسية ، ميالة للشر ، سيما وانها لم تكن على قسط من الجمال .. و « ايفيت » فى الثالثة والثلاثين ، مريضة كأختها ، بيد أن المرض لم يبلغ معها مداه لدى أختها ،

ومن ثم فهى أقل منها شرا ، وان كانت أكثر منهـــا جمالا وذكاء ٠٠

وأما « دانييل ميراى » فرجل فى الثانية والاربعين ، بادى السذاجة والصراحة والذكاء ٠٠ كان الى عهد قريب تحت رعاية أمه وسيطرتها، كأنه غلام صغير ، ومن ثم فهو لم يعرف الحب، ولا خالط النساء ! ـ وان كان فى ميدان الاعمال موفق كصاحب مصنع للانابيب الخزفية ، أو « المواسير الفخار » ٠٠

وحول المصنع يدور الحديث عند رفع الستـــار ، **ويلمس « دانييل » من اهتمام الفتاتين ما يدفعه الى دعوتهما لزيارة المصنع ٠٠ ويردف قائلا انه يدعو معهما ابنة عمهما ارمانس٠٠ فتقول « كامى » فى فتور انها ليست ابنة عمهما فعلا ، وانما هى قريبة فقيرة كفلها أبوهما !٠٠ ولكن هذا الايضاح لايثنى « دانييل » عن عزمه ، فتندفع الشقيقتان تحاولان اقنـاعه بأن « أرمانس » مريضة بالســـل فى أقصى درجاته ، وأن الاسرة لا تقيم فى « اركاشون » منذ اثنى عشر عاما الا من أجلها !٠٠ لكن الرجل يجد صعوبة فى أن يصدق ذلك ، سيما وهو يرى « ارمانس » تتردد فى كل يوم على بلدة « بيلا » القريبة، وتزور « مدام كودرو » صديقة الاسرة ـ فى حين أن المرضى لا يسمح لهم عادة بمغادرة منطقة الاستشـفاء ـ ولكن انكاره لا يزيد الشقيقتين الا امعانا فى تنفيره من « ارمانس » ، وفى التقرب اليه ومحاولة اجتذابه اليهما** ٠٠ واذ ذاك يقول :

ـ لقد فتح أبوكما لى باب داره ، دون أن يساوره شىء ٠٠ ولكنى أعزب ، وقد يكون استغلالى لكرمه وترددى على داركما يوميا ، بل مرتين فى اليوم أحيانا ، مما يبعث فى نفســه آمالا ٠٠؟

ويبعث حديثه الامل فى نفسيهما٠٠ وتروحان تستدرجانه، طامعتين فى أن ينتهى الى مفاجأتهمـــا بأنه يعتزم طلب يد

احداهما !٠٠ لكنه يفاجئهما بدلا من ذلك بقوله مستطردا : « ٠٠ لهذا أرانى مضطرا الى أن أضع حدا لصداقتنا ٠٠ أو على الاقل أن أجعل لها وضعا أو شكلا آخر ٠٠ فانى أصارحكما بأننى وجدت الهناء فى داركم ٠٠ و ٠٠ »

ويلج الحجرة اذ ذاك مسيو « سارتيج » رب الدار ٠٠ وهو رجل فى الستين من عمره ، استفحل استبداد السل برئتيه ٠٠ ولكن داءه لم يشغله قدر ما كان يشغله حال ابنتيه العانستين ، المصدورتين ٠٠

ويفاجىء الاب ابنتيه بأن ثمة ضيفا لا بد لهما من أن تقابلاه ٠٠ وما أن تخرجا ، حتى يتحول الى « دانييل » يحدثه بفتور ، مبديا عدم رضائه عن اختلاطه بابنتيه !٠٠ واذ يهم « دانييل » بالانصراف ، تقبل ارمانس ٠٠ فيعدل ويصر على البقاء ، فى برود يغلب برود سارتيج ، الذى لا يلبث أن يبرح الغرفة ٠٠

ويخلو « دانييل » الى « ارمانس » ٠٠ فاذا هى فتاة جميلة ، فى الرابعة والعشرين ، رقيقة ، ذكية ـ وان لم تكن مثقفة ـ يبدو على محياها وفى حديثها انها خيالية النزعة ، مشبوبة العاطفة ٠٠ تواقة الى الحب ٠٠ من أجل الحب !

ويحاول « دانييل » أن يفتح للحديث بابا ، فيقول لها : « انك أصبحت أقل ظهورا عن ذى قبل فى دارك ؟! »

ـ هذه ليست دارى ، وانما دار آل سارتيج ٠٠ أما دارى أنا فأرجو أن لا يطول الامد بارتقابها ٠٠ ثم ان مسيو « سارتيج » ليس عمى فى الحقيقة ٠٠

ويقاطعها محتجا ، ثم يسائلها عما يدعوها الى أن تصده كلما تقرب اليها ، ويستطرد قائلا : « الآن فهمت ٠٠ لانك ضعيفة ، رقيقة ٠٠ »

فتبتسم ارمانس وتقول فى تأكيد : « على العكس ياصديقى المسكين ٠٠ فانى لست ضعيفة »

ـ لا تتغابى عما أقصد يا ارمانس ٠٠ قد أكون على استعداد لان لا أسمح لصحتك بأن تقوم حائلا بيننا ٠٠

ـ ولكن صحتى على أكمل ما ينبغى ٠٠ وان كنت أوقن أن « كامى » و « ايفيت » تزعمان اننى مصابة بالتدرن الرئوى فى أقصى مراحله ، لتفسرا اقامتهما فى « اركاشون » !

ويبدى « دانييل » استنكاره ، فتمضى قائلة : « ان آل سارتيج يكرهوننى الى هذا الحد ٠٠ »

ـ لا تسرفى فى ظلمهم يا ارمانس ٠٠ ألا تذكرين لمسيو سارتيج انه كفلك وعلمك وعنى بك ؟

ـ صحيح ٠٠ علمنى بدليل انه لم يسمح لى مذ قدمت الى هنا بأن أفتح كتابا !٠٠ ولولا اننى أقضى خمس ساعات كل يوم فى القراءة لمدام كودرو ، لما كان لى هذا القسط من الاطلاع ٠٠

وتفيض مشاعر « دانييل » فيقول لها: « **الواقع ان سعادتك كانت أهم ما شغلنى منذ خمسة عشر يوما ٠٠ اننى ٠٠ اننى أحبك يا ارمانس ٠٠ أحبك من كل قلبى ٠٠ انها المرة الاولى خلال أعوام عمرى الاثنين والاربعين التى أقول فيها لامرأة اننى أحبها !٠٠ وما كنت لأؤمن بالحب ٠٠ كنت أظنها كلمة يضفى بها الرجال والنساء شيئا من البهجة على أنفسهم ٠٠ ولكننى منذ خمسة عشر يوما يا ارمانس أشعر بأن للحب وجودا ملموسا ٠٠ كالمنضدة والمقعد ٠٠!** »

ـ ما ينبغى لك أن تحبنى يا دانييل ٠٠ اننى أدرك صدق عاطفتك ، فقد دفعتك الى أن تحبنى برغم أنك كنت تظننى مريضة بالسل !٠٠ وما كنت لاجد رجلا أفضل منك ٠٠ ومع ذلك فليس بوسعى أن أصبح زوجة لك !

وتزول حيرة الرجل حين تصارحه بأنها وان كانت تقدره وتحترمه ، الا أنها لم تعد ملكا لنفسها ، فيهتف فى لهفة : « اذن ، فملك من أنت ؟ »

وتقبل اذ ذاك « كامى » تحاول استدراجه الى استئناف الحديث الذى قطعه أبوها ، وتسعى لاقصاء « ارمانس » فتنبئها بأن مدام « كودرو » قد أقبلت لزيارة أبيها ٠٠ ولكن «دانييل» يتشبث ببقاء « ارمانس » ، ويقول لكامى : « ليست بى أية رغبة لمتابعة الحديث ٠٠ فدعينا ٠٠ أرجو أن تبرحى هذه الغرفة يا آنسة ، فان لدى الكثير أريد أن أقوله لأرمانس ٠٠ »

وينسيها الغضب ما كانت تحرص عليه من تلطف ، فتقول ان الساعة قد بلغت السابعة الا الربع من المساء ، وان على « ارمانس » أن تنصرف لاعداد العشاء ، ومن ثم فيجمل به أن ينصرف ، فيقول لها : « أحب أن أؤكد لك أن ارمانس ستكف عن أن تكون خادمة الاسرة ٠٠ »

فتسأله : « واذن فماذا تصبح ؟ »

ويجيبها فى اعتداد بأنها ستصبح زوجته ٠٠ ولكن ارمانس تصيح فى لهجة الطفلة التى تأبى شيئا يراد فرضه عليها : « ان دانييل لا يفقه ما يقول ٠٠ ما كنت على غرام معه ٠٠ وليس ذنبى أنه وقع فى هواى ٠٠ ولكننى لا أريد ٠٠ لا أريد أن أتزوج منه ٠٠ »

وتقول « كامى » : « بكل تأكيد ٠٠ أنت لا تستطيعين الزواج منه »

فيصيح دانييل : « مخطئة أنت يا آنسة ٠٠ فذلك الداء الذى حاولت أن توهمينى به لا وجود له ٠٠ ولن يحول بينى وبينها ٠٠ وانها لتعرف ذلك ٠٠ أقسم اننى سأتزوج منها »

وتخرج كامى حانقة ، فتقول أرمانس : « انك لا تدرى ما فعلت ٠٠ لقد أطلقت «كامى » و « ايفيت » ضدى ٠٠ وانهما لقادرتان على ما لا يخطر لك ببال من الشر ٠٠ وخليق بك أن تقر فى رأسك أننى لن أكون لك ٠٠ فأنا خطيبة « روجيه فيرو » ٠٠ وانى لأعبده وسأتزوج منه خلال شهر ! »

ويذهل « دانييل » ، ويأبى أن يصدق ٠٠ واذ تضيق ارمانس باصراره على استنكار حبها لروجيه ، يقبل «سارتيج» وابنتاه ، فيحاول الرجل أن يحمل « دانييل » على الانصراف ، ولكنه يقول : « هذا مطلب من الصعب تحقيقه ، اذ لا بد لأرمانس من أن تصحبنى اذا انصرفت ! »

ويبدو الغضب على « سارتيج » ، فتقول ارمانس : « لقد جن يا عمى ٠٠ ليس بينى وبينه شىء »

ويلتفت الرجل اليها قائلا : « لقد روت لى مدام كودرو نبأ علاقتك بروجيه فيرو ٠٠ »

ـ وهل عرفت اننى خطيبة روجيه ؟

ويتبدى الخبث على سارتيج ، وقد غاظه ثباتها ، فيقول : « **اننا نعرف انك منذ شهرين تقضين ثلاث ساعات من كل يوم مع عشيقك ، فى بيت استأجره ليستقبلك فيه فى بيلا !** »

ويصيح دانييل : « دافعى عن نفسك يا أرمانس ٠٠ أكدى لعمك أن كل ما بلغه ليس سوى وشايات سخيفة »

ـ ولكنها ليست وشايات يا دانييل ٠٠ ولعلك تقر بأننى لا يمكن أن أغدو زوجة لك اذا عرفت اننى حقا عشيقة روجيه منذ شهرين !

ويشتد سخط سارتيج فيصيح فيها : « أتجرؤين على أن تقولى هذا أمامى ؟ »

ـ بل وأجرؤ على أن أقول لك اننى أفخر بأننى عشيقة روجيه !

وتثور ابنتا سارتيج « حياء ! » و « اشفاقا على الفضيلة ! » ٠٠ ويروح الرجل يتوعد المارقة بشتى صنوف العذاب ٠٠ بينما تصيح كامى : « كيف تلتزم الصمت يامسيو ميراى ؟ ٠٠ هذه هى اللحظة التى يحق لعزيزتك الصغيرة النقية « ارمانس » أن تتوقع منك فيها كلمات الغزل والهوى ؟! »

ـ بوسعى أن أقول لها كلمات من هــذا النوع ‏٠٠‏ فان عواطفى لم تتغير قط ‏٠٠‏

ويدعوه سارتيج الى الانصراف ، ليناقش قريبته الحساب فيما ألحقته بالاسرة من عار ‏٠٠‏ واذ يقول دانييل انه لا يرى عارا لحق بالاسرة ، تقول كامى : « لعلك نسيت أن أختى واياى ما كنا لنلقى عناء فى الزواج قبل زلة ارمانس ! »

ويصيح سارتيج بضيفه فى هيــاج : « لست أنت الذى يمنعنى من أن أوقع على قريبتى ماتستحق من عقاب ‏٠٠‏ وخليق بها أن تدرك أنها ما ينبغى أن تتوقع حماية من أحد »

فتقول ارمانس : « بل اننى أتوقع حماية روجيه ، وثق أنها كافية ‏٠٠‏ أتظنك تستطيع منعى من الزواج منه ؟ »

ـ بل انك لن تــريه ثانية ‏٠٠‏ لقــد أخطأت الحساب يا صغيرتى ، ولعلك حين وقعت على روجيه ظننت أنك دبرت زيجة غنية ‏٠٠‏ ولكن فاتك أن تتعرفى رأى والدى عشيقك فى مناوراتك الوضيعة ‏٠٠‏ وحتى لو ان مسيو فيرو وافق عــلى زواجك من ابنه فاننى أمنع هذا الزواج ‏٠٠‏ أمنعه من أجل ابنتى ‏٠٠‏ أجل ، من واجبى أن أخمد الفضيحة ، وزواجك كاف لان يعززها وأن يدعم الاقاويل عنها ‏٠٠‏ ومن الظلم أن يكون سوء مسلكك عقبة فى طريق سعادة كامى وايفيت ‏٠٠‏ وان حبى لهما ليجعلنى منذ اليوم لا أكن لك سوى كل بغضاء وحقد !

ـ انك لن تخيفنى ما دام روجيه قريبا منى ليدافع عنى ‏٠٠‏اسمع يا دانييل ‏٠٠‏ اذهب فابحث عن روجيــه ليحضر فينتزعنى من بين هؤلاء القوم !

وما أن ينصرف دانييل حتى يفاجىء سارتيج الفتاة بأن الحبيب الذى تعتد به قد رحل الى انجلترا ، اذ أرغمه والداه على الابتعاد كى ينسى غرامه الطائش !‏٠٠‏ وتأبى ارمانس أن تصدق فى البداية ‏٠٠‏ بينما يقول سارتيج لابنته « كامى » :

ـ دعيها تخرج ٠٠ دعيها تنصرف ٠٠ انها لا تملك ثوبا ولا قميصا ، بل ولا حقيبة تضع فيها فرشاة أسنانها !٠٠ انك تنسين ان قريبتنا العزيزة لا تجيد حرفة ، وليس أمامها سوى أن تغدو خادمة او عاهرة بغيا ٠ ولكنها لا تقوى على ذلك والا لبادرت بالانصراف مع دانييل ميراى ٠٠ ومن ثم فالوقت أمامنا متسع لترويضها ٠٠ ومن اليوم سننقل فراشها الى حجرتكما لتكون تحت رقابتكما ٠٠

وتصيح ارمانس مذعورة : « الآن تبينت خطتكم ٠٠ **تريدوننى أن أجن مثلكم ، ثم أصاب بالسل ٠٠ ولكنكم تنسون اننى لن ألبث أن أغادركم خلال ربع الساعة ٠٠ سأذهب مع روجيه ٠٠ اننى موقنة من أنه لم يرحل ، وما كان ليرحل دونى ٠٠ أتدرون السبب ؟٠٠ اننى ٠٠ حبلى ٠٠ أقسم لكم !»**

ولا يزيدهم هذا الاعتراف سوى قسوة عليها ، وتهديدا لها ٠٠ وهى تقاومهم وتتحداهم ٠٠ حتى يأتى صديق لروجيه ينبئها بان ابوى الحبيب قدقسراه ليلة أمس على الرحيل، فلم يكد القطار يبارح المحطة حتى أطلق الشاب على نفسه الرصاص وانتحر !



وتنهار أرمانس، فتقول لهم: « الآن تستطيعون أن تفعلوا بى ما تشاءون ٠٠ عذبونى ، ان شئتم ٠٠ لم يعد ثمة ما يهمنى بعد أن أصبحت لا أشعر بوجود روجيه الى جوارى ٠٠ بعد أن انتهى كل شىء ٠٠ لم يبق لى الا ايمانى بأن روجيه أحبنى

٠٠ أقسم أنه أحبنى ٠٠ وحبنا هو الذى دفعه الى الانتحار »

وينصرف حامل النبأ المشئوم ٠٠ وتبقى ارمانس وقد هدها الاسى ، حتى لتتأثر ايفيت لحالها ٠٠ فيقول لهـــا أبوها : « لا داعى لهذا التأثر ، فانه يسىء الى صحتك ٠٠ »

لكن الفتاة تهيب بأبيها : « أليست لديك رحمة ؟ »

– ان رحمتى تتجه الى ثلاثتنا أولا ٠٠ وانى لأهتم بصحتنا قبل أن أحفل بمثل هذه الفتاة !

ويقبل اذ ذاك « دانييل » ، فما أن يلم بما حدث ، وما أن يرى شماتة سارتيج و « كامى » ، ولوعة ارمانس ، حتى يقول لها : « اطمئنى الى وجودى يا ارمانس ، فانى سأفعل المستحيل لانقاذك ورعايتك ٠٠ »

ويتجهم سارتيج له ، ويشعره بأن وجوده أمر غير مستحب ٠٠ واذ يرى ارمانس صامتة ، يهم بالانصراف فتصيح : « لا، لا ٠٠ أود أن لا تتركنى يا دانييل ٠٠ »

ويلتفت دانييل الى رب الدار يسأله وابنتيـــه أن يبرحوا الحجرة ليتحدث مع ارمانس ، فتقول كامى لابيها : « ما أراك تحتمل هذا الوضع يا أبت ! » ٠٠ وتقـــول ايفيت : « من العجيب أن ارمانس تجد الجرأة رغم الدموع التى أرقناها من أجلها ، كى تتآمر علينا ! »

ويحاولون أن يوغروا صدر دانييل ضد الفتاة المسكينة ٠٠ ولكنه لا يحفل بهم ، ويلتفت اليها ، فتهـــم بأن تشرح له موقفها ، غير انه يقاطعها قائلا : « لا تتعبى نفسك يا ارمانس ٠٠ لا حاجة بك الى ذلك ٠٠ »

ويخرج سارتيج وابنتاه من الغرفة ، فتقول ارمانس :

– يحسن أن تعلم انهم ما قبلوا أن يتركونا وحيدين الا لانهم عرفوا أن فى أحشائى جنينا ، وان من أجله ، وأجله وحده سأطلب العون والنجدة ٠٠ (ويبهت دانييل ، بينما تمضى هى

قائلة :) أجل ، اننى حامل ، وسأضع وليدى فى ابريل المقبل ٠٠ وأقسم لك بأقدس شيء ، بذكرى روجيه ، اننى ما كنت لأحجم عن الانتحار لولا اننى حامل ٠٠ فاعلم هذا ٠٠ واعلم اننى من أجل هذا الجنين وحده أرتضى العيش معك ٠٠ »

فيقول دانييل : « لا حاجة بك الى العيش معى من أجل معونتى ٠٠ اننى أعاهدك ٠٠ »

ـ لا داعى للوعود ٠٠ لقد كنت منذ ساعتين تؤكد انك تحبنى ٠٠ حتى بعد أن أكدوا لك اننى مصابة بالسل ٠٠ فهل ما زلت عند حبك ؟٠٠ ان حزنى قد يخبو يوما فيتاح لنا أن نسعد معا ٠٠

ـ أجل ٠٠ أجل ٠٠ بكل تأكيد ٠٠

ـ وهل تقبل ـ قبل كل شيء ـ أن تمنح ابن روجيه اسمك ؟

ـ بل اننى على استعداد لان أتزوج منك فورا ٠٠

ـ وهل ستقبل أن تنتظرنى حتى أفيق من الصدمة وأحاول أن أحبك ؟

ـ أجل سأنتظر مهما طال الامد ٠٠

ـ أنت شهم يا دانييل ٠٠ انك بالتأكيد أهل لان تكون سعيدا ٠٠ أما أنا فلن أطالب بالسعادة ، وانما سأطالبك بالحق فى أن أكون حزينة شقية !

الفصل الثانى

◆ ويتزوج دانييل من ارمانس .. ويشاء القدر ان يموت سارتيج وكامى فى اسبوع واحد . فلا تجد ايفيت ملاذا ولا رعاية الا فى دار الشابة التى طالما أساءت اليها .. فى دار ارمانس !.. ولكن ، هل أخمد هذا الجميل جذوة الشر الكامن فى نفسها ؟

ان الفصل الثانى يدور فى حجرة مكتب دانييل بداره فى بلدة «كاديلاك»، وقد جلست ايفيت تتحدث الى برنار ، مساعد دانييل .. شاب مليح ،

وسيم ، فى الثامنة والعشرين من عمره .. جم النشاط والذكاء .. وهى تقول له مستهامة :

ـ هلا قلت لى كلمة حبيبة .. هلا منحتنى ابتسامة صغيرة ؟ .. انك فاتن .. أواه ! .. ان سحرك هذا يذكرنى بكلام أود أن أفضى به اليك .. أما خطر لك أن تتساءل عن السر فى أن ارمانس ظلت ستة شهور لا تستقبلك فى دارها ؟ انما كان ذلك لأنك تشبه ، الى حد يدعو للدهشة ، شابا كانت تحبه الحب كله ، وقد مات منذ أربع سنوات ..

وتلمح استنكاره فتتعلل بأنها انما تقول ذلك كمجرد كلام تتقرب به اليه، وكتعزية لنفسها اذ تعيش على خير دانييل وارمانس مذ مات أبوها وأختها بعد أن ضاعت موارد الأسرة اثر صفقة خاسرة .. ثم يعاودها الخبث فتذكر أن ارمانس بدورها كانت يوما تعيش على خير أبيها واحسانه . وتستدرك قائلة فى تناقض ينم عن ارتباك حالها النفسية : « ولكنا كنا فى منتهى الشر نحوها .. كنا جميعا نبغضها .. بل أننى لا أزال أبغضها رغم كرمها ! .. أجل .. أقسم لك ! »

وتتبدى الدهشة على الشاب الرزين ، فتقول : « اننى أعانى من عنوستى أعمق الآلام .. وخليق بك أن تدرك هذا » .. واذ تشتد دهشة الشاب تفاجئه بأن دانييل وارمانس يدبران خطة لحمله على الزواج منها ، وخيرلهما أن يستغلا الفرصة لأنهما لا يملكان شيئا . وقد رأى دانييل أن يضاعف مرتب «برنار» عربونا لهذا الزواج .. ويتساءل الشاب فى عجب : كيف عرفت هذا كله ، فتقول :



ـ اننى استرق السمع من وراء باب مخدعهما .. أيروعك هذا ويذهلك ؟ .. اننى أقضى أوقاتى أتجسس على الزوجين ، وأراقبهما كلما انفردا معا بطريقة فذة .. وقد جعلنى هذا ذات مواهب شيطانية .. وانى لأعترف أننى أكشف دائما عن سجايا طيبة لدى ارمانس. **ولكن هذا لايمنعنى من أن أبغضها .. بل كثيرا ما تمنيت أن أقتلها وأنا ألصق أذنى بثقب المفتاح**

وانصت الى أحاديث الهوى يسكبها دانييل فى اذنيها !.. اننى اشعر بأننى اثار لنفسى المحرومة اذ أكشف عن أدق أسرار حياة ارمانس الخاصة مع دانييل .. فمنذ جئت الى هنا وأنا لا آوى الى مخدعى قبل أن يناما .. ولو أنهما أقبلا الآن لقلت لهما أن ليس مما ينبغى أن يأويا فتاة عانسا فى عش غرامهما ! .. لقد ظلا العام الاول من زواجهما متباعدين ، ولكنهما يعيشان منذ ثلاث سنوات فى هوى مشبوب .. أو هو على الاقل مستعر من ناحية دانييل ..

ويحاول برنار أن ينأى بها عن هذا الحديث ، ولكنها تقول ان هذا هو الموضوع الأوحد الذى يهمها ويلذ لها .. ثم تلاحظ تقززه واشمئزازه فتقول له : « هلا يروق لك هذا الحديث ؟ .. وهل هذا لانك تحب ارمانس ؟ »

ويرميها بالغباء والطيش ، فتقول انها ما قالت كل ما قالت الا لأنها تصبو الى أن يتزوجها .. « ولو أننى اكتشفت انك تحبنى لعبدتك .. اننى لا أتعذب من شىء قدر عذابى من أننى عانس .. اننى فى حاجة الى الحب لأحس بأننى آدمية ! »

وتقبل ارمانس ودانييل ، فيتلطف هذا الى ايفيت ثم يسأل برنار عما وراءه ، فيذكر له انه جاء يستشيره فى بعض أمور خاصة بالعمل .. حتى اذا تهيأ للانصراف ، التفت دانييل الى ارمانس قائلا : « أى يوم تحددينه لبرنار كى يتناول العشاء معنا ؟ » .. فتقول : « أقترح .. الغد » .. وتقول ايفيت له وهو يخرج : « سأرافقك حتى المكتب »

ويخلو دانييل الى ارمانس ، فتنصحه بأن يذهب الى المصنع ليتفقد العمل ، ولكنه يقول : « ألا يكفينى اننى حرمت من صحبتك طيلة الأصيل .. وساعتين فى الصباح ؟ .. اننى لا أقوى على بعدك .. »

فتسأله فى اكتئاب : « أو تنتحر اذا فقدتنى ؟ »

ـ اننى أناشدك ، بل أمنعك من أن تتحدثى عن الموت والضياع .. لقد استطبت هذه النزوة منذ زمن ، حتى أصبحت ترددينها مرات عديدة فى اليوم !

ـ آه ، معذرة فقد نسيت .. نسيت اننى لا أملك حقا فى نفسى ، وان من الانصاف أن أعبر لك عن عرفانى بما لك من صنيع جليل .. لست أقول هذا عن شكوى ، ولكنى أشعر بلذة فى أن أظهر عرفانى بالفضل .. اننى لا أنسى انك أنقذت موريس واياى .. ولن أنسى حلمك وصبرك خلال الشهور الخمسة عشر الاولى لزواجنا .. ان الاعتراف بالجميل خلة يطيب للمرء أن ينميها فى نفسه ..

ـ ليست بك حاجة لذلك .. اننى لم أعد أدينك بشىء ، فقد أضفيت على السعادة زمنا طويلا ..

ويخيل اليها أن ابنها « موريس » ـ ثمرة زلتها مع روجيه ـ يصرخ باكيا ، فلا تتردد فى أن تترك دانييل وتهرع خارجة ، حتى اذا اطمأنت الى أنه يلعب فى الحديقة ناعما ، عادت الى دانييل فاذا به يقول : « يا الله .. لكم تحبين هذا الصغير .. تحبينه أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ! » .. فتجيبه : « بل اننى لأسائل نفسى أحيانا ، أترانى أما صالحة ؟ »

وتحاول أن تتحول به عن هذا الموضوع ، فتقول له : « ألا ترى أن آمالك وشيكة التحقق .. بصدد برنار وايفيت ؟ »

ـ أجل .. ولكننى غير مشغول بهذه الآمال الآن ، فلدى آمال أخرى تملك على تفكيرى .. اننى فى شاغل بك وبنفسى ..

ـ لا تقلق من أجلنا ما دمنا سعيدين ..

ـ اقسمى لى انك سعيدة يا ارمانس .. اقسمى برأس موريس !

ـ أنت تعرف اننى عاهدت نفسى على أن لا أقسم برأسه .. (فى اخلاص) ولكننى راضية .. قانعة ..

فيقول فى أسى : « أرأيت ؟ .. أنا سعيد .. اما أنت فقانعة .. فحسب !؟ »

وتحاول أن تثنيه عن المضى فى هذا الموضوع ، ولكنه يصر على أن يحسما الأمر ، فتقول له ان اصراره قد يفضى الى اسماعه ما لا يسره أو يرضيه .. حتى اذا سدر فى اصراره .. قالت :

ـ اننى أخدعك يا دانييل ، فأنا منذ شهرين عشيقة برنار !

فيقفز نحوها صائحا : « يا لك من تعسة .. انك كلبة ! .. اننى اكرهها لك .. أنت كلبة نجسة .. ولكننى سأجبرك على أن تصبحى امرأة شريفة .. شئت أو لم تشائى »

فتهز كتفيها وتقول : « اننى أحب برنار بكل ما فى من عاطفة وقوة .. وما أحببته ـ ولست أبقى محبة له ـ الا لأننى اشتهيته منذ النظرة الاولى .. وما دفعنى على الاعتراف لك الآن الا الامانة ، لاننى مضطرة الى أن أقدم توا على عمل يسوؤك .. فلست أرضى أن أظل استرق المتعة مع برنار كاللصوص .. »

وتمضى أرمانس فى صراحتها وتحمسها قائلة : **« لقد اتهمتنى باننى كلبة ، وهذا حق .. ولكنك أيضا كلب .. وما كان زواجنا فاشلا الا لعجزنا عن أن نكون معا كالكلاب .. لا تكذبنى ، فانما أنت تكذب على نفسك .. انك ما أحببتنى ولن تحبنى الا لما أتيحه لك من متعة .. وما ولدت سعادتك**

التى تحدثت عنها الا فى مخدعنا .. ومن ثم فان لك من الخسة مثل ما لى .. ومثل ما لكل البشر من رجال ونساء .. فليس من قيمة لدى الجميع الا لحب الجسد .. وما عدا ذلك ليس سوى خرافات يوصى بها العجز ويخدع بها الناس انفسهم اذا ما اكتهلوا .. ولكننى لم اكتهل بعد .. اننى فى الثامنة والعشرين ، وأريد أن أعيش .. وسوف أعيش ! »

فيقول : « ليس ثمة ما يدعونى لأن أضحى كى تعيشى »

ــ وهل لديك ما يبرر ابتياعك حريتى ؟ .. لقد ضحيت للبقاء معك ثلاث سنوات ، ومن ثم فان كفتينا متعادلتان .. لقد صارحتك وأنا أخشى أن تخنقنى أو تقتلنى !

ــ غير اننى أدركت حيلتك ياجميلتى .. لقد ظننت ان اعترافك يظهرك بمظهر البريئة ، ذات النية الخالصة .. وظننت ان هذا الاعتراف يثيرنى فتتذرعين بقسوتى وعنفى فى تبرير فرارك ولحاقك بعشيقك .. على أننى قبل أن أطلعك على ما قررت ، أريد أن أبحث الامر مع عشيقك ..

ويستدعى برنار تليفونيا .. فتقول له : « انك ترتعد .. انك تتألم .. ولكنك لست من التهور بحيث تقدم على قتل رجل ؟! »

ويأتى برنار ، فيأمرها دانييل بأن تغادر الحجرة ، ولكنها تصر على البقاء قائلة لعشيقها : « انه يبغى قتلك » .. فيطمئنها الى أنه يقوى على الدفاع عن نفسه ، فتوافق على مغادرة المكان ، ولكنها تلتفت الى زوجها قائلة : « ولكنى انذرك بأن أى أذى يمس برنار سيحيق بى أنا الاخرى .. أقسم لك ، وبرأس موريس فى هذه المرة ! »

وتخرج .. ويصمد برنار أمام دانييل ، ويواجهه بأنه يريد أن يحمل ارمانس بعيدا عن تلك الدار .. ويحاول دانييل أن يحاججه ، متذرعا بالوعيد مرة وبالحيلة واللين مرة أخرى، حتى اذا أعياه علاج الموقف، يقول : **« لقد عدلت نهائيا عن أن أقضى عليك ، ولكنى لم أسلم بعد فى ارمانس ، فهى المرأة الوحيدة فى حياتى .. انها تتهمنى بأن حبى لها حب حيوانى ، وقد يكون هذا صحيحا ، فلست أدرى على التحقيق .. ولكننى أحب ان أؤكد لك أن حبى لها قوى ، عنيف .. فلا تتوقع منى أن أرضى بالهزيمة .. لا سيما اذا جاءت هذه الهزيمة على يد شاب غر .. على يد موظف أتحت له الحياة عامين .. أنسيت ان ارمانس مهما أحبتك فانها تكن حبا أوفر وأطغى لموريس ميراى ؟ .. ولعلك لاحظت أن ابن ارمانس يحمل اسمى ؟ .. انه ابنى أمام القانون ، وبفضله ستظل أمه تحت سلطانى ما شئت ! »**

وتدخل «ارمانس» اذ ذاك مرتدية ثياب الخروج لتفاجىء الزوج المخدوع بأنها قد أعدت حقائبها للرحيل .. وانها كانت أحرص على ابنها مما تخيل ،

فأرسلته مع مربيته منذ زمن ، فهو قد بعد الآن عن «كاديلاك» بحوالى عشرة كيلو مترات !

وقبل أن تهنأ بانتصارها هذا ، تفد «ايفيت» حاملة مفاجأة جديدة .. فلقد سمعت ارمانس وهى تدلى بتعليماتها الى مربية ابنها ، فعرقلت الخطة ، واستعانت بحارس المصنع على احتجاز المربية والطفل .. وتصيح فيها ارمانس : « يا لك من جاحدة .. بلا قلب ! »

فترد ايفيت قائلة : « حسبك انك انت مثال الفضائل ! » ..

ويشكرها دانييل ثم يقول : سأظل دائما معترفا بصنيعك » ..

فتجيبه : « سأذكرك بهذا الوعد يوما ! »

وتنصرف ، فيقول برنار لارمانس : « لا تشقى نفسك بهذا الوضع .. ان موريس أمام القانون ابنه ، وفى وسعه أن يستعيده على أيدى البوليس أينما ذهبنا .. حتى لو رحلنا الى الخارج !. » .. بينما يقول دانييل : « تستطيعين أن ترحلى الآن يا ارمانس »

ولكنها ترجو عشيقها ان يغادر الحجرة .. فاذا رأت تردده أكدت له أنها لن تلبث أن تلحق به ومعها الطفل ..

وينصرف برنار ، فتخلع ارمانس قبعتها ، وتستجمع قواها للصراع .. الصراع ضد زوجها .. وتبادره قائلة : « هيا ، واملِ شروطك ! »

فيقول : « انها سهلة للغاية .. اذا شئت أن تعيشى مع موريس وان تشاهديه وهو ينمو ، وأن تهيئى له الفرصة كى يحبك .. وجب عليك أن تبقى هنا .. واذا كنت قلقة بشأن موريس ، فاننى اطمئنك الى أننى مهما كان قرارك ، لن أدخر وسعا فى أن أجعله سعيدا دائما ، موفور الصحة ، وأن أهيىء له أطيب نشأة .. لقد حولتنى خلال الساعتين الاخيرتين الى وحش قاس ، ولكننى لم أهبط بعد الى الدرك الاسفل .. لا سيما واننى أحب هذا الولد الصغير .. كثيرا »

ـ ومع ذلك فلست تتردد فى أن تفصله عن أمه ؟

ـ معذرة .. اننى لا أفصل موريس عنك ، ولكن .. لعلك أنت التى تفصلين نفسك عنه لتلحقى بعشيقك ! .. واذا كنت أقسو عليك فان لى عذرى .. اننى لا أصارحك بجديد اذا أكدت لك أننى أحبك ، واننى فى حاجة اليك ..

ـ لدى نفس العذر تماما .. فأنا أحب برنار ، وفى حاجة اليه !

ـ اذن فانتهزى الفرصة واذهبى اليه ..

ـ لن أذهب بدون موريس .. اننى لا أستحق أية رحمة ، ولكن موريس منى وأنا منه ، وليس لك حق فى أن تسلبنى اياه .. رده لى فى مقابل

السنوات الثلاث التى أسعدتك خلالها .. أتوسل اليك .. دع لى موريس .. انه نصف حياتى .. لا قبل لى بالحياة بدونه ، ولا هو يحيا بدونى ..

وتنهار حين تجده قد أصم أذنيه ، فترضى بالبقاء ، على أن يعدها بأن ينزل عند رغبتها ، فلا يكون منها بمنزلة الزوج ، ولا يطمع فى أن تكون زوجة له .. واذ يرفض ، تتحول فى يأس الى الباب .. ثم تتردد ، فيبعث ترددها الأمل فى نفسه ويسألها :

ــ ألا تودين أن تقبلى موريس .. سأدعوه لك ..

فتقول فى أسى وقنوط : « لا .. لا .. لا فائدة .. وداعا يا دانييل ! » .. وتخرج !

الفصل الثالث

◆ **وترفع** الستار عن نفس المنظر السابق ، وقد انقضى عام .. فنرى دانييل يتحدث الى محاميه تليفونيا عن اجراءات الطلاق ، فيقول له : « ان الطلاق كالرداء ، ما أن يشتهيه المرء حتى يسعى الى الحصول عليه بأسرع ما يستطيع » .. ويقول له ان ارمانس وبرنار يعيشان فى « آميان » حيث يعمل الأخير ، وحيث يبشر عمله بمستقبل باهـــر له .. وما أن يضع « السماعة » حتى يتحول الى ايفيت قائلا :

ــ انه يقول ان طلاقى سيتم خلال شهر على الاكثر .. وان فى وسعى أن أتزوج منك بعد ثلاثة أسابيع من صدور الحكم .. لقد حزمت رأيى .. ثقى أننى أستطيب أن أخلع عليك اسمى . لأننى أشـــعر بأنك ســوف تصونينه ..

ويطبع على فمها قبلة يبدو أنها نوع من التلطف أكثر منها وجدا ..

ونفهم من حديثهما ان «ايفيت» كلفة بموريس الصغير ، تحبه حبا جما .. ونسمع دانييل يصارحها قائلا : **« أحب أن أعترف لك بأننى اذا كنت قد عشقتك فانما ذلك لأننى كنت اشــتهيك وأحبك أولا ، ثم ، وأيضا ، لأن الحنان الصادق الذى تولينه الطفل قد أثر فى نفسى » .. ان الغرباء الذين يزوروننا ولا يعرفون ماضى حياتى يظنونك زوجتى ، لا لما ابديه نحوك أو تبدينه نحوى ، وانما لأنهم يرون فيك ما يوحى لهم بأنك أم الصغير .. ولهذا أيضا سأتزوجك بأسرع ما أستطيع »**

وترجوه ايفيت أن يكون زواجهما دون احتفال ، حتى لا تتأثر ارمانس اذا ما بلغتها الانباء ، فيقول لها ان ليس ثمة ما يدعوهما الى الحرص على شعورها ، لأنها لم تشغل بأحد ممن فى « كاديلاك » مذ بارحتها ، ولأنها تجد فى حياتها الجديدة .. « كلابا كثيرة » !

وتقطع عليهما الحديث « دلفين » مربية «موريس» ، تعلن مقدم « برنار » ، ورغبته فى أن يرى « دانييل » !

وما أن يدخل برنار ، حتى يبادره دانييل على الرغم منه متسائلا : « ماذا جرى ؟ .. هل ارمانس مريضة ؟ .. هل ارمانس فى حاجة الى ؟ .. قل لى .. قل ولا تتلكأ .. »

ويدهش برنار ويقول : « بل اننى جئت اسألك عنها .. لقد غادرت اميان مساء الأمس ، دون أن تنبئنى ، ولست أدرى أين ذهبت .. فداخلنى الأمل فى أننى قد أجدها هنا »

وينقلب دانييل الى شامت ، ساخر ، فيقول : « لقد خاب أملك ياصديقى العزيز .. اننا لم نر ارمانس .. فتش البيت ان شئت .. ما الذى دعاك الى أن تفترض وجود عشيقتك عند زوجها ؟ »

فتقول ايفيت : « انما ظن برنار أنها جاءت لتسترد موريس .. فلا بد انها عرفت بأننا سنتزوج .. فهل تنوى اذا جاءت أن تعطيها موريس ؟ »

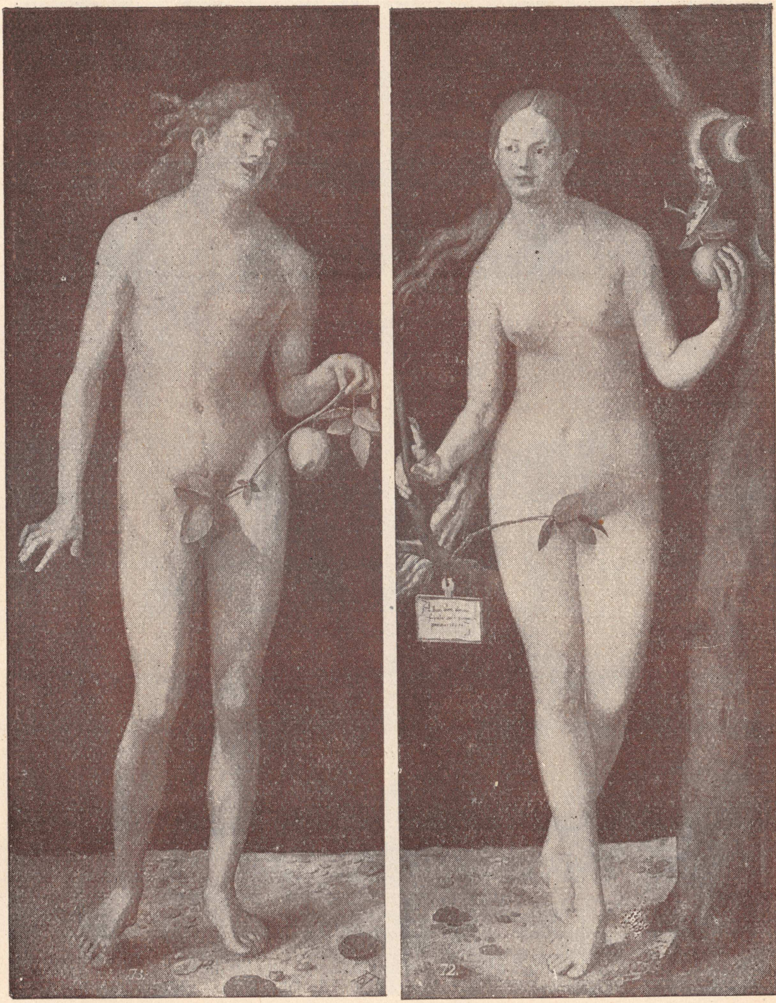
ويجيب دانييل فى قسوة بأنه لن يرده اليها ، ثم يسحب ايفيت جانبا ويهمس فى أذنيها شيئا ما ، تخرج على أثره .. بينما يتحول دانييل الى برنار، فيقول له هذا : « اتراك تعتزم أن تعذب ارمانس ؟ » .. فيجيبه فى مكر خبيث : « لا بد ان تكون فى قبضتى حتى أتيح لها هذه النعمة ، ولكننى أكرر انها ليست هنا .. ولكن كيف تبرر عدم وصول عشيقتك واستباقك اياها ؟ »

فيعلل برنار ذلك بأنها قادمة بالقطار فى حين انه وفد فى سيارته بأقصى سرعة فى وسعه .. فيسخر دانييل منه ، ويقول ان الرحلة بالسكة الحديدية لا تستغرق كل هذا الزمن ، مهما تأخر القطار ! .. ثم يستطرد : **« أخشى أن تكون قد اطلقت خيالك بأسرع مما اطلقت محرك سيارتك .. وان تكون موشكا على أن تعيش فى نفس التجربة التى مررت بها أنا فى العام الماضى .. أجل ، اذا لم يكن المخبر السرى الخاص قد كذب على ، فان ثمة شاب فاتن يدعى هنرى ريفيج قد اعتاد التردد على منزلك فى الفترة الأخيرة ! »**

ويدفع اليه بملف يخرجه من درج مكتبه وقد ضمنه التقارير التى وافاه بها المخبر الذى استأجره ليراقب العشيقين تدعيما لموقفه فى قضية الطلاق .. ويقرأ الشاب الاوراق ثم يلقيها من يده قائلا : « يا لك من غبى .. كيف أدنس يدى بتقارير مخبرك ؟ .. لقد غادرت ارمانس مسكنى دون أن تقول لى أو تكتب لى مايبرر ذلك ، ولكننى واثق كل الثقة من أننا لن نلبث



حواء تقطف التفاحة .. وآدم يحذو حذوها !
من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »



آدم وحواء ، كما تخيلهما رسـام آخر ..

من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »

أن نراها مقبلة .. لقد كانت تفكر فى موريس طيلة الوقت ، وأوقن أنها كانت تعيش على أمل أن ترد لها ابنها يوما » ..

وفى اللحظة ذاتها تلج ايفيت الحجرة وهى تقود ارمانس .. وتتردد هذه ، ثم تتقدم الى دانييل ضارعة : « أتوسل اليك يا دانييل أن تكون كريما .. أتوسل اليك أن تسمح لى بأن أرى موريس .. بأن آخذه .. »

فيجيبها فى صلابة وجفاء بأنه لن يسمح لها بأى الرغبتين .. ويضيف : « وسأمنعك باسم الانسانية ، فانك لو رأيتـــه لشق عليك فراقه عشرة أضعاف ما تعانين الآن .. يا ارمانس المسكينة .. ان موريس فى غاية السعادة وليست به حاجة اليك .. لقد نسيك بدرجة مدهشة ! »

فتصيح فى انفعال : « انك تكذب .. ان موريس لا ينسانى ! »

ـ أنت تعرفين جيدا اننى لا أكذب ، ولهذا تتألمين .. ولهذا أيضـا اتأمل عذابك دون ما ندم .. لقد اتحت لى بنفسك اليوم الذى انعم فيـه بالثأر .. والذى أشعر فيه بأنك لم تعودى تحركين جارحة فى كيانى !

ـ اننى أرى انك وايفيت قد غدوتما عشيقين ..

ـ وهل سافرت هذه المسافة لكى تؤنبينا ؟

ـ بل لأقول لك انه لم تعد بك حاجة لكى توقع بى هـــذا الانتقـام الفظيع .. اننى لن أنصرف .. ادع عمالك لكى يلقـوا بى فى الطريق ان شئت .. اننى أريد ابنى .. اريد ابنى !

ويتركها ويخرج من حيث خرجت ايفيت .. فينحى عشـــيقها برنار على نفسه باللائمة ، فمن أجله تركت ابنها ، ومن أجله تتعـذب كل هذا العذاب .. ولكنها تقول : « لا تثريب عليك.. ولكن ما كان ينبغى لى أن آتى الى هنا .. اننى احبك كل الحب يا برنار .. احبك ، ولكنـك تعلم اننى أحب موريس فوق كل شىء .. »

ويحاول ان يحملها على أن تتناسى موريس ما دام دانييل لن ينثنى عن موقفه .. ولكنها تقول له انها لا تقوى على العيش بدون ابنها .. ثم تتحول فتصارحه بأن السعادة التى أتاحها لها لم تعد تكفيها .. فلما يستوضحها تقول : « **ان حبك ساذج وان كان كبيرا .. لقد كنت لا أؤمن دائما بغـير حب البدن .. آمنت دائما بأننى كلبة .. ولكننى تبينت الآن ان هذا بعيد عن الحقيقة ، وان الحياة خلقت لتكون أحسن من هذا .. انها تحول بين بعضنا وبين أن يكونوا كلابا كلما اشتهوا ذلك .. من أجل ابنى لم أعـد أقوى على أن أكون كلبة !.. اصبحت أشعر فى احضانك بانك غريب عنى .. أصبحت أخضع لحب أقوى من حبك .. حبى للطفل الصغير .. اننى أتكلم على الرغم منى .. صدقنى يا برنار .. لست مسئولة عما يجرى ، فلست أفقه شيئا مما يجرى .. لم يعد فى طوقى ، ولا طوقك ، ولا طوق**

أى شخص آخر أن يقسرنى على فراق ابنى ! »

— وماذا تريدين الآن أن أفعل ؟

— أن تنصرف .. ان تنفض يديك منى نهائيا ..

— ولكن هبى ان دانييل أصر على أن لا ترى ابنك .. ؟

— لن تعود بى اذ ذاك حاجة لمخلوق .. فسوف .. أنتحر !

ويحاول أن يثنيها عن هذا الاتجاه .. حتى اذا استبد به اليأس ، تركها وانصرف .. فتتحول الى الباب وتنادى دانييل ، ولكن «دلفين» تخف لتخبرها بأن مخدومها قد صعد الى الطابق الثانى مع « ايفيت » ، فتنتهز ارمانس الفرصة لتشكر المربية على الخطابات التى كانت توافيها فيها بأنباء ابنها .. وتدرك منها ان موريس فى المصنع، فتهم بأن تذهب اليه، واذ ذاك تذكرها المربية بأن رجال المصنع لن يحجموا عن الحيلولة بينها وبين أن تراه .. فتتحول تسألها أن تحدثها عن الصغير .. عن صحته .. وعن نموه .. وتدهش اذ تعلم ان «ايفيت» تحبه الحب كله ، وتسرف فى رعايته، وانه بدوره يحبها حبا جما .. حتى اذا عرفت أرمانس ان الطفل ينادى ايفيت : « أماه » ، تثور وتصيح : « السارقة ! » .. فتقول دلفين : « وماذا كنت تبغين .. لكم بكى موريس يوم قيل له انها ليست أمه ، وانه لا يليق به أن يناديها بأمه ! »

وتابى ارمانس أن تصدق .. ثم تتهم المربية بانها ساهمت فى حمل الطفل على نسيانها .. وتسمع «دلفين» وقع اقدام دانييل وايفيت ، فتبادر الى الفرار من الحجرة .. ويدخل الاثنان .. ويدهش دانييل اذ يرى ارمانس لا تزال واقفة ، فيدعوها الى الانصراف .. الى اللحاق بعشيقها !.. واذ ذاك تجيبه فى هدوء وتحفظ : « لا حاجة بك الى طردى .. سأنصرف فى هدوء بعد لحظات .. ولكنى أرجو يا دانييل أن تستمع لى ، على انفراد .. »

وتقول ايفيت قبل أن تنصرف ، فى اخلاص صادق : « لقد قضيت عشرين دقيقة أحاول أن أقنع دانييل بأن يسمح لك بأن تأخذى ابنك .. وها أنذا أرجوك يا دانييل مرة اخرى أمام ارمانس بأن تترفق بها .. من أجل غرامنا ! .. والا .. ! »

ولكن دانييل يصر على موقفه ، دون أن يجول بخاطره أن بعد « الا » التهديدية هذه أمرا خطيرا .. وتنصرف ايفيت .. واذ ذاك تتحول ارمانس، فتحاول أن تؤكد لدانييل انها فى الواقع ما جاءت لترى موريس ، وانما لتراه هو .. فيقول : « أخشى أن تقولى بعد دقيقة انك انما جئت الى كاديلاك تحت تأثير حبك الطاغى لى .. !؟ »

فترسل ضحكة غريبة وتقول : « يالك من حيوان أعمى ! .. حيوان لأنك تنسى اننى كنت زوجتك ثلاث سنوات .. »

دانييل (سادرا فى جفوته) : « أو لأننى لم أفهم انك مسكينة لم تتورعى عن تضحية سهرة جميلة لتستقلى القطار الى هنا وراء أمـــل كاذب فى أن تأسرينى من جديد ؟ .. لكم يلذ لى أن أرى حبك لموريس ينحدر بك الى الحضيض .. »

فتقول فى هدوء : « سأقول لك قولا آخر ٠٠ سأذكرك بأنك أحببتنى أعنف الحب أربع سنوات كاملة ٠ وانه ليس من العجيب بعد ذلك أن أتوق لهذا الحب وأسعى اليه .. »

ـ صدق حدسى .. لقد ظننتنى غبيا .. اننى أعرف انك تكرهيننى .. فهل جئت تحاولين أن تقومى بدور البغى من أجل ابنك ؟ انك تثيرين اشمئزازى ..

ـ انك تزداد صلابة كلما اكتهلت .. أو لعل ذاكرتك قد ضعفت .. فأنا أعرف اننى أجيد الغواية .. أجل ، جئت اغويك ـ كما قلت ـ وسأريك اننى لم اقدم على ذلك من أجل ابنى .. نعم ، بالرغم من الحقد والغيظ ـ كما قلت ـ فانك تثير رغبتى .. أريد أن اعانقك .. وأريد فى الوقت ذاته أن اعتصر عنقك .. ارأيت الى أى تطرف دفعنى حبى لموريس ؟ .. ولكن لقاءنا هذا الأخير يجعل ذكرى حبنا تطفى ، رغم ما يتهددنى من فقدان موريس ! ٠٠ أترانى فتاة ضالة ٠٠ ضائعة ٠٠ أو أنا حمقاء ، غبية !؟ ..

فيقول فى صدق : « لست أدرى .. أى شيء أنت .. وما أرى انك كنت تقولين الحق ، بل انت تحاولين أن تخدعينى »

يا لها من لعبة خطرة ، لأم ولهانة ٠٠ ان امرأة لها هذه الجراة لخليقـة بأن تدرس عن قرب ، وأن تكون متعة للبصر ..

ـ وتستحق أيضا أن يوليها المرء ظهره ، أو أن يطردها ..

ـ اذن .. أولنى ظهرك ياعزيزى ..

واذ يستنكر منها هذا النداء ، تقول : « ولكن البغايا ينادين عملاءهن به .. أترانى اثرت فيك الخوف من أن تضعف ؟ .. لا ، بل انك تشمئز من أن تمسنى بيديك .. ولكننى اشفق عليك ٠ سأخرج بنفسى .. »

وتمضى بضع خطوات نحو الباب ، فيصيح بلهجة آمرة : « قفى ! »

ـ لن أمكث الا اذا كان مكثى .. الى الدوام ! .. كنت أعرف ما بنفسى ، ولكننى الآن أعرف ما بنفسك أنت من مشاعر !

وتنهار مقاومته وهو يخطو ببطء نحوها .. ويطيل النظر اليها ، ثم يطبع على شفتيها قبلة طويلة ، عنيفة .. وتتركه يقبلها وينتشى بلذة القبلة .. ثم يحتويها بين ذراعيه .. فقد غلبته غواية البدن !

وتنبعث على الباب طرقات ، فيفلتها من ذراعيه ٠٠ وتدخل « دلفين » لتعلن دانييل بان «ايفيت» قد غادرت البيت ، مصطحبة حقيبة ، شأن من تبغي الرحيل !

ويسألها دانييل : « أولم تترك رسالة لى ؟ »

ـ بل كتبت اثنتين ، ثم مزقتهما قائلة : « لا تقولى شيئًا للسيد ، فلسوف يفهم من تلقاء نفسه » .. وكانت تبدو هادئة ، متجلدة ..

فتقول أرمانس : « لعلها كانت تسترق السمع من وراء البــاب منذ انفردت بالسيد هنا ؟! »

وتجيب دلفين بأن الامر كان كذلك فعلا .. **ولقد أدركت العانس المسكينة أن دانييل لم يكن فى الواقع قد سلا حب أرمانس ، وانه ما أحبها هى الا حب الجائع المتضور ، لأى طبق يقدم له .. ومن ثم فهو لن يسعد بها لو تزوجته ، وسيظل يحن فى قربها الى ارمانس ، مهما خدع نفسه وكذب عواطفه وكبتها .. ثم أنها كانت تحب الطفل ، فأشفقت أن تحرمه أمه .. وما كان لأمه بقاء الا اذا خضعت لدانييل .. ولقد حاولت أن تحمل دانييل على أن يرد الطفل لأرمانس ، وأنذرته قبل أن تخلى له الجو كى يتحدث الى ارمانس ويستقر معها على رأى ..**

واذن فقد نفذت انذارها .. وهجرت دانييل لتحمله على أن يبقى ارمانس الى جواره .. وجوار طفلها أولا !

ويخرج دانييل حائرا ، واذ ذاك تتحول ارمانس الى المربية تسألها فى لهفة عن موريس ، فتقول لها انه يلعب فى الحديقــة .. وتهتف ارمانس فى انفعال ، وتهرع الى النافذة تطل عليه فى شغف وهى تتمتم فى وجد وحنان : « لكم كبر ! .. ولكم أصبح جميلا ! »

وتخرج دلفين ، بينما تبقى ارمانس مسمرة عند النافذة لا تقوى على أن تبرحها ولا أن تحول عن ابنها عينيهـــا .. وهى تتمتم : « يا غرامى .. يا غرامى الأوحد ! »

كان حب الصغير هو الذى أذل عواطفها المتمردة .. وهو الذى ألان قلب ايفيت الجامد فأخلت لها الميدان ، مضحية بأمنيتها الوحيدة فى الحياة : ان تتزوج ، وأن تكون محبوبة !

وتسدل الستار على مسرحية الاغلال .. أغلال الحب الخالص للصغير ، الاغلال التى كبلت قلبى امرأتين ـ ارمانس وايفيت ـ فجذبت الاولى من وهدة التردى ، وأثقلت الثانية فأغرقتها فى لجة اليأس والأسى ..

على انه الى جانب تلك الاغلال من الحب الخالص ، كانت ثمة أغـــلال اخرى .. أغلال الحب الحيوانى بين دانييل وارمانس ..

وكلا النوعين من الاغلال مكبل ومقيد ..

وكلا النوعين من الحب قوى وقاهر !

ترقب قريبا العدد الجديد من « مطبوعات كتابى »
بالقصة الانسانية الرفيعة :

سومرست موم

الخاطئة



إقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى اعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة للفيلسوف الانجليزى المعاصر ((جود))
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك
- مراهق : البرتو مورافيا
- آلهة ومقابر وعلماء : سيرام
- الالمان ، شعبا وعباقرة : اميل لودفيج
- مستقبل زوجك فى يدك : مسز ديل كارنيجى

واليوم تقرأ الجزء الثانى من الكتاب الذى الهم الله السياسى والمؤرخ الانجليزى المنصف ((ويلفريد بلنت)) أن يكتبه ليفضح مخازى السياسة الاستعمارية البريطانية ومبلغ جنايتها على مصر والشرق

وفى الاعداد القادمة ازمع ان اقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الكتب الممتعة ..



SECRET
HISTORY OF
THE ENGLISH
OCCUPATION
OF EGYPT
BY
WILFRED S
BLUNT
ويلفريد بلنت
التاريخ السّرى
للاحتلال الانجليزى
لمصر

أمس .. واليوم !

◆ ما أشبه الليلة بالبارحة ..

وما أشبه العدوان الفرنسى فى تونس وشمال افريقيا اليوم ، بذلك الغزو الذى تضمنه هذا الجزء من كتاب «بلنت» الممتع الذى قدمت لك الجزء الاول منه فى كتابى السابق ..

وما أشبه المذكرة المشتركة - التى تعتزم بريطانيا وفرنسا وأمريكا توجيهها اليوم الى الدول العربية بشأن اسرائيل - بتلك المذكرة المشتركة التى وجهتها فرنسا وانجلترا منذ ٧٦ سنة الى مصر .. قد تختلف فى أن أعوان الافك اصبحوا ثلاثة - بعد أن كانوا اثنين .. وقد تختلف فى أن مذكرة الأمس كانت موجهة الى وطنيى مصر ، فى حين ان مذكرة اليوم موجهة الى وطنيى البلاد العربية جمعاء .. ولكن الروح واحدة .. والهدف واحد .. واعتداد الغرب بالقوة والاستعمار واحد ..

٧٦ سنة انقضت .. والأساليب واحدة !

الفصل السادس

بداية الثورة فى مصر .. والعدوان الفرنسى على تونس

◆ قضيت صيف سنة ١٨٨١ بأكمله - تقريبا - فى تسجيل ثمار تجاربى فى الشتاء السابق ، فى كتاب « مستقبل الاسلام » .. وقد وضع الكتاب فى عجلة ، وفى ظروف لم تكن مواتية للحكم الصحيح على الاحداث التى كانت تتعاقب بسرعة كان التنبؤ معها بمصير الاسلام مستحيلا .. على اننى برغم هذه العيوب أعتبره كتابا قيما - من الوجهة التاريخية على الاقل - اذ شرح آمال المسلمين وهواجسهم .. وقد انحزت فيه جهارا لقضية الاسلام والعالم الاسلامى ، فدعوت الى تشجيعها بدلا من قمعها ، ايمانا منى بأن فى ذلك خير البشرية جمعاء .. وعرضت آراء المتحررين ، كما شرحها لى الشيخ محمد عبده ، وأهبت ببنى وطنى أن يعطفوا على آمال هؤلاء

المتحررين فى كفاحهم ضد الرجعيين الذين كانوا فى تخبطهم فى الكفاح اليائس ضد أعداء الاسلام العديدين لا يجدون سلاحا سوى التطرف والسيف

ولما كان مستقبل الاسلام يهم انجلترا بوجه خاص ـ لعلاقتها بالهند ـ فقد رحت أدعو الى أن تكون لها سياسة عملية تقوم على الود والصداقة ، وتتعاون مع خير العناصر المفكرة فى الشرق ، بدلا من أن تقتصر على السعى وراء الكسب المادى المترتب على تداعى الاسلام ..

وأثارت فصول الكتاب وهى تنشر تباعا فى مجلة « فورتنايتلى ريفيو » اهتماما كبيرا ، لا سيما بين مسلمى الهند ، وترجم بعضها فى مصر .. وكانت ثمة أحداث جليلة تجرى فى العالم الاسلامى وقتئذ ، **ففى أوائل مايو ، ودون ما انذار ـ بل استنادا الى الاتفاق السرى الذى عقد في برلين مع وزارة خارجيتنا قبل ثلاث سنوات ـ غزت الحكومة الفرنسية تونس بحجة حماية « الباى » من خطر وهمى زعمت انه يتهدده من رعاياه ، فاحتلت الجزء الغربى من الولاية ، وأعلنت الحماية الفرنسية !.. ولم يكن ثمة ما يبرر هذا التصرف العدوانى على جارة مسالمة كل المسالمة .. وكان « الباى » نفسه شخصا معتدلا ، محترما ، لم يسىء قط الى مصالح شعبه ، فكانت سيطرة الجنرال « بريار » عليه ، واستغلال سلطاته ، عملا غير قانونى لا مثيل له فى تاريخ العدوان على الامم الصغيرة في التاريخ الحديث ، اذا استثنينا غزو بونابرت لمصر فى سنة ١٧٩٩ ..**

وقد أثار هذا العدوان استنكارا فى انجلترا ، حيث لم تكن خديعة برلين قد افتضحت للشعب .. أما فى العالم الاسلامى ، فقد أذكى نيران الغضب التى راحت تزداد اتقادا كلما تفتقت الحقيقة رويدا .. وكان أهل تونس الغربية قد أخذوا على غرة

فلم يقاوموا ، وأجبر « الباى » على توقيع المعاهدة التى قدمها اليه « بريار » على ذؤابة السيف ، والتى قضت بالنزول عن استقلال الولاية قبل أن تتجلى حقيقة ما حدث ! ٠٠ على أن قبائل المناطق الشرقية من الولاية هبت تمتشق سلاحها، ولم ينتصف الصيف حتى كانت موجة الغضب ضد الدول المسيحية تجتاح الصحراء ممتدة نحو الشرق ، حتى بدأت ـ كما سنرى فيما بعد ـ تؤثر على مصر تأثيرا يعتبر فى الواقـــع السبب فى نهوض دعاة الاصــــلاح والاحرار والجيش مطالبين بالحكم الذاتى ٠٠

ومما يفضح تآمر حكومتنا فى هذه الفضيحة المخزية ، ان اللورد جرانفيل اكتفى بتأكيد قدمته له الحكومة الفرنسية بأن احتلال الولاية لم يكن سوى اجراء لاقرار النظام ـ وان لم يكن ثمة ما هدد النظام ! ـ وانه لن يستمر يوما واحدا أكثر مما تستدعيه الضرورة للمحافظة على سلامة حكومة « الباى » ٠٠ وهو نهج فى الزيف انتهجه اللورد جرانفيل فى العام التالى فى مصر ٠٠ ومما يجدر ملاحظته أيضـا ان لورد سالسبيرى ـ زعيم المعارضة ـ لزم الصمت التام في البرلمان ازاء مسألة تونس ، وان كان أنصاره قد أثاروا ضجة اذ لم يكونوا عــلى دراية بالسر الكامن وراء المسألة ٠٠ كذلك لاذ بسمارك بالصمت فى برلين ، ولم تحرك دولة من دول مؤتمر برلين ساكنا ، وان كان الشعب الايطالى قد اهتز للعدوان الفرنسى ٠٠ وكان سلطان تركيا هو الوحيد الذى أعلن الاحتجــاج ، اذ كانت تونس تعتبر ايالة عثمانية ٠٠ أما حكومات أوربا ، فسرعان ما تقبلت « الامر الواقع » !

جمال الدين الافغانى ٠٠ والنظام الجمهورى

◆ **ولا بد** لنا هنا من الالمـــام بتاريخ الحركة التي بدأت تعرف فى صيف سنة ١٨٨١ بالحركة الوطنية المصرية ٠٠ اذ يرجع أصلها ـ من الوجهة العملية ـ الى الجهود المستيئسة

التى بذلها الخديو اسماعيل حين اختلف مع « ولسن » فى سبيل الاحتفاظ بسلطانه ضد الرقابة الدولية التى أدى اليها طيشه وديونه .. فقد سعى الى كسب ود رعاياه، وأعلن فى ربيع سنة ١٨٧٩ عن رغبته فى تشكيل مجلس للاعيان .. ومع ان أحدا من المصريين لم يصدق انه كان مخلصا ، الا أن فكرة نظام الحكم الدستورى بدأت من ذاك الحين تتردد وتنتشر فى القاهرة ، كعلاج للمساوىء التى كان الشعب يعانيها .. **لا سيما وان الشيخ جمال الدين الافغانى وتلاميذه كانوا ينادون بأن استفحال السلطة الفردية فى أيدى الامراء المسلمين - فى العصر الحديث - أمر مخالف لروح الاسلام التى كانت فى واقعها جمهورية ..**

ولقد كان دعاة الاصلاح من الازهريين يتهمون اسماعيل بخرق القانون وبالطغيان السياسى ، وكانوا فى ربيع سنة ١٨٩٧ يبحثون سرا - فيما بينهم - عن وسيلة للتخلص منه ، فكان شعوره بالخطر المزدوج - من الشعب ومن أوربا - سر ما اعتزمه من اتخاذ المظهر الدستورى .. على أن الازهر - وان لم يطمئن الى اسماعيل - لم يملك سوى تحبيذ الفكرة .. وكان الى جانب الازهر فى ذلك الحين عدد غير قليل من أنصار الدستور فى القاهرة ، فى مقدمتهم شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، ومحمود بك سامى البارودى .. ليس هذا فحسب ، بل ان الخليفة المرتقب للخديو - محمد توفيق - كان قد انضوى تحت نفوذ جمال الدين وأصبح بفضله على اتصال وثيق بدعاة الاصلاح ، وقد بذل لهم الوعود بأن يلتزم جادة النظام الدستورى اذا ولى الحكم ..

الخديوى توفيق « يبتلع » وعوده !

لذلك رحب جمال الدين ودعاة الاصلاح بارتقاء توفيق الحكم - بعد خلع الخديو - ومع انهم أسفوا لان الخلع لم يتم بنفوذ ورغبة المصريين أنفسهم ، الا أنهم تطلعوا الى العهد الجديد فى

ثقة واطمئنان ٠٠ بيد أنه لم يكد ينقضى شهر على تبوؤ الخديو الجديد ، حتى كان قد نسى وعوده ، وتنكر لاصدقائه ٠٠ اذ كانت شخصية توفيق من أضعف الشخصيات ، فهو لانتمائه الى أم من جوارى القصر ، لم يلق من اسماعيل - منذ طفولته - أى اهتمام ، كما ان أمه نشأته على الخوف من الخديو المسف فى السفالة ، وعلى الغش والخداع والملق كضمانات تحمى ابنها ٠٠ ولقد قضى توفيق من حياته فى الحريم أكثر مما قضى بين الرجال ، فلم يقو على التخلص من نوع من الحياء النسوى كان يحمله على التسليم برأيه أمام أية ارادة قوية ، ثم يدفعه بعد ذلك الى السعى لغايته بوسائل غيرمباشرة !٠٠ كما أنه اكتسب من أخلاق النساء الغيرة ، وحب الثأر الرخيص !

وكانت شخصيته كحاكم سلبية للغـــاية ٠٠ وكان أول ما يخالجه هو اخفاء الحقيقة ، والقاء اللوم على سواه ، فى حالة أى فشل يحدث نتيجة لاخطائه ! ولم يكن يكشف صراحة عن استيائه ومعارضته ، وانما كان يعمد الى الغش والى الوقيعة وايغار الصدور ليقر سلطانه أو ينتقم لنفسه ٠٠ ولقد قيـل عنه انه لم يكن قط مخلصا ، وان ما من أحد وثق فيــه الا خانه !

سياسة « ذات وجهين » !

لذلك لم يكد توفيق يجد نفسه بين قوتين متعـــارضتين - أصدقائه من دعاة الاصلاح الملحين فى طلب الدســـتور ، ومستشاريه الذين كانوا يحرمون عليــه النزول عن شىء من سلطاته التى كانوا يمارسونها باسمه - حتى عمد فى البداية الى الموافقة على اقتراح وزيره « شريف » باصدار مرسوم بمنح البلاد الدستور ٠٠ ثم رفض - بايعاز من مستشاريه - توقيع المرسوم ٠٠ وأدى هذا الى اســتقالة شريف ، فعين فى مكانه رياض باشا الذى رشحه المستشارون كيما ينفذ آراءهم فى الاصلاح المالى ، وأطلقوا يده - فى مقابل ذلك - فى تسيير دفة

الشئون الداخلية باسم الخديو ، وفقا لما يرى ، دون ما رقابة من مجلس نيابى أو جمعية تشريعية ٠٠ وقد كان ما أبداه الخديو من ضعف فى هذه المسائل سببا لكل ما تعرض له بعد ذلك من متاعب ٠٠ اذ لم يلبث أن وجد نفسه – بتصرفه هذا – مجردا من كل سلطان ٠٠ بل تبين انه أصبح مجرد ألعوبة فى أيدى المستشارين الاوربيين والوزير الجديد !

ولقد كان اسم رياض – حين زرت مصر فى خريف سنة ١٨٨١ – هدفا للعنات الوطنيين ٠٠ وفى رأيى ان فى هذا بعض الاجحاف ، فبرغم أن « رياض » كان من رجال العهد القديم ، لا يؤمن بأى شكل من أشكال الحكم اللهم الا نظام السلطة المطلقة ٠٠ وكان فى الادارة ينفذ الاساليب التى سادت عهد اسماعيل – وهى الجاسوسية ، وحكم البوليس ، والاعتقالات ، والنفى – بيد انه لم يكن ظالما ولا قاسيا ، وانما كان يحدوه فى حياته العامة شعور وطنى حقيقى ٠٠ وكانت فكرته فى تبوء الحكم تحت الرقابة الانجليزية – الفرنسية ، وفى التعاون – ضد رغبة الشعب – مع المستشارين الممثلين لهذه الرقابة ، ترمى – كما أكد لى – الى علاج مصر من متاعبها المالية ، وعتقها من الدين ، وتخليصها بأسرع ما يمكن من التدخل الاجنبى ٠٠ ولكن الخلاص من الدين كان بطبيعته عملية بطيئة ، ولم يكن ثمة احتمال فى أن ينجح رياض فى تحرير مصر من الرقابة المفروضة عليها، أو فى أن يرفع مساوىء الادارة التى كانت تثقل القوم ٠٠ اذ كان عهد الرقابة الثنائية لا يكاد يهتم بغير الشئون المالية ، فظل الفلاحون تحت حكم « الكرباج » !٠٠ وكان الفساد يتفشى فى المحاكم ، وأصحاب الاراضى غارقين فى الديون وأراضيهم تتسرب منهم الى الدائنين، والطبقة الراقية التى كانت مؤلفة من أغراب ، جلهم من الاتراك والشراكسة ، تسيطر على الدولة كلها٠٠ ولم تعد فى تلك الفترة

أية بادرة تنم عن اصلاح خلقي أو ادارى .. وكان هذا أضعف ما فى عهد الرقابة الانجليزية الفرنسية ، واليه يعزى فشله فى الفوز بتأييد الشعب

ومع ذلك ، فمما لاشك فيه ان الازمة ما كانت تحدث بالسرعة التى حدثت بها لولا خيانات الخديو ومؤامراته ودسائسه ضد وزيره .. فلقد دبت فى نفسه الغيرة مما كان يتمتع به وزيره من نفوذ وسلطان منحه اياهما .. وكانت هذه الغيرة هى السبب الحقيقى لسلسلة الازمات التى ألمت بمصر فى سنة ١٨٨١

الجيش يحمل اللواء ..

◆ **وكان** تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠-٨١ كقوة سياسية فى مصر ، من أهم الامور .. ويرجع ظهور الجيش كعامل من عوامل التذمر ، الى الحملة المصرية على الحبشة ، اذ أنها هدمت مكانة الخديو .. كما أن المتاعب المالية أدت الى تخفيض مرتبات الجنود وعدم انتظام دفعها .. ولم يعد الجنود الذين قدر لهم أن يعودوا من الحملة ، يحترمون قادتهم بعد أن ظهر عدم جدارتهم .. كما قرب التذمر من القادة بين الجنود وبين ضباط الصف ، لا سيما وقد كانت المناصب الرفيعة وقفا على الشراكسة الذين لا يجيدون غير اللغة التركية ، فى حين أن مراكز الجنود وصغار الضباط كانت مخصصة لابناء الفلاحين ممن لا يتكلمون سوى العربية .. وزاد من الشعور بالفوارق ، أن تأخر المرتبات كان مقصورا على هؤلاء الاخيرين دون الشراكسة !

وكان ممن تزعموا التذمر ضد حركة التفريق الطبقى فى الجيش ، احمد بك عرابى ، الذى كان قد بلغ مرتبة « القائمقام » - وهى مرتبة لم يكن من المألوف أن يتولاها فلاح ! - مما أكسبه نفوذا وتأثيرا غير عاديين على

مواطنيه من الناطقين بالعربية ٠٠ وكان الدفاع عن حقوق الفلاح هو الميزة التى تفرد بها عرابى بين دعاة الاصلاح فى أيامه ، اذ كانت حركة الازهر حركة عامة للاصلاح الاسلامي دون تمييز بين العناصر ٠٠ أما عرابى فكانت حركته عنصرية من أصلها ، ومن ثم فهى أكثر اصطباغا بالصبغة القومية ٠٠

وكان العسكريون الفلاحون قد نالوا بعض الحظوة فى عهد سعيد ، ولكنهم حرموا منها ثانية فى عهد اسماعيل ٠٠ ووجد عرابى أن الشراكسة أخذوا يعاملونه فى ترفع ، ولم يعد يتولى سوى مهام ثانوية شبه مدنية ، مما جعله ينحاز الى صفوف المتذمرين ، ويزداد اجتهادا فى الدفاع عن حقوق طبقته !٠٠ وكان لبقا ، طلق اللسان ، يعرف كيف يفيض فى آرائه باللغة التى يفهمها مواطنوه ويقدرونها ، ومن ثم أحرز نفوذا كبيرا بين أولئك الذين أصبح على اتصال بهم ٠٠ وكان من الناحية الدينية بعيدا عن التعصب ، ينتمى الى دعاة الاجتهاد الحر ، كما كان يعتنق المبادىء الانسانية التى تدعو الى الاخاء بين الامم والعقائد ٠٠ وظل متحررا من رذائل الاوربيين ٠٠

كيف اتجه عرابى الى السياسة

ولقد عاد عرابى من حملة الحبشة وهو ساخط ـ كبقية زملائه ـ على الطريقة التى أديرت بها الحملة ، وكان هذا السخط هو العامل الاول فى تحوله الى السياسة ، وفى اتساع نطاق تذمره واتجاهه ضد الخديو ٠٠ وزاده تحمسا حادث القبض عليه مع ضابط فلاح آخر ـ هو على بك الروبى ـ بتهمة زائفة ، هى أنهما كانا على علاقة بالاعتداء الذى وجه الى نوبار ، وهى حيلة أراد اسماعيل بها أن يخفى الدور الذى قام به فى الحادث ٠٠

ولم يكد عرابى يسترد حريته ، حتى اشترك مع آخرين فى خطة لخلع اسماعيل ، ولكنها انتهت الى لا شئ ٠٠ ولو لم تتدخل أوربا لخلع الخديو بعد ذلك ، لكان من المحتمل أن يتم

الخلع اما بتدخل من الجيش ، أو باغتيال اسماعيل ـ اذ كان هذا التدبير موضع دراسة جدية فى الاوساط الازهرية !

ومن الخطأ أن يظن أن عرابى كان يحمل أية ضغينة للعهد الجديد ، فما كان على خلاف مع توفيق ولا مع المستشارين الاوربيين ٠٠ بل انه ـ على العكس ـ كان معهما على وئام ٠٠ ولو ان شيئا من الحكمة استخدم فى معالجة الشكاوى الحقيقية للجند ، ولو ان وزارة الحربية تولاها وزير أقل عداء للضباط الفلاحين ، لكان من المستبعد جدا أن يلجأ عرابى أو أى من زملائه الى اتخاذ مسلك عدائى ضد الحكومة ٠٠ ولكنهم اضطروا الى الدفاع عن أنفسهم ، وكانت غيرة الخديو من رياض هى السبب الاول فى ذلك :

ذلك انه عند تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة رياض ، عين أحد الباشوات الاتراك من أبناء المدرسة القديمة ـ وهو عثمان رفقى ـ وزيرا للحربية ٠ وكان رفقى يمثل ، الى أبعد حد ، تلك الطبقة التى ظلت عدة قرون تنظر الى مصر وكأنها ضيعة لها ، والى الفلاحين وكأنهم عبيد وخدم ٠٠ لذلك كان مسلكه نحو الضباط الفلاحين عدائيا منذ البداية ، وكان يؤثر الشراكسة على الفلاحين على طول الخط ٠٠ وفى الوقت ذاته غضب الجنود لاستخدامهم في أغراض خارج نطاق واجبهم العسكرى ، ولتعريضهم للون من السخرة ـ اذ كانوا يحفرون الترع لرى أراضى الخديو !

بدء الصدام بين عرابى ووزير الحربية !

وكان أول اصطدام لعرابى بالوزير ، أن رفض أن يعمل جنود لوائه فى حفر ترعة التوفيقية ٠٠ وكانت هناك مشكلة بشأن المرتبات المتأخرة ، دعت الضباط الفلاحين ـ ومنهم عرابى ـ الى أن يرسلوا فى ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ شكوى زادت من الاحقاد ، فمع انها لم تكن ذات طابع سياسى الا أنها أدت ـ خلال تدخل المستشارين الانجليزى والفرنسى ـ الى تحقيق

رسمى ، اتخذ فيه المستشار الفرنسى جانب الضباط ٠٠ عن حق !

وكان عرابى منذ عودته الى القاهرة ـ كقائد للآلاى الرابع ـ قد جدد صلاته بدعاة الاصلاح فى الازهر ، وبفريق المناصرين للدستور ، وباثنين من الوزراء ، احتفظا بمركزيهما فى وزارة رياض ، رغم انهما كانا من الدستوريين ومن أعضاء وزارة شريف ـ وهما على باشا مبارك ، ومحمود بك سامى البارودى ـ وكانت هذه الظروف مجتمعة هى التى أوحت الى الخديو بعناصر التآمر ضد رياض ، فاتصل بالضباط الفلاحين عن طريق ياوره على بك فهمى ، الذى كان صديقا لعرابى وزملائه فلم يجد عناء فى اقناعهم بأن الخديو كان فى جانبهم ، وانه أرسله لينذرهم بأن عثمان رفقى ورياض يريدان بهم سوءا ، وسيظلون فى خطر ما لم يسعوا الى خلعهما !٠٠ وكان عرابى أكثر زملائه قبولا للخدعة ، اذ كان رياض قد ألقى القبض على كثير من الدستوريين ، بينهم عدد من أصدقائه ٠٠ لذلك اقترح على فهمى أن يقدم الضباط التماسا باقالة عثمان رفقى ، ووعد بأن يقبل الخديو هذا الالتماس ٠٠

رواية عرابى عن بداية الازمة

◆ **وتطورت** المسألة الى أزمة فى أواخر سنة ١٨٨٠ ، اذ عرف عرابى أثناء وجوده مع بعض الضباط فى دار نجم الدين باشا ـ ذات مساء ـ أن الوزارة قد قررت حرمانه وعبد العال بك حلمى ـ قائد اللواء الاسود ـ من قيادتيهما وفصلهما من الخدمة !٠٠ وبلغه فى تلك الاثناء أن على فهمى كان فى انتظاره بمنزله ، فبادر بالعودة الى هناك حيث وجد فهمى وعبد العال الذى أكد له ما سمع ، فقرروا بعد التشاور أن يذهبوا ثلاثتهم الى رئيس النظار ويصروا على وضع نهاية للاضطهاد باقالة عثمان رفقى ٠٠ وروى لى عرابى ما حدث حين ذهبوا فى اليوم التالى فقال :

« قادونا الى حجرة خارج مكتب الوزير ، انتظرنا فيها ريثما قرأ الوزير ملتمسنا فى الحجرة الداخلية ، وما لبث أن خرج قائلا : « ان التماسكم مهلك ٠٠ ماذا تريدون ؟٠٠ تعديل الوزارة ؟٠٠ ومن تريدون أن تضعوا فى مكانه ؟ » ٠٠ فقلت له : « يا سعادة الباشا ٠٠ هل مصر امرأة أنجبت ثمانية أولاد ثم أصابها العقم ؟ » ٠٠ وكنت أعنيه ووزراءه السبعة ، فاذا بهذا يغضبه ٠٠ ولكنه وعد فى النهاية بأن ينظر فى مسألتنا »

وقام الخديو بخدعة غادرة فى الاجتماع الذى عقده فى مجلس الوزراء بعد ذلك مباشرة ، فقد أراد أن يزج بالوزير والضباط فى معركة مكشوفة ، وهو يدرك تأييد المستشار الفرنسى للضباط ، فاقترح القاء القبض عليهم وتقديمهم الى محكمة عسكرية ٠٠ ولدهشته رفض عثمان رفقى هذا لانه يقتضى محاكمته هو الآخر ، كما أن رياض عارض فى اثارة فضيحة ، وانحاز لجانب الضباط ، ولكنه أفهم فى السر بأن معارضته ستؤخذ على أنها عدم ولاء للخديو فسحبها ، وانتهى الامر الى أن يوكل لعثمان رفقى أمر الضباط بالاساليب التى كانت شائعة فى عهد اسماعيل !

مؤامرة لاغراق عرابى ورفاقه فى النيل !

وان هى الا أيام ، حتى دعى الضباط الثلاثة الذين وقعوا الشكوى الى قصر النيل ، فاذا بهم يجدون جمعا من رؤسائهم الشراكسة ، مع عثمان رفقى ٠٠ وفى الحال اعتقلوا ، وجردوا من أسلحتهم ، وأهينوا ٠٠ وقد ظل عرابى يؤكد بأن الخطة كانت مرسومة لحملهم الى باخرة كانت ترسو عند الشاطىء ، ونقلهم فى النيل الى حيث يغرقون ٠٠ **وكان هم عثمان رفقى أن يتفادى أية محاكمة تهدف الى كشف تعسفه وطغيانه ٠٠ على أن جنود لواء على فهمى لم يكادوا يعرفون بما جرى ، حتى ساروا بقيادة محمد عبيد ــ وكان رجلا وفيا ، استشهد فيما**

بعد فى التل الكبير - الى أبواب القصر وخلصوا الضباط الثلاثة ، واضطروا الشراكسة الى التراجع ، وأجبروا عثمان رفقى على فرار مشين !

وسار الضباط الثلاثة فى موكب عسكرى الى ثكناتهم ، حيث كتبوا رسالة أكدوا فيها أن ما حدث لم يكن سوى دفاع عن النفس لم يضر أحدا ، ووجهوها الى المسيو « دورينج » - المستشار الفرنسى - راجين منه التوسط لدى الخديو فى تعيين وزير آخر فى مكان عثمان رفقى .. ومما لا شك فيه ان الخديو لم يقبل فحسب ، بل حاول مع مسيو « دورينج » اقصاء رياض بحجة انه المسئول الاول عما حدث ، ولكن رياض كان يستمتع بمؤازرة قوية من المراقبين الماليين ومن القنصل العام الالمانى ، ومن « ماليت » - على ما أعتقد .. ولم تكد المسألة ترفع الى لندن وباريس ، حتى نبذت رغبة الخديو ، وما لبثت الحكومة الفرنسية أن استدعت « دورينج » استدعاء غير مشرف ..

البطل « الفلاح » !

◆ **وكان** تاريخ الاضطراب العسكرى الاول السالف تفصيله هو أول فبراير سنة ١٨٨١ .. ولا أذكر أن اسم عرابى كان يتردد فى القاهرة قبل حدوثه ، **ولكن الدور السافر الذى لعبه فى ذلك اليوم أكسبه شهرة عاجلة ، فاذا اسمه يصبح على كل لسان ، كبطل جرؤ على تحدى الحكومة الفرنسية وتسبب فى تعديل وزارى !.. وان هى الا أسابيع قلائل ، حتى أصبح ذا مكانة عزيزة فى الدولة ، اذ أن ظهوره كبطل يجاهد ضد الطبقة الحاكمة التركية لرفع السوء عن الفلاح ، أذاع صيته خارج القاهرة ، ودفع كثيرا من الاعيان والشيوخ الى الاتصال به ..**

والواقع ان عرابى كان يمثل الفلاح المصرى أتم تمثيل . وكان هذا النوع من الرجال موضع اهمال تام لدى الباشوات

من أتراك وشراكسة ، اذ ظلوا أجيالا يسترقونه ويسخرونه ، فلم يكونوا ينظرون اليه كأكثر من أداة يستعملونها لمصلحتهم .. وكان رياض من البداية حتى النهاية يزدرى عرابى .. بل ان دعاة الاصلاح فى الازهر لم يكونوا يقيمون له كبير وزن كقوة سياسية .. أما أبناء طبقته من الفلاحين ، فقد رأوا فيه واحدا منهم ، تضخمت فيه صفاتهم .. وجدير بنا أن نتذكر أن التاريخ المصرى ظل زهاء ثلاثمائة عام على الاقل ، لم يشهد فلاحا قحا يرقى الى مركز ذى أهمية سياسية تذكر ، أو يتألق كمصلح ، أو يجسر على أن يهمس بأية كلمة عن احتمال القيام بثورة !

ولعل عرابى ما كان يصل الى الزعامة القومية لولا الاضطهاد الارعن الذى لقيه من رياض فى الشهور التالية ، والذى لم يكن ينجو من عواقبه الا بفضل وشايات الاعداء السياسيين للوزير ، وكان أهمهم محمود بك سامى البارودى ــ وزير الحربية الجديد ــ الذى كان من أعضاء وزارة شريف من قبل ، كما كان من غلاة الدستوريين ، وكان مركزه يمكنه من مساعدة الضباط المتذمرين ، وقد أزجى لهم وعدا عاما بأنه سينبههم فى أى وقت ينضم فيه الخديو الى أى عمل ضدهم .. وحتى اذا لم يتهيأ له أن يحذرهم مباشرة ، فان استقالته من الوزارة ستكون خير نذير !

دور البارودى فى الحركة الوطنية

◆ **وكان** لدور محمود سامى البارودى أثر حاسم فى سير الثورة .. كان من أسرة شركسية طال استيطانها للبلاد ، فكان بذلك من الطبقة الحاكمة ، ولكنه كان مثل شريف باشا مصلحا ووطنيا .. وكان وزيرا حين تولى رياض الحكم فى سنة ١٨٧٩ ، وقد تم التفاهم على أن يبقى وعلى باشا مبارك كوزيرين مستقلين ، وان كانا من أنصار الدستور .. وما من شك فى أنهما كانا فى ربيع سنة ١٨٨١ يتآمران ضد رياض ، ولكن

هدفهما كان اعادة رئيس حزبهما ـ شريف باشا ـ الى الحكم ٠٠ ومن ثم فقد كان دور البارودى ينطوى على وطنية واخلاص كاملين ، للدستور وللقضية الوطنية ٠٠ وقد دفع من أجل ذلك ثمنا أغلى مما دفعه غيره من الضباط المتمردين ، اذ كان أغناهم ٠٠ وبالتالى أفدحهم خسارة !

وكان مسلك الخديو فى الشهور السبعة التالية أبعد مايكون عن الاستقامة ٠٠ فقد بدا موزعا بين الغيرة والمخاوف والطموح ٠٠ اذ أوحى اليه أعداء رياض ان الوزير كان يتآمر ضده ليحل محله ٠٠ وفى أوقات أخرى ، كان ذيوع صيت عرابى يستثير غيرته ، فكان يتنقل باستمرار من كراهية أحدهما الى كراهية الآخر ، ولا مطمح له سوى أن يستعيد سلطانه أو ما كان لابيه من نفوذ مفقود ٠٠ وكانت الرقابة الانجليزية الفرنسية تضايقه ، كما كان يدرك أن معظم رعاياه يكرهونه ٠٠ وكانت حاشيته من الشراكسة لا يفتأون يثيرونه ليتخذ اجراءات شديدة ضد الضباط « الفلاحين » !

هكذا كانت الاحوال فى شهر أغسطس من ذلك العام ، حين سرى التذمر العام فى العالم الاسلامى نتيجة للغزو الفرنسى لتونس ، مما أخذ يتطور بالامور فى القاهرة نحو أزمة محققة ٠٠

الفصل السابع

انتصار دعاة الاصلاح فى مصر

◆ **من العسير تحديد الدور الذى لعبه الخديو فى الفصل الاخير من مأساة الثورة ، واعنى به المظاهرة العسكرية فى ٩ سبتمبر ، بميدان عابدين . ويقول « نينيه » وبعض الكتاب ان ثمة خطة كانت مدبرة بين توفيق والقادة الحربيين لاسقاط رياض ومعه نفوذ المستشارين الاجانب ٠٠ ولكن هذا ليس صحيحا الا من وجهة عامة ، فقد أكد لى عرابى دائما انه لم يكن خلال صيف سنة ١٨٨١ على صلات شخصية بالخديو ٠٠ وفى الوقت ذاته ، من الصحيح ان فكرة المظاهرة ـ للاهداف التى قامت من أجلها ـ**

كانت اقتراحا أوعز به توفيق من آن لآخر للضباط خلال الصيف، بوساطة ياوره على فهمى ، الذى كان لا يزال يقربه ليستخدمه كجاسوس على الضباط الفلاحين ، وكرسول منه اليهم فى الوقت ذاته !

وكان توفيق ذا طباع متقلبة ، متعارضة .. فبينما كان يعتمد على الجيش لتخليصه من رياض ، كان يغار أحيانا من استفحال شهرة عرابى ، الذى أخذ أهل الريف يسمونه « الواحد » .. وكان أهلا لهذه التسمية ، اذ كان الوحيد ـ منذ قرون ـ الذى انحدر من صلب فلاحى محض ، واستطاع أن يتصدى موفقا لطغيان الطبقة التركية الشركسية ..

على أنه لا يمكن الجزم بأن حركة ١٨٨١ كانت لتخليص الفلاحين من الغبن فحسب .. ولا انها كانت موجهة من البداية ضد الحكومة التركية التى أنزلت الخراب بالبلاد .. بل ان الاحداث ما لبثت ان وجهتها أيضا ضد الرقابة الانجليزية الفرنسية عندما جاهرت هذه بتحالفها مع الطغيان ..

ولقد تبين عرابى سراعا ان الدستوريين سعوا الى التحالف معه . وكان معظمهم ينتمون الى الطبقة الحاكمة ، ويعارضون ـ فى قرارة قلوبهم ـ منح الفلاح حريته ، (مثلهم فى ذلك مثل رياض) ، اذ كانت فكرة الدستور عندهم تقترن بابقاء السلطة العليا فى يد الطبقة الحاكمة التركية الشركسية!

.. ولقد تحمس عرابى لفكرة الدستور لأنه كان يقرها من البداية ، ولأن سلطان باشا ـ الذى كان من أقوى الفلاحين نفوذا ـ كان من غلاة الدستوريين، وقد سعى كرسول بين عرابى وشريف ، فاتفقوا على استخدام الجيش عند الاحتياج لاى ضغط على الخديو لانتزاع موافقته على منح الدستور .. وما كان الخديو بالمعارض فى الواقع ، لان الدستور كان وسيلة للخلاص من رياض، ومن ثم فقد أوعز الى على فهمى بأن يوحى لعرابى بالمضى فى الخطة ، مؤكدا له موافقة الخديو .. وكان هذا مثالا لما جبل عليه توفيق من دس وتآمر، فقد كان من الضرورى لاقناع القناصل اظهار الخديو بمظهر الذى يسلم مجبرا بتغيير وزرائه .. ومع ذلك ، فان اتجاه الخديو لم يبد واضحا عندما حانت الساعة !

الاحداث التى عجلت بالازمة !

ففى أغسطس ، فطن رياض فجأة الى خطر حركة الفلاحين التى كان من قبل يستهين بها .. فأحاط عرابى وزملاءه بالجواسيس ، وأرسل من يستدرجونهم الى شجار فى الطريق يضعهم تحت طائلة البوليس ! .. ولكن وزير الحربية (البارودى) كان لا يفتأ ينذرهم ويحذرهم.. حتى اذا استفحل الخلاف بين رياض ووزير الحربية فى أغسطس ، وأعلنت استقالة البارودى، أدرك الضباط ان خطتهم لم تعد تحتمل تأجيلا .. لا سيما وان الذى خلف البارودى فى الوزارة ـ داود باشا يكن ـ كان من غلاة الرجعيين ، وكان قائدا

شركسيا مصاهرا للخديو .. ورأى الضباط انهم لو شتتوا بعيدا عن القاهرة لكان فى ذلك القضاء عليهم .. كما كان من المحتمل ان يأمر الوزير بالقبض عليهم ومحاكمتهم عن العصيان الذى حدث فى فبراير .. ومن ثم شرعوا فى الاستعداد ، واضافوا الى مطالبهم زيادة عدد الجيش واقرار الدستور ..

وحلت الازمة فجأة فى ٨ سبتمبر ، اذ امر داود باشا بنقل آلاى عرابى الى الاسكندرية ، وآلاى عبد العال الى دمياط .. وقرر الضباط ان يبدأوا العمل ، آملين فى تساهل الخديو .. بيد انهم كانوا فى قلق من حقيقة اتجاه على فهمى ، ورأوا لتخفيف خطر المغامرة ان يخطروا الخديو أولا ، وان يطمئنوه الى أنهم لا يكنون له أى عداء ، وانهـم لذلك لن يسـيروا الى قصره فى حى الاسماعيلية ، وانما سيتجهون الى عابدين ، ورجوه أن يستقبلهم هناك ويستمع الى تظلمهم ..

موقف ميدان عابدين !

ويحسن أن أسوق بقية القصة كما رواها عرابى : **« عندما تلقى الخديو رسالتنا أرسل يستدعى رياض باشا وخيرى باشا وستون باشا (الامريكى) فقصدوا الى ثكنات عابدين أولا ، حيث تكلم الخديو ورياض الى الجنود ، وأمر على فهمى بأن يحتل بجنوده قصر عابدين ، فوافق على فهمى ، ووضع رجاله فى الحجرات العليا بعيدين عن النظر .. ثم ذهب الخديو وقواده الى القلعة وتحدث الى الجنود يحرضهم ضدنا ، ولكنهم التفوا حول عربته ، فخاف وغادر المـكان .. ثم ذهب الى العباسية ـ بنصيحة رياض ـ ليكلمنى ، ولكنى كنت قد سرت مع رجالى الى عابدين .. وسأل عن المدفعية فقيل له انهـا ذهبت الى عابدين أيضا !**



« وعندما وصل الخديو الى عابدين وجدنا نحتل الميدان .. وكنت حـين بلغت مدخل القصر قد ارسلت الى على فهمى وتحدثت اليه ، فسحب رجاله من القصر ووقف بهم معنا ..

« وما لبث الخـديو ان جاءنا بين قادته وياورانه .. وصاح بى أن اترجل عن جوادى فترجلت .. وأن اخلع سيفى فخلعته .. ولكن اصدقائى من الضباط

اقتربوا منى خوف الخديعة ، ووقف بعضهم بين الخـديو والقصر .. وعندما قرأت مطالبنا على الخديو، قال: «انا خديو البلد واعمل زى ما أنا عاوز» فقلت : «لسنا عبيدا ، ولن نورث بعد اليوم» . ولم يجب الخديو ، بـل استدار وعاد الى القصر ، وما لبث ان أوفد الى «كوكسون» ومعه مترجم ، فسألنى لماذا اطلب البرلمان وانا عسكرى ، فقلت اننا نريد أن نضع حدا لحكم الفرد الاستبدادى ، وأشرت الى جموع المدنيين الذين كانوا يؤيدوننا ويقفون وراء الجنود .. فهددنى قائلا : «ولكننا سنحضر جيشا بريطانيا» ، ودار بيننا جدل طويل . ورجع الى القصر ست او سبع مرات ، ثم اخبرنى فى النهاية بأن الخديو وافق على كل مطالبنا ، وعين حيدر باشا فى مكـان رياض ، فلم أوافق .. وعندما سئلت اخيرا ، ذكرت اسـم شريف باشا ، لانه أعلن صراحة تحمسه لمجلس النواب .. »

و « كوكسون » الذى أشار اليه عرابى ، لم يكن سوى « سير تشارلس كوكسون » القنصل البريطانى بالاسكندرية وقتئذ ، وكان يتولى الوكالة الانجليزية فى القاهرة فى فترة غياب « ماليت » .. كذلك كان هناك سير أوكلند كولفين المراقب المالى الانجليزى .. وكانا الوحيدين اللذين استطاعا الحضور من رجال السلك الاجنبى .. ومن ثم كانا الوحيدين اللذين تشاور معهما الخديو ، واللذين كتبا للحكومة الانجليزية بوصف ما جرى .. وكان « كولفين » مشربا بتقاليد الحكم الانجليزى فى الهند ، ولم يخطر له قط ان ثمة شبه تفاهم بين الخديو والضباط ، لذلك راح يحث الخديو على أن يتخذ اعنف الاجراءات .. بل نصحه بان يفرغ مسدسه فى عرابى !. كذلك كان كوكسون يجهل ما بين توفيق والضباط ، وكان من رأيه اللجوء الى اللين ، والى نفس الحل الذى كان توفيق يسعى اليه ، وهو خلع رياض ، واسناد الحكم الى شريف ..

وبالفعل رحل رياض الى الاسكندرية ، ومنها الى أوربا ، حيث بقى ينتظر ريثما يتلقى معونة الدول التى تحميه !

ابتهاج المصريين بزوال الكابوس ..

◆ وكانت الشهور الثلاثة التالية من أسعد الشهور التى مرت بالسياسة المصرية .. ولو لم أشهد أحداثها بعينى رأسى لارتبت فى صحتها .. فلقد اتحدت فى تلك الفترة كل الاحزاب الوطنية ، واهالى القاهرة ، لتحقيق الفكرة القومية العظيمة .. وبدا على الخديو انه لم يكن أقل منهم رغبة .. بل سره أن انتهت الازمة بتوفيقه فى التخلص من رياض ومن أشد قيود الرقابة الثنائية مضايقة له ! .. واطمأن الى أن شريف لن يلبث ان يخلصه من عرابى بدوره ، عاجلا أو آجلا ! .. ولم يكن شريف والاتراك الاحرار بأقل ابتهاجا

لعودتهم الى الحكم .. وارتاح الجنود لابتعاد الخطر الذى ظل يتهددهم زمنا طويلا ..وأصبح دعاة الاصلاح يرون ان الحريات المدنية غدت محققة .. وغمر مصر بأسرها فرح لم يواتها من مئات السنين .. وتحررت الصحافة ـ تحت الرقابة الرشيدة التى استنها الشيخ محمد عبده ـ من قيودها القديمة .. وأصبح الناس يتكلمون فى كل مكان دون ما خوف .. وسعدت كل الطوائف ، مسلمة ومسيحية ويهودية ، وكذلك كل العناصر بما فيها الاجانب الذين كانوا على ود وثيق مع الاهالى .. بل ان القناصل الاوربيين لم يملكوا الا أن يعترفوا بأن العهد الجديد كان أفضل من القديم !

وكان مسلك عرابى نحو الخديو والوزراء الجدد ، سليما كريما أبيا .. وقد أعرب لشريف ومحمود سامى البارودى ـ الذى عاد لوزارة الحربية ـ عن رغبته فى أن يتنحى لهم عن السلطان بعد أن أدى مهمته وحصل للبلاد على حريتها .. وكانت كل خطبه وأحاديثه تكشف عن ذلك ، وعن آرائه الانسانية التى كانت طابع جهاده السياسى .. وفى الثانى من أكتوبر ـ بعد تبوء شريف الوزارة بأسبوعين ـ غادر عرابى القاهرة بالفعل مع فرقته الى « رأس الوادى » ، بالقرب من التل الكبير ..

بوارج انجليزية وفرنسية تصل الى مصر !

وهكذا لم تكن تعكر صفاء الافق المصرى اذ ذاك سوى سحابة واحدة : هى احتمال معاداة السلطان لفكرة الدستور ، فان عبثه بفكرة الحكم النيابى فى القسطنطينية كان ينم عن انه من ألد اعدائها .. لذلك فان قدوم لجنة خاصة تمثل السلطان الى القاهرة فى أوائل أكتوبر لتحرى ما حدث ، لم يلبث أن شغل أذهان الناس .. ولكن زيارة اللجنة مرت بسلام ، اذ استطاع الوزراء الجدد أن يقنعوا أعضاءها بأن الحركة السياسية لم تكن تنطوى على شيء من عدم الولاء للسلطان .. بل ان ما جرى لتونس أقنع المصريين بأن سلامتهم من العدوان الاوربى تتمثل فى تعزيز رابطتهم بالدولة العثمانية ، وان الثورة لم تقم الا لمنع زحف الرقابة المالية الفرنسية والانجليزية على استقلال مصر السياسى ..

وزاد من اقتناع اللجنة ان أحد أعضائها ـ أحمد باشا راتب ـ قابل عرابى، وهو فى طريقه الى السويس ثم مكة ، ودار بينهما حديث خاص .. وكانت لهذا الحديث ، الذى جرى فى القطار بين الزقازيق والتل الكبير ، نتائج هامة فى تطور الموقف السياسى فيما بعد .. **وقد أكد لى عرابى ان المقابلة جاءت من تدبير الصدف وحدها ، اذ جمعت عرابى وراتب باشا فى عربة واحدة من القطار ، فتعارفا دون ان يذكر راتب لعرابى شيئا عن المهمة التى حضر من اجلها الى مصر .. وقال لى عرابى : « وقد أخبرته بأننى أدين بالولاء للسلطان**

بوصفه رئيس ديننا، كما رويت له كل ما حدث فقال : « أحسنتم صنعا » .. ثم أرسل لى مصحفا من جدة »

وقد تصادف أثناء وجود البعثة بمصر ، ان وصلت مدرعتان ـ احداهما فرنسية والاخرى انجليزية ـ الى الاسكندرية بأوامر من الحكومتين أثر تلقيهما الاخبار .. ولكنهما بارحتا مصر فى نفس اليوم الذى رحلت فيه بعثة السلطان ..

انجلترا تبيع مصر مقابل امتيازات تافهة !

كانت هذه هى الاحوال فى مصر حين عدت الى القاهرة فى أول نوفمبر .. ولم أكن أنتوى فى الواقع سوى المرور بقناة السويس فى طريقى الى شبه جزيرة العرب .. وكنت شديد الاهتمام بالازمة التى كانت تشاهد فى العالم الاسلامى .. فعندما قامت الثورة فى الجزائر ، أثر العدوان الفرنسى فى تونس ، اتجهت افكارى الى شبه الجزيرة العربية ، مهد الحرية الشرقية والدين الحق .. ولم أكن أظن اننى سأجد فى الحركة القومية فى مصر مصدرا للمزيد من اهتمامى ، اذ كانت صحافة انجلترا قد أظهرت أحداث شهر سبتمبر كمجرد أحداث عسكرية بحتة ، فتعذر على أن أؤمن بأن عرابى كان يهدف الى غرض شريف من وراء ما فعل .. سيما وقد كنت اعرف ان الشيخ محمد عبده وبقية أصدقائى الازهريين ، كانوا يميلون الى وسائل أخرى غير العنف .. وبدا من المستحيل أن الحوادث التى وقعت فى صيف واحد كافية لان تصل بهم الى مرحلة النضوج .. أما الدستور الموعود فقد أعلنت صحافة لندن انه مجرد كلام من نوع ذاك الذى عمد اليه اسماعيل لمناوأة « ولسن » .. وان « ماليت » أكد ان السلطان لن يسمح به ..

وفى طريقى للسفر الى مصر ، وقع حادث سأبين أهميته فى الوقت المناسب .. فقد صادفت فى محطة « تشارينج كروس » وكيل وزارة الخارجية البريطانية المدعو «ديلكه» ، فى طريقه مع سكرتيره الى باريس ، فلازمتهما خلال الرحلة .. وكان « ديلكه » فى خير أحواله ، اذ كان صديقه الحميم «جامبيتا» قد تولى الوزارة الفرنسية ، وكان «ديلكه» قد قضى ستة شهور فى مفاوضة فرنسا لتجديد المعاهدة التجارية دون أن يوفق ، فأوحى اليه التغير الوزارى فى فرنسا بالامل .. سيما وقد كان لدى جامبيتا خطة يستطيع «ديلكه» بحكم منصبه ان يكون عظيم النفع له فى تحقيقها : فان غزو تونس جعل شمال افريقيا بأسره يشتعل ثورة ، **فجاء «جامبيتا» وهو عازم على أن يستخدم أشد الاجراءات ، لانه كان يخشى أن تقوم ثورة اسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية مظهرا جديدا للتعصب الاسلامى .. كما انه ـ لأصله اليهودى ـ كان على علاقة بالمصالح المالية العليا المتعلقة**

بمصر ، فعول على أن يسعى لفرض التدخل الاجنبى على مصر ، ومن ثم كان راغبا فى أن تشترك معه حكومتنا فى حركة صليبية ضد الاسلام - باسم المدنية - تكون أولى خطواتها تشديد الرقابة الاوربية المشتركة فى القاهرة!٠٠ وكانت المعاهدة التجارية مع فرنسا عظيمة الاهمية لديلكه ، اذ كانت حكومة الاحرار تعول عليها الى حد كبير ، حتى اننى لم أملك ان قلت بصوت مسموع وأنا أودعه فى محطة الشمال - بباريس : « هذا الرجل يعتزم أن يبيع مصر من أجل معاهدته التجارية » ! .. ولسوف يتجلى فيما بعد كيف ضحى بحرية مصر ، وبالاصلاح الاسلامى فى العالم - الى حد كبير - فى سبيل الحصول على بعض تخفيضات تافهة فى الرسوم الجمركية التى كانت تفرضها فرنسا على السلع الانجليزية !

« الهجرسى » يحدثنى عن حركة الجيش فى مصر

◆ **ويخيل** الى ان ذهابى الى القاهرة فى ذلك الشتاء كان من توجيه العناية الالهية ، اذا لم أكن مبالغا فى أهمية جهودى الخاصة فى مصر ٠٠ فقد اضطررت الى انتظار خدمى ومتاعى فى السويس ، فجال بخاطرى أن أذهب الى القاهرة لايام معدودات ، اذ كان قد أذيع فى انجلترا ان علماء الازهر تحولوا عن أفكارهم الاصلاحية وآزروا اتجاهات السلطان نحو تكتيل الشعوب الاسلامية !٠. فابرقت الى صديقى الشيخ محمد خليل كى يقابلنى فى القاهرة ، وشد ما فوجئت اذ وجدت بدلا منه شيخا مسنا لا أعرفه هو « الشيخ محمد خليل الهجرسى » الذى تسلم البرقية خطأ ٠٠ وكان ذا مكانة فى الازهر ، كما أنه كان على صداقة متينة بزعماء ما كانوا يسمونه بـ « الحزب العسكرى » بالقاهرة ، وعلى معرفة شخصية بعرابى ٠٠

وعندما أفاق الهجرسى من دهشة هذا اللقاء ، لم يجد ضيرا فى أن يتحدث عن عرابى وأعماله ، وعندما شرحت له آرائى فى الاصلاح على أساس العروبة ، وثق فى ، وحدثنى بآرائه التى لم تكن تختلف كثيرا عن آرائى ٠٠ وانبأنى بأنه من شيوخ الشافعية ، وانه وثيق الاتصال بحزب الاحرار للاصلاح فى مكة ، وكان مناوئا للسلطان عبد الحميد ، ساعيا لاعادة الخلافة الاسلامية العربية ٠٠

ومن «الهجرسى» علمت تفصيلات ما حدث بالقاهرة فى الصيف، وحقيقة وضع العسكريين بالنسبة للحزب الوطنى ، وهى معلومات أكدتها لى فيما بعد مصادرى ، ومنها صديقاى الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد خليل ٠٠ ولم يطل الوقت حتى تعرفنا الى بعض الضباط الفلاحين الذين اشتركوا فى مظاهرة عرابى ، لا سيما عيد دياب ، وعلى فهمى ٠٠ وكان أهم ما تناقشنا فيه هو « الخديو » .. وما اذا كان يمكن الركون اليه ! .. وهل كان صادقا في

وعده بالدستور ؟.. وهل معنى ذلك أن يعهد بسلطاته الى وزراء مسئولين أمام مجلس نواب ، أو أن ينشىء مجلسا نيابيا استشاريا فحسب ؟ .. ولم يكن ثمة من يطمئن الى توفيق .. بل قيل ان « ماليت » ـ الذى كان قد عاد من القسطنطينية أخيرا ـ نصحه بأن يروغ من هذا الوعد ! .. وتبينت جليا ان الوطنيين المتنورين يحقدون على أسرة محمد على بأسرها ، وعلى الفرع الذى ينتمى اليه توفيق بالذات !

وكانت المسألة الثانية التى بحثناها هى مسألة الاصلاحات ، فقد بدأت الصحافة فى مهاجمة الجور فى الضرائب ، متهمة الرقابة المالية الاجنبية بمحاباة الاوربيين على حساب الاهالى ، منتقدة ازدياد المناصب ذات المرتبات العالية التى كانت تعهد الى الاجانب دون ما ضرورة ، منددة بتسليم السكك الحديدية والجمارك الى ايدى مندوبى المليونير اليهودى روتشيلد !

وكانت جريدة «الطائف» ـ التى كان عبد الله نديم النابغة الملتهب القلم يرأس تحريرها ـ تحمل حملة شعواء على اباحة فتح الحانات والأماكن السيئة السمعة تحت حماية « الامتيازات الاجنبية » .. كما كانت ثمة مرارة فى النفوس قد عمت العالم الاسلامى بسبب الغزو الفرنسى لتونس ، ومع ذلك فقد كان المسيحيون والمسلمون على أتم وئام فى القاهرة ، وكان الاقباط بكل قلوبهم مع الثورة .. حتى اليهود كانوا متحمسين للاصلاح ..

وكان أهم ما عنى به الضباط هو ما طالبوا به من زيادة الجيش ، بعد أن ثبت أن ما أصاب « تونس » كان نتيجة لاخذ « الباى » على غرة دون ما استعداد أو قوة عسكرية كافية للدفاع عن بلاده ..

المطالبة بعزل شيخ الازهر

◆ **وحوالى** نهاية نوفمبر ، أنبأنى الشيخ محمد الهجرسى ، ان ثمة اضطرابا نشأ بين طلبة الازهر ـ لا سيما من أتباع مذهبى المالكية والشافعية ـ للمطالبة بعزل شيخهم «الشيخ محمد العباسى» الحنفى المذهب ، والذى كان معينا من قبل الخديو ، فلم يكن ثمة ارتياب فى أنه كان يعد فتوى تتيح للخديو ان يتحلل من الوعد الذى قطعه على نفسه بالدستور .. ومن ثم كان هناك اتجاه الى المطالبة بالعودة الى النظام القديم وهو اختيار شيخ الازهر بالانتخاب العام ..

وذكر لى الهجرسى ان الفكرة الغالبة هى ان « ماليت » يحمى ظهر الخديو فى مناصرة الشيخ العباسى ، وان بوسعى أن أعالج الموقف اذا استخدمت نفوذى لدى « ماليت » .. ولكنى تبينت ان هذا الرجل كان على جهل تام بالمسألة كلها ..

وانتهى النزاع بأن عزل ((العباسى)) بأغلبية اصوات الطلبة فى ٥ ديسمبر ، وأختير بدلا منه ((الامبابى)) أحد شيوخ الشافعية .. والواقع ان الامبابى انتخب نتيجة خدعة من الخديو ، وكان صاحب الاغلبية فى الاصل هو الشيخ ((عليش)) المالكى ، الذى عرف بجرأته وتدينه ، والذى قام بدور هام أثناء الحرب ، ومات فى أوائل أيام الاحتلال الانجليزى فى السجن ، والمعتقد انه مات مسموما ، نتيجة لما أدلى به من أقوال فى محاكمة عرابى !

وصرت أرى ((ماليت)) فى الاسابيع القلائل التالية ، فى كل يوم تقريبا، واستطعت أن أؤثر عليه الى حد كبير ، اذ اطلعته على حقيقة آراء الوطنيين، وكان يعتمد فى معلوماته الناقصة على ما يزجيه اليه الخديو وشريف باشا .. كما كان يعتمد فى تعرف الرأى العام على ما يلتقطه اليونانى ((أرانجى)) — المترجم الذى كان فى خدمته — من أنباء فى مقاهى الحى الأوربى .. وبالمثل كان زميله الفرنسى ((سنكيفيتش)) لا يزيد عنه معرفة بحقيقة الموقف ..

وكان ((ماليت)) فى حيرة لا يدرى شيئا عن رأى مستر جلادستون فيما ينبغى أن يتخذه من موقف ازاء الدستور .. لذلك ارتاح الى ، اذ وجد عندى سياسة واضحة محددة أشير بها عليه ، وتلك هى أن يعضد الوطنيين.. واستطعت أن أؤكد له ان جلادستون لن يتردد فى الانحياز لجانب الدستور اذا عرف الحقائق .. وقد آزرنى فى التأثير على ماليت أيضا بعض الانجليز الذين أقنعتهم برأيى ، ممن كانوا يزورون القاهرة فى ذلك الشتاء .. ولم ينتصف ديسمبر حتى كنت قد أقنعت الانجليز الموجودين فى القاهرة برأيى.. حتى السير أوكلاند كلفن ، المراقب المالى الانجليزى الذى أشار على الخديو قبل ذلك بثلاثة شهور بأن يفرغ مسدسه فى عرابى !

الفصل الثامن

شخصية عرابى وآراؤه

◆ **وفى السادس** من ديسمبر ، عاد عرابى للمرة الاولى من رأس الوادى.. وفى الثانى عشر من الشهر قابلته للمرة الاولى فى البيت الذى استأجره على مقربة من دار على فهمى — الذى أصبح معه قلبا وقالبا — وغير بعيد من ثكنات عابدين !.. وكان معى عيد الديب ، وصابونجى (وهو شخص ساهم فى تعليمى العربية وكان يتولى أعمالى فى القاهرة أثناء غيابى)

وكان عرابى اذ ذاك فى أوج مجده وشهرته .. وكان قد سمع عنى كصديق لقضية الفلاح ، فتلقانى بأقصى ترحاب .. ولم أر فيه شيئا من التعصب ، بل كان على استعداد دائم لان يتعاون مع المسيحيين ،

واليهود ، بل الكفرة ، فى سبيل الحرية .. ووجدته صريحا معى للغاية ، فأكد ولاءه للخديو « طالما وفى بعهوده ولم يحاول حرمان المصريين من حريتهم المنشودة » .. ولكن كان واضحا أنه لم يكن يثق فيه أو يطمئن اليه ، وكان يرى من واجبه أن يرقبه بعين حذرة .. ولقد بادرت بالكتابة الى جلادستون مؤكدا أن آراء عرابى لم تكن تختلف فى شىء عن الاراء الاوربية الحديثة وان كانت مستمدة من الفكر العربى العريق ، فهو يؤمن بالرابطة التى تربط بين أتباع عقائد التوحيد : الاسلام ، والمسيحية ، واليهودية .. وهو لايهدف الى مطامع خاصة ، بل كان يقول فى تواضع انه يمثل الجيش « لان الظروف جعلت الجيش يثق فى » .. كما قال ان الجيش هو القوة الوحيدة التى كانت تقف اذ ذاك بين المصريين والحكام الاتراك ، وان الرقابة الاوربية كانت تسند هؤلاء — الى حد ما — اذ لم تحاول أن تبذل أى جهد لاعداد المصريين — بالتربية الوطنية — لحكم أنفسهم اذا ماجاء يوم رفع الوصاية المالية عن البلاد ..

لا نعمل لانفسنا بل لاولادنا ..

وفيما يتعلق بالحكم النيابى قال : « اننا بهذا لانعمل لانفسنا وانما لأولادنا ولهؤلاء الذين يثقون فينا .. اننا كمصريين لا نحب اراقة الدماء ، وبمجرد أن يتمكن برلماننا من ارسال صوته ، ينتهى واجبنا .. ولكنا عازمون — الى أن يحين هذا الوقت — على صيانة حقوق الشعب بأى ثمن .... »

وكان للفته — البعيدة عما كان مألوفا من السياسيين الشرقيين — أثر كبير فى نفسى . كانت كلماته تصل الى جذور الأمور ، وتحدد مسئوليات الحكم الصالح والكواهل الجديرة — دون سواها — بحملها ..

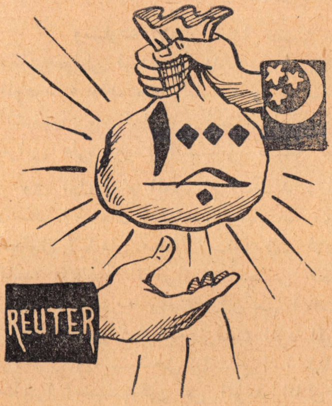
كذلك كان عرابى صريحا ، وواضحا ، فى الحديث عن كراهيته للاتراك الذين اساءوا حكم مصر قرونا ، وعن نفوره من تدخل القسطنطينية فى الشئون الداخلية للبلاد .. ولكنه فرق بين الحكومة العثمانية ، والسلطان الذى كان جديرا بالطاعة كـ « أمير للمؤمنين » طالما حكم بالعدل .. كما أن حادث تونس كان مثالا بين أهمية ابقاء مصر على الرابطة بينها وبين رأس العالم الاسلامى ، أى السلطان العثمانى ..

وتحدث عرابى معى أخيرا عن علاقات مصر بالحكم الثنائى الفرنسى البريطانى ، فأقر بصنيعه فى تخليص البلاد من اسماعيل وتنظيم ميزانيتها .. ولكنه انكر على الدولتين وقوفهما فى وجه النهضة القومية وتأييدهما لانفراد الخديو بالحكم ، أو لاستبداد الباشوات الشراكسة .. وقال أنه يرجو أن تعطف انجلترا على المجاهدين فى سبيل الحرية ، ولكنه ، كأى فرد فى القاهرة ، لا يطمئن الى « ماليت » ..

وتحدثت الى « ماليت » وانا متأثر بأقوال عرابى ، فوافق على أن من الخير أن نعد بيانا نضمنه وجهات نظر الوطنيين ·· وفعلا أعددت هذا البيان بمساعدة الشيخ محمد عبده وصابونجى ، وأقره محمود سامى البارودى وعرابى ، ثم قدمته الى « ماليت » الذى حبذه وارسله الى جلادستون ·· وفى الوقت ذاته أرسلت هذا البرنامج الوطنى الى « التايمز » رغم معارضة « ماليت » فى النشر ، اذ كان رئيس تحريرها اذ ذاك - المدعو « تشينرى » - معروفا بخدماته للقضية المصرية ·· ولكن « تشينرى » اندفع فى تحمسه ، فنشر البيان قائلا انه تسلمه من عرابى نفسه ،مما اتاح لماليت فرصة لان يكذبه عن طريق « رويتر » ··

مصر تدفع لوكالة (رويتر) ١٠٠٠ جنيه شهريا !

وخليق بى أن أبين هنا كيف كانت صحافة لندن ووكالة رويتر - بوجه خاص - تساق الى الدسائس الديبلوماسية ·· فالواقع انه لم يكن لاغلب الصحف اللندنية مراسلون فى القاهرة ·· وكانت « التايمز » و « بال مال جازيت » فى يدى سير أوكلند كلفن - المراقب المالى الانجليزى - الذى كان من تلاميذ السياسة الانجليزية فى الهند ·· وكان صوته يصل الى أذن الحكومة خلال رئيس تحرير « بال مال » ، وسنرى - فيما بعد - أهمية هذا عندما عكف كلفن على العمل لاجتلاب التدخل الانجليزى ·· كذلك كان مراسل « التايمز » يعتمد على كلفن فى الحصول على الاخبار ، وكانت وكالتا « رويتر » و « هافاس » تحصل كل منهما على اعانة مالية قدرها ١٠٠٠ جنيه فى العام ، من الرقابة المالية الانجليزية الفرنسية فى مصر ، تؤخذ من الموارد المصرية المرهقة ·· وكان « رويتر » بوجه خاص بوق الوكالة الانجليزية ، حتى ان « ماليت » كان يراقب برقياته المرسلة الى لندن ··



والى نهاية سنة ١٨٨١ تقريبا ، كانت علاقاتى بماليت - وكذلك بكلفن - طيبة الى درجة أنهما سألانى فى ١٩ ديسمبر أن أساعدهما فى حل مشكلة مخصصات الجيش ، اذ كان العمل جاريا فى وضع الميزانية

الجديدة ، وقد طلب البارودى اعتماد ٦٠٠ر٠٠٠ جنيـــه لوزارته متعللا بوعد الخـــديو برفع الجيش الى ١٨ر٠٠٠ جنـدى ، كما نص الفرمان العثمانى ٠٠ وتشبث الوزير بطلبـــه ، بحيث صار الرفض مدعـــاة لأزمة وزارية ٠٠ وخولنى كلفن أن أؤكد لعـــرابى وزملائه أن من المســتحيل ــ ماليا ــ اعتماد أكثر من ٥٢٢ر٠٠٠ جنيـــه ، وان لا مانع لديه من زيادة الجيش مادام هذا لايتضمن تجاوزا للمبلغ ٠٠ وقـــد قبل عرابى وزملاؤه ذلك ، على أن يعملوا على الاقتصـــاد فى أبواب أخرى لتوفير مايلزم لزيادة عدد الجيش بقدر الامكان

ومع ذلك ، فقد فاجأنى « ماليت » عصر يوم ٢٨ ديسمبر ، وأنا ألعب « التنس » معه فى حديقة الوكالة ، بصـورة برقيـــة أرسلها الى وزارة الخارجية يشكو فيها من ارسالى البرنامج الوطنى للتايمز ، ويذكـر فيهـا تشجيعى للوطنيين ، متجاهلا ماأسديت له من مساعدات .. فأصررت على أن يلغى هذه البرقية الخادعة ، وبالفعل جعلته يكتب أمامى برقية تلغيها ، وأخرى يصحح فيها ما أخفاه من مساعداتى ٠٠ وقد أدركت أنه انما كان يحاول أن يحمى نفسه من المسئولية العـــامة اذا اثارت وجهـــات نظرى سخط الحكومة الانجليزية ٠٠ على أن غـدره هـــذا ، كان درســـا لم أنســـه قط !

جريمة جامبيتا !

وسارت الامور سيرا حسنا حتى الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ ٠٠ وكان مجلس المندوبين قد دعى فى ٢٦ ديسمبر للتداول فى نصوص الدستور الموعود ، وافتتحه الخـــديو بنفسه وقـــد تحسن مسلـكه ازاء الحركة الشعبية ٠٠ كما كان قنصلا فرنسا وانجلترا قد اتفقـــا على أن يضـــفى عرابى على نفوذه السياسى صبغة نظامية بأن يقبل منصب وكيل الحربية

وفى أول أيام العـــام الجديد ، نشرت « التـــايمز » البرنامج الوطنى مصحوبا بمقال افتتاحى وتعليقات محبذة ، فاذا اعتداله وتسلسله المنطقى المعقول لايدعان مجالا لاساءة فهم الاوضاع فى مصر ، لاسيما فى انجلترا اذ كانت الاغلبية للاحرار فى مجلس العموم ، وكان المستر جلادســـتون على رأس الامور ٠٠ ولذلك كان من العجيب ان تكون وزارة الخارجيـــة ــ فى الوقت الذى كنا فيه نرتقب الرد المواتى ــ عاكفة على اعداد العدة للتهديد والانذار والتـــدخل المسلح !.. ذلك أن البرنامج وصـــل الى جلادستون متأخرا أســـبوعين عن الموعد الذى كان مناسبا له ٠٠ وبينما كنا نرتقب

رسالة سلام ، اذا بالسماء الصافية تدوى بالرعد القاصف ، اذ فوجئنا بمذكرة ٦ يناير سنة ١٨٨٢ المشتركة المشئومة .. المذكرة التى كانت السبب المباشر فى المتاعب التى وقعت خلال ذلك العام ، وضيعت حرية مصر ، وشرف جلادستون ، ونفوذ فرنسا الثقافى فى وادى النيل .. ألخ

والواقع أن المذكرة كتبت فى « كيه دورساى » ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية ـ لا فى « داوننج ستريت » .. ولخدمة المطامع الفرنسية قبل سواها .. فقد سردت من قبل ما كان من أمر مقابلتى لتشارلس ديلكه وهو فى طريقه الى باريس ، لمفاوضة جامبيتا .. وكان جامبيتا فى ذعر من أن يتحد العالم الاسلامى أمام الثورة التى قامت فى تونس والجزائر ضد فرنسا .. وكان يظن أن السلطان يسعى لذلك ، وان الحركة القومية فى مصر نتيجة لدعاوة السلطان ، ودسائس اسماعيل وحليم وغيرهما .. وكان هو على ارتباط بالدوائر المالية العليا ، وخاصة بروتشيلد وكبار الماليين ، كما أن نوبار باشا و « ريفرز ولسن » كانا يقيمان فى باريس ويمدانه بآرائهما فى المسائل المصرية .. لذلك لم تنقض أيام على توليه الوزارة حتى اتصل بوزارة الخارجية الانجليزية ليحملها على الاشتراك معه فى اتخاذ موقف شديد ضد الحركة الوطنية فى مصر ، باسم المدنية !.. وكانت لندن متلهفة على تجديد المعاهدة التجارية مع فرنسا ، فى حين أن المفاوضات كانت قد بلغت درجة أوشكت أن تتحطم عندها .. وفى ١٥ ديسمبر ، اتصل جامبيتا بسفيرنا فى باريس« اللورد ليونز » مقترحا اتخاذ خطة مشتركة في مصر ، ذاكرا انه يرىأهمية قصوى فى تدعيم السلطان توفيق واشعاره بتأييد فرنسا وانجلترا ،وحفزه على الحزم والنشاط .. وفى ١٩ ديسمبر رأىاللورد جرانفيل أنالوقت قد حانلتدبر الحكومتان الخطة التى يحسن اتباعها .. فاقترح جامبيتاانتهاز فرصة اجتماع الاعيان المصريين لبحث الدستور ، لاصدار بيان واضح عن اتحاد فرنسا وانجلترا فى تأييد توفيق !

بريطانيا تقبض الثمن !

وهكذا دارت الاتصالات بشأن الامرين فى وقت واحد .. فى حين أن البرنامج الوطنى لم يصل الى لندن الا بعد أسبوع ، وكان جلادستون بعيدا فى عطلة عيد الميلاد ، فلم يكن ثمة وقت ليطلع وزارة الخارجية على ما انتهى اليه تطور الامور .. وهكذا تورطت حكومتنا فى سياسة جامبيتا حين قدم فى ٣١ ديسمبر صيغة كتبها بخطه للمذكرة المشتركة .. وفى اليوم ذاته أعلن استئناف المفاوضات رسميا فى تجديد المعاهدة التجارية !

هذه هى القصة بظروفها .. وقد تلقيت فى ١٣ يناير سنة١٨٨٢ خطابا من سير ريفرز ولسن قال فيه : **« خطابك يؤيد ماكنت أعتقده من أن الجنود يعبرون عن احساس الشعب ، وان توفيق يعمل مع السلطان ..**

ولا يدهشنى هذا الاخير ، فمنذ ستة اسابيع ، قال لى جامبيتا : « ان الخديو أصبح يتدلل على ركبتى السلطان » .. فان توفيق ضعيف وجبان .. والجيش ضده .. والحريم يكرهنه .. ولم ير التأييد حيث كان يرتقبه ـ أى على أيدى الحكومتين الفرنسية والانجليزية ـ ومن ثم ولى وجهه الى حيث كان مقدرا ان يجد العطف ، وربما العون المادى .. ولعلاج هذه الحالة انتهجت فكرة الاعلان المشترك.. ولسوف آسف اذا لم يؤت التأثير المنشود ويجعل الضباط والعلماء والاعيان يدركون ان تجدد الاضطراب سيؤدى الى التدخل المسلح من جانب أوربا .. »

ولقد سمعت فى ذلك الحين ـ وصدقت ـ ان الخطة كانت موضوعة كى تقوم انجلترا بمناورة بحرية فى مياه الاسكندرية ، بينما تنزل فرنسا جنودا الى البر .. ولكن هذه الخطة لم تنفذ لان وزارة جامبيتا سقطت على غير توقع منه ، بسبب مسألة داخلية ..

لم يجنيا ثمرة مؤامرتهما !

والواقع أن هناك أكثر من مغزى يستمد من هذه المرحلة التاريخية : فلا ريب أن جامبيتا وجرانفيل ظنا أن النجاح قد دان لهما ، لان الاول حقق المذكرة التى كان يصبو اليها ، بينما فاز الثانى بالمعاهدة .. ولكن فرحتيهما لم تتما .. اذ أخفق جامبيتا ـ رغم كل ما بذل ـ فى حمل البرلمان الفرنسى على اقرار المعاهدة .. ومن ناحية أخرى ، تبين أنه بتلك المذكرة قد أعد سلاحا لم يقو على استغلاله ، بل انه خلال شهور ستة انتقل الى يد غريمه ، وان التدبير الودى ادى الى هدم كل شعور ودى بين فرنسا وانجلترا لجيل كامل تقريبا .. **وانكى مافى الامر ـ من وجهة نظرى ـ انهما من اجل مطامعهما وجشعهما قضيا على أمل قومى كبير ، وعطلا لسنوات عديدة اصلاح دين عظيم.. بل أن الفرصة الطيبة للاصلاح التى أضاعها السياسيان ، لايمكن ان تسنح مرة اخرى قبل نصف قرن !**

وكان وقع انذار جامبيتا على الحزب الوطنى بالقاهرة مدمرا لكل نية فى السلام .. ورجانى « ماليت » أن أقنع « عرابى » بأنه لم يكن انذارا بالمعنى المعروف ، بل كان ـ كما فهمته الحكومة البريطانية ـ يعنى أنها لن تسمح للسلطان بالتدخل فى شئون مصر ، ولن تدع الخديو يرجع فى وعوده ، أو يعتدى على البرلمان .. وأشار لى بأنه سيسعى للحصول على تفسير للمذكرة بهذا المعنى .. وانى لاعرف انه أبرق بالفعل وكتب محتجا ، ولكن شيئا من احتجاجاته لم ينشر فى الكتب الزرقاء التى أصدرتها الحكومة الانجليزية عن المسألة المصرية ، وان ظهر من تلك الكتب ان جرانفيل كان يميل الى اصدار تفسير فى الحدود التى ذكرها لى « ماليت » ، بيد أن جامبيتا منعه من ذلك !.

ووجدت عرابى وحيدا فى مكتبه بقصر النيل حين ذهبت اليه فى ٩ يناير .. وللمرة الاولى أراه محتدم الغضب .. وما أن أدليت اليه بتفسير ماليت ، حتى صاح : **« يظهر أن سير أدوارد ماليت يظننا أطفالا لا نفقه معنى الكلمات .. انها - قبل كل شىء - لهجة تهديد .. انها تهديد لحرياتنا ! »** .. وأشار الى ماورد من أن انجلترا مستعدة لغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ، فقال : **« دعهم يجيئون ، فان كل رجل وكل طفل فى مصر سيخرج ليقاتلهم .. ليس من مبادئنا أن نوجه اللطمة الاولى ، ولكنا سنعرف كيف نرد اللطمة ! »** .. أما عن ضمان عرش توفيق ، فقال : **« ان العرش - ان كان له وجود - ملك للسلطان ، فلا حاجة للخديو الى ضمانات أجنبية ! »**

والواقع أن تفسير « ماليت » كان هراء ، حتى أننى شعرت بخجل أذ حملت مثل هذا السخف .. وفى نهاية المقابلة خفف عرابى من حدته وهو يودعنى وقال ان لى أن أتردد على داره كما كنت أفعل من قبل ...

المحنة تضم صفوف المصريين !

ولكننى لم أره ثانية الا بعد ثلاثة أسابيع ، حين وصلت الى رسالة من جلادستون حرصت على ترجمتها له وكلى أمل فى أن تكون فاتحة خير وسلام .. ثم عدت الى ماليت فأكدت له ان المذكرة قد ألقت بالضباط فى أحضان السلطان ، وكذلك كان تأثيرها بالنسبة لجميع الوطنيين .. واذا كان جامبيتا قد توقع ان تعزز المذكرة مركز الخديو ، فانها فى الواقع سببت له رعبا ، فى حين أنها بدلا من أن ترهب الوطنيين أذكت سخطهم .. فألفى المصريون أنفسهم متحدين اتحادا تاما لأول مرة !.. حتى الشراكسة استنكروا التدخل الاجنبى ، فى حين أن الوطنيين الناقمين على الاتراك أخذوا يرون فى استناد عرابى الى السلطان حكمة .. ولم أعد أسمع من أصدقائى المصريين بعد ذلك سوى نغمة « الوحدة الاسلامية » ..

وكانت الاسابيع الثلاثة التى انقضت بين المذكرة وبين سقوط جامبيتا حافلة بالقلق والسخط ، لاسيما وان الانباء جاءت بأن قوة فرنسية كانت تتجمع فى طولون ، تأهبا لحركة مسلحة !

ولكن سقوط جامبيتا أنقذ مصر !

وفى كتابى القادم تقرأ معى القسم الثالث والاخير من هذا الكتاب ...

الحياة
قصة



روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء: جون جالزوورثى
- مرتفعات وذرنج: اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام: فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله: روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : اونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين: سنكليرلويس
- الشيطان على الارض: رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- تاييس : أناتول فرانس
- بلاد العميان : ه.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- الزوج والعشيق : موم
- البوهيمية : هنرى مرجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- الخوف : ستيفان زفايج
- شيرى : كوليت

واليوم أقدم لك القصة الخالدة العميقة «الجريمة والعقاب» لدستويفسكى


CRIME AND
PUNISHMENT
By
FEDOR
DOSTOIEFFSKY
دستويفسكى
الجريمة .. والعقاب !

الجزء الاول

◆ **فى** آحدى أمسيات يوليو الراكدة النسمات ، تسلل شاب من الدار التى كان يستأجر احدى غرفاتها - فى أحد شوارع « سانت بيترسبورج » - وهو يحمد للحظ أن مكنه من أن يتفادى صاحبة البيت ، التى كانت مبعث ذعر وهوان لكل ساكن يدين لها ببعض المال !

وما كان الفتى خائفا منها ، ولكنه كان قد استسلم منذ حوالى الشهر لأزمة عصبية بعثت فيه فتورا وزهدا ، ودفعته الى اعتزال الناس والانطواء على نفسه ٠٠ وكان الفقر قد أمضه زمنا ، ثم فقد حساسيته ازاءه ، وأعرض عن كافة الاعمال ٠٠

كان وسيما ، مليحا ، على وجهه طابع من الضيق بالحياة ٠٠ وكانت قامته تفوق المتوسط ، رفيعة ، مرهفة ، متناسقة ٠٠ وشعره كستنائيا داكنا ، وعيناه سوداوين ٠٠ وسار فى طريقه غير حافل بما حوله ، اذ كان فى شغل عن كل شيء بخطة راح يقلبها فى فكره ٠٠ وأحس بوهن ، فتذكر انه لم يأكل منذ يومين شيئا يذكر ٠٠ ومع ذلك فقد تحامل ماضيا فى طريقه ، ورأسه تموج بالافكار والاحلام المبهمة ، حتى بلغ مبنى ضخما مواجها للقناة - بمعزل عن الشارع - قد قسم الى حوانيت ومساكن حفلت بأصحاب الحرف والمهن جميعا ٠٠

واطمأن اذ لم يصادفه أحد من الحراس الثلاثة ، فمرق الى السلم الضيق المعتم ، وصعد حتى الطابق الرابع ، فاذا بحمالين ينقلون أثاث أحد المسكنين القائمين فى الطابق ، فتمتم لنفسه : « الآن ، لن يبقى في هذا الطابق سوى العجوز ! »

وما كانت تلك العجوز سوى مرابية استقبلته في توجس وحذر ٠٠ وراح الشاب يرقب كل شيء حوله فى مسكنها ، وكأنه يطبع صورته فى ذاكرته ٠٠ وقال للعجوز :

ـ أنا « راسكولنيكوف » الطالب ٠٠ جئت أرهن شيئا ٠٠

وقدم اليها ساعة فضية ، فقالت المرابية ـ « الينا ايفانوفنا » ـ انه لم يسدد قرضا سابقا فات موعده !٠٠ وراح الشاب يعدها بالسداد وهو يتأمل كالمأخوذ حركات تلك العجوز التى استغلت حاجته فبخسته ٠٠ وتناول « الروبل » والخمسة عشر « كوبك » التى قدمتها اليه مقابل الساعة ، ثم سألها متظاهرا بعدم الاكتراث :

ـ هل أنت دائما وحيدة ؟٠٠ ألا تأتى أختك ؟

ـ وما شأنك بأختى يا فتى ؟

وبادر بالانصراف الى حانة قريبة ، وهو فى شغل بالخطة التى كانت تراوده ٠٠ ولكن البيرة روحت عنه ، فخرج لاول مرة عن انطوائه وقد حن الى المجتمع الانسانى وصحبة البشر ، ورضى أن ينصت لحديث رجل تجاوز الخمسين من عمره ، بدا عليه أنه من طبقة الموظفين الحكوميين ، وانطلق الموظف الثمل يقول :

ـ من الصحيح يا سيدى ان الفقر ليس رذيلة ٠٠ ولكن ارتضاء الهوان رذيلة ٠٠ ولقد تكون فقيرا ولكنك تظل محتفظا بكبريائك الطبيعية ٠٠ أما اذا فرطت فى كرامتك ، فلن تجنى شيئا ، بل ان الذى يرتضي الهوان هو أول من يحتقر نفسه٠٠ ومن هنا تنشأ موارد الحانات ٠٠

وفى هذيان محموم ثمل ، مضى « مرملادوف » يروى كيف أن شغفه بالخمر جر على أسرته الفقر والمحن ٠٠ وكان قد تزوج من أرملة ذات ثلاثة أطفال ـ تدعى « كاترين ايفانوفنا » ـ وصفها بأنها سيدة مثقفة تعلوه قدرا ومقاما ، مما جعله يرى زواجه منها شرفا ٠٠ بيد أنه لم يحظ منها بما يشتهيه المرء

من زوجته ، فلجأ الى الخمر ، سيما وانه فصل من عمله ٠٠ ونزحت الاسرة الى العاصمة ، فحصل على عمل جديد ، ولكن الخمر ضيعته عليه ٠٠ وانكمشت الاسرة فى حجـرة حقيرة بمنزل « أماليا فيدروفنا ليبفتشزل » ، التى كانت تؤجـر دارها حجرات ٠٠ وفى تلك الاثناء ، أنشب السل مخالبه فى صدر زوجته ، فساءت طباعها ، واشتدت جرأتها عليه حتى انها كانت تشد شعره اذا عاد ثملا وتنهال عليه سبا ٠٠

وفى احدى الامسيات ، عاد ثملا فارتمى فى أحـد أركان الحجرة غائب الادراك ٠٠ وكان الضيق قد استفحل ، والاطفال الثلاثة يتضورون جوعا ٠٠ وسمع زوجته تنهال تقريعا عـلى « صوفيا سيمنوفنا » ـ أو « سونيا » كما كان يدللها ـ ابنته من زواج سابق ٠٠ كانت الفتاة قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، وقد حاولت احدى البغايا أن تغويها على استغلال شبابها وجمالها ، فأبت واعتزت بشرفها ٠٠ ولكن امرأة أبيها قست عليها فى تلك الليلة ، وراحت تقول لها : « ألا تخجلين من العيش دون عمل أيتها الكسول ؟٠٠ كل ما تهتمين به هو أن تأكلى وتشربى وتدفئى نفسك ٠٠ أتخالين هذا الشرف الذى تعتزين به كنزا غاليا ؟ »

وهبطت سونيا الى الطريق ٠٠ وعندما عادت ، وضعت على المائدة ثلاثين « روبل » دون أن تنبس ببنت شـفة ٠٠ ثم استلقت على فراشها ووجهها الى الحائط ، ولكن جسمها كان يرتعش ٠٠ « وكنت لا أزال مخمورا ٠٠ ولكننى رأيت كاترين ايفانوفنا تتحرك لتركع الى جوار سونيا فى صمت ٠٠ وظلت راكعة الليل طوله ، تقبل قدمى ابنتى ، وتأبى أن تبـارح مكانها ٠٠ وأخيرا نامت الاثنتان متعانقتين »

*

وأصبحت « سونيا » مومسا مسجلة لدى البوليس ، ممـا أحنق صاحبة البيت ، يؤازرها ساكن يدعى « ليبزيا تينكوف »

لم يتـــورع عن أن يضرب « كاترين » اذ انبرت للدفاع عن الفتاة ..

ووفق مرملادوف ـ وهو اسم الموظف السكير ـ الى عمل جديد ، لم يكد يتقاضى أول مرتب منه ، حتى أسلمه الى زوجته، ولكنه فى اليوم التالى سرق ما تبقى منه ، وهرب من المنزل.. وأنفق المبلغ كله فى الشراب خلال الايام الخمسة التالية .. « واليوم ، ذهبت الى سونيا فسألتها أن تعطينى ما أبتاع به شرابا .. فأعطتنى ثلاثين « روبية » كانت كل ما لديها ، رغم حاجتها الى شراء مساحيق تتجمل بها لاجتذاب الرجال ! »

وفرغ المخمور من قصته، وعندما آن لجليسه الشاب أن ينصرف رجاه « مرملادوف » أن يصـــحبه الى مسكنه .. واستقبلت الزوجة زوجها بأن جرته من شعره الى غرفة زرية كان أولادها الصغار يبكون فيها جوعا وخوفا .. وانتهز الشاب فرصـــة هرج السكان اذ أقبلوا يشاهدون ما كان يجرى للزوج ، فوضع على حافة النافذة جزءا مما تبقى معه من نقود ، وانصرف .. حتى اذا صار فى عرض الطريق ، ندم على ما فرط فيه من نقود كان فى حاجة اليها .. ثم تذكر أن ســـونيا قد لا تكسب للاسرة كثيرا وقد حرمت من مساحيق التجميل ، فقال لنفسه : **« آه .. لقد وجدوا فيها بقرة حلوبا .. لم يعـــد يمضهم ترديها .. انهم يذرفون دموع التماسيح فى البـــداية ، ثم لا يلبثون أن يألفوا الوضع .. هكذا الانسان ، جبان يستطيع أن يعتاد كل شيء !.. ولو لم يكن جبانا لداس كل خـــوف وتزمت يعترضان طريقه ! »**

*

◆ **اســـتيقظ** فتانا الطالب « روديا رومانـــوفيتش راسكولينكوف » فى الصباح التالى ، بعد نوم مضطرب ، ليجد طاهية المنزل « ناستسيا » قد أشفقت عليه ، فحملت اليه بعض

الشاى والحساء خلسة دون علم مخدومتها ، وأنبأته بأن هذه اعتزمت أن تشكو الى البوليس تقاعسه عن دفع أجر الغرفة٠٠ ثم أسلمته خطابا حمله البريد من أمه ٠٠

وفض الخطاب فى انفعال ٠٠ فاذا أمه تفيض فى وصف آلامها وأخته « دونيا » منذ فصل هو من الجامعة لضيق موارده ٠٠ ولم تكن لديهما حيلة ، فقد استدانت الام بضمان معاشها مبلغا أمدته به من قبل ٠٠ كما عملت « دونيا » كمربية ، واستدانت من مخدومها مائة روبل لتعين أخاها ٠٠ ثم راحت تحتمل القذى فى الخدمة ريثما تسد الدين ٠٠ ولكن مخدومها « سفيدريجايلوف » كان سكيرا راح يراودها عن نفسها ، حتى فاجأته زوجته ذات يوم ، فألقت اللوم على الفتاة وفصلتها ٠٠ ثم راحت تتهمها فى كل مكان بالفسق ، حتى ألبت أهل البلدة عليها !٠٠ بيد أن ضمير زوجها ما لبث أن استيقظ ، فأثبت لها براءة « دونيا » ٠٠ واستبشعت « مارفا بتروفنا » ما فعلت، فاستغفرت الفتاة ، ودارت على بيوت البلدة جميعا تطلع أهلها على دليل براءة « دونيا » ٠٠ واذ ذاك انهالت على الفتاة عروض الزواج ، فاختارت من الخطاب محاميا موسرا ناجحا فى الخامسة والاربعين يدعى « بيوتر لوشين » ، كان يمت بقرابة الى مخدومتها « مارفا »

ومضت الام فذكرت أن الخطيب فى طريقه الى العاصمة لبعض القضايا ، وانها و « دونيا » سترحلان معه فى نفس القطار ـ ولكن فى الدرجة الثالثة ـ وراحت تتوسل الى «روديا» أن لا يحكم عليه بمظهره الجاف المتعالى فينفر منه ، لا سيما وانه وعد بأن يتخذه سكرتيرا له ، كما أن « دونيا » تبنى آمالها على أن يستطيع شقيقها أن يتم دراسته القانونية ويصبح شريكا لزوجها المقبل ٠٠

وكانت لهجة الخطاب تشي ـ من خلال السطور ـ بأن « دونيا » لم تقبل هذا الخطيب المتقدم فى السن الا لتوفر

لاخيها الفرص فى الحياة ·· فأقسم أن يحول دون هذه التضحية ·· ولكن ، كيف ؟·· وماذا يملك أن يفعل ليغنى أسرته ونفسه عن هذا السبيل ؟

واتضحت خطوط الفكرة التى كانت تراوده منذ شهر ··!

كان « راسكولينكوف » يؤمن بالخرافات الى حد كبير ، وبأن ثمة شيئا غامضا يقوده الى مصير قدر عليه ·· ففى الشتاء الماضى ، أفضى اليه أحد زملائه بعنوان المرابية العجوز ليلجأ اليها عند الحاجة ·· وقد اضطر منذ ستة أسابيع الى أن يرهن لديها خاتمه الذهبى ، فاذا منظرها وجشعها يوحيان اليه بأن يمقتها ·· وقد لجأ حين بارح مسكنها يومئذ الى مطعم متواضع ، فاذا بطالب وضابط شاب – حول مائدة مجاورة – يتحدثان عنها ·· بالذات !·· وسمع الطالب يقول :

– هل أصارحك بما فى نفسى ؟·· لو استطعت أن أقتل هذه العجوز البغيضة وأستولى على كل مالها لفعلت بضمير مطمئن ·· اننى أمزح طبعا ، ولكن · ·هذه عجوز نخرة القلب ، مسممة العقل ، لا تعرف هى نفسها لماذا تعيش ·· وهناك قوى شابة تضيع بددا لانها لا تجد ما يقيم أودها ·· ان مائة ، بل ألف مشروع نافع يمكن أن تقام بالمال الذى أوصت به العجوز لاحد الاديرة من بعدها ·· عشر عائلات يمكن انقاذها من الجوع والمسغبة والجريمة بأموالها !·· نفس واحدة تموت ، فتوهب الحياة لمائة ·· ثم ·· كم بقى لهذه العجوز التعسة من عمر ؟!

وأثار هذا الحديث اضطراب راسكولينكوف ·· لماذا اختارته المصادفات من بين البشر طرا ليسمع هذا الحديث، رغم انه غير جدى ؟!

وفى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى ، كانت الخطة قد اكتملت فى رأسه ·· كل خط فيها سداه الحذر ولحمته

الحيطة .. وأحس بأنه كالآلة تسيره قوة خفية .. لم يصادفه أحـــد فى طريقه وهو يتسلل من غرفته .. وكان قد فكر فى أن يسرق من المطبخ بلطة ، ولكنه لمح « ناستسيا » ـ الطاهية التى كانت تعطف عليه ـ فأعرض في صمت وهبط الى الباب الخارجى ، فاذا غرفة البواب مفتوحة ، وقد ظهرت بلطة صغيرة بين كومة من الخشب .. وتلفت حوله فلم ير أحدا .. ونادى البواب فلم يتلق جوابا .. وأسرع فتناول البلطة وأخفاهـــا تحت سترته ، واندفع الى الطريق وهو يقول لنفسه : « ان للشيطان فى هذا يدا تفوق تدبيرى ! »

ولم يصادفه أحد عند المبنى الذى تقيم فيـــه العجوز .. وكان فى الطابق الثانى عاملان يطليان جدران مسكن أخلى حديثا ، ولكنهما لم يلمحاه .. **وكانت ثلاث ضربات بالبلطة كافية لان تقضى على العجوز ، وهى تفحص حلية قدمهـــا اليها بزعم أنه يريد رهنها !.. وحين همد جسمها بعد اختلاجة قصيرة ، استولى على كيسها.. وشرع يحشو جيوبه بالمصوغات والمجوهرات التى يزدحم بها درجها .. وفجأة ، أقبلت أختها على غير انتظار .. فلم يجد مفرا من الاجهاز عليها بدورها ، بنفس البلطة !**

واستبد به الفزع ، وأخذ يتأهب للفرار ، فدلف الى المطبخ حيث غسل يديه وسلاح البلطة ويدها الخشبية ، وأزال كل أثر للدماء .. وفيما هو يهم بالخروج ، ســـمع وقع قدمين تصعدان السلم ، فبادر ـ بالغريزة ـ الى احكام رتاج المسكن فى هدوء ، ووقف خلفه .. وسمع رنين الجرس ، فشـــد أعصابه وحبس أنفاسه وهو مرتاع .. وقبـــل أن ينصرف القادم يائسا ، أقبل شخص آخر .. كان الاثنان من عملاء العجوز .. ولما لم يتلقيا أى رد ، ارتابا فى الامر ، فهبطـــا يستدعيان البواب .. وعندئذ انفلت الشاب الى الســلم ..

وحين بلغ الطابق الثانى شعر بالطارقين يعودان الى الصعود ومعهما البواب ، فتلفت حـوله فى ذعر ·· وتبين أن عاملى الطلاء قد بارحا المسكن الخالى ، فلاذ به مختبئا ، حتى اذا جاوز الصاعدون الطابق ، تسلل وأسرع الى مسكنه ·· فرد البلطة الى غرفة البواب الذى لم يكن قد عاد بعد ، وهرع الى غرفته دون أن يصادف أحدا ·· وهناك تهالك على فراشه فى حال بين الغيبوبة والانتباه ، والافكار تتلاطم فى رأسه لا يكاد يميز منها فكرة واضحة !

الجزء الثانى

◆ **استيقظ** راسكولينكوف فى الساعة الثانيـــة صـــباحا ، مشتت الفكر ، مصدع الحواس ، يرتجف فى عنف ·· وتبين ان ثمة قطرات من دم كانت على طرف « بنطلونه » البالى ، فلم يتردد فى أن يقطع الطرف العتيق !·· ثم أخرج الاسلاب التى سرقها من جيوبه ، فخبأها فى ثغرة فى ركن من جدار الحجرة ، خلف الورق القديم الذى كان يكسوه ·· وتبين ان فكره قد تبلد ، فهتف فى يأس : « ترى هل بدأ القصاص ينزل بى ؟ » ·· وغلبه النوم ، فلم يستيقظ الا فى الساعة الحادية عشرة من النهار ، على طرقات عنيفة ·· وكانت « ناستسيا » قد خشيت أن يكون ألم به مكروه ·· ووجد البواب فى صحبتها يحمل اليه دعوة من البوليس ·· فبادر بالذهاب الى القسم والفزع يملك قلبه ·· وتمتم لنفسـه اذ ولج سـاحة البوليس : «سأركع أمامهم وأعترف» !

وكان رأسه يدور كالدوامة ·· وخامره شعور غريب ، أحس معه بأنه يفقد سيطرته على نفسه ·· وأقبل فى تلك الاثناء معاون القسم فرمقه فى ازدراء وسأله عن حاجته ، فقال رئيس الكتبة :

ـ انه مدعو لسؤاله عن نقود لم يسددها ··

ارتجف راسكولنيكوف ، ولكن من فرط الفرح ·· واستخفه أن أحس بالعبء ينزاح عن كتفيه ، فلم يتمالك ان اغلظ لمعاون القسـم القول حين أغاظته لهجته الجافة ·· ولكن رئيس الكتبة تدخل فشرح له أن صاحبة البيت تشكو تأخره عن دفع أجـرالغرفة ،وان عليه ان يكتب تعهدا بأن لا يبرح المدينة أو يتصرف فى شىء من متاعه حتى يوفيها حقها ، وأن يحدد موعدا للوفاء ··

واقبل فى تلك الاثناء ضابط منتفخ الاوداج ، لكنه طيب القلب ، فأحال راسكولنيكوف الى كاتب ليملى عليه صيغة التعهد .. وكانت أصابعه لا تكاد تقوى على الامساك بالقلم ، حتى أن الكاتب تفرس فيه ثم سأله : « أمريض أنت ؟ » .. فاعتذر بأنه يحس دوارا .. وفيما كان يوقع التعهد ، سمع الضابط يتناقش مع الكاتب حول مقتل المرابية العجوز ، اذ كان البوليس قد ألقى القبض على العميلين اللذين اكتشفا الحادث .. بيد ان المحقق لم يجد قرينة تدينهما ..

وخارت قوى راسكولينكوف .. وقبل ان يبلغ الباب منصرفا وقع مغشيا عليه .. فلما أفاق ، ألفى معاون القسم والضابط الى جانبيه .. وسأله المعاون فى جفاء عما اذا كان مريضا ، فقال الكاتب انه كان عاجزا عن أن يمسك بالقلم ، ثم سأله : « هل أنت مريض منذ زمن ؟ »

وأجاب الشاب : « منذ الأمس » .. فتفرس الكاتب فى وجهه وسأله : « وهل غادرت مسكنك بالأمس ؟ »

وعجب اذ أجاب الشاب بأنه خرج فى الثامنة مساء ، وهو مريض. وأخذ كاتب آخر يدعى « زاميتوف » يرمقه بنظرات فاحصة ، شحب لها لون راسكولنيكوف .. واذ ذاك صاح الضابط وهو يتبادل مع الكاتب نظـرة ألزمته الصمت : « انه لا يكاد يقوى على الوقوف .. دعه ينصرف ! »

❋

◆ وانصرف الشاب وهو موجس انهم قد ارتابوا فى أمره ، فبادر الى الاسلاب المسروقة يحشو بها جيوبه ، وانطلق الى طرقات المدينة .. وفكر فى أن يلقى بها فى القناة ، ولكن خياله اوحى اليه بأنها قد تطفو على سطح الماء .. ومضى يهيم فى المدينة حتى صادفته ساحة مهجورة ، حولها سياج مرتفع ، فدلف اليها ودفن الاسلاب فى أحد اركانها !

وما ان بارح المكان حتى بهت لما فعل .. أفهل ارتكب الجريمة المنكرة لينتهى الى هذا القرار ؟ .. وغشيه امتعاض من كل شىء .. ومقت لكل انسان .. !

ولم يفطن الى نفسه الا وهو أمام مسكن صديقه « ديمترى رازوميخن » .. وبهت الشاب اذ رأى مظهره وسمع منه حديثا لا معنى له ، كهرف المخبول ، فصاح به : « انك جد مريض .. ألا تحس بنفسك ؟ .. انك تهذى .. » ، وحاول أن يستبقيه ، ولكن راسكولينكوف انطلق منفعلا، وعاد يهيم فى الطرقات زائغ الوعى ، مضعضع الحواس .. حتى اذا بلغ مسكنه عند الغروب ، ارتمى على سريره وهو يرتعش ثم غاب فى بحران الحمى أربعة أيام ..

وحين أفاق وجد الى جواره « ناستسيا» و «رازوميخن» ، وغريبا حمل اليه خمسة وثلاثين روبل من أمه .. وراح صديقه يروى له كيف أنه لم يرتح بعد انصرافه ، فمضى يبحث عنه ، حتى تبين ان الكتبة فى قسم البوليس كانوا يعرفونه فأرشدوه الى مسكنه ..بل ان واحدامنهم - هوالمدعو « زاميتوف » حضر معه .. وأجفل راسكولنيكوف ، فسأله صديقه : « ماذا يزعجك ؟ .. لقد أراد زاميتوف أن يتعرف اليك لكثرة ما حدثته عنك .. فقد أصبحنا صديقين حميمين .. وقد انتقلت الى مسكن قريب .. »

ولم يكد راسكولينكوف يخلو الى نفسه ، حتى قفز من الفراش كالمجنون، لا يدرى من أمره سوى انه يريد الفرار الى آخر أطراف الارض .. ولكن الاعياء غلبه فنام .. ولم يستيقظ الا بعد ست ساعات، وقد عاد «رازوميخن» يحمل ثيابا مستعملة ابتاعها له ،ويصطحب صديقاطبيبا كان قدعاده من قبل .. واقترح «رازوميخن» أن يصطحبه معه الى مسكنه الجديد حيث دعا بعض الاصدقاء - وبينهم «زاميتوف» - الى جلسة لطيفة ، فسأله عما بينه وبين « زاميتوف » ، **فأجاب بأنه يستعين به لاخلاء سراح عامل من المشتغلين بالطلاء ، وجد معه قرط قال انه عثر عليه فى غرفة كان يطلى جدرانها بالمسكن الذى اغتيلت فيه المرابية العجوز ، فاتخذ البوليس هذا قرينة لالقاء الجريمة على عاتقه ..**

وفيما هم يتحدثون ، اقبل رجل فخم المظهر ، تطلع فى المكان بامتعاض ، ثم سأل عن « روديا رومانوفيتش راسكولينكوف ، الطالب .. أو الطالب سابقا » .. واشتد شحوب وجه الشاب ، وتولاه قلق منفعل .. ولم يكد يعرف ان القادم هو « لوشين » خطيب اخته ، حتى أغلظ له القول وطرده .. وجرفه الانفعال فطرد بدوره الطبيب « زوسيموف » الذى قال لرازوميخن ان ثمة أمرا يثقل على ذهن صاحبه ، فيحسن ان ينصرفا ، ثم أردف قائلا :

- لعلك لاحظت انه لم يكن يكترث لاى موضوع عدا موضوع واحد كان يثير انتباهه .. واعنى حادث القتل .. ان الامر يثير اهتمامى ، وقد أجد ما أحدثك به حين نلتقى الليلة !

*

◆ **وبادر** راسكولينكوف بعد انصرافهم الى ارتداء الثياب التى ابتاعها له رازوميخن ، وقد أحس بأن كل أثر للمرض زايله ، وانطلق يهيم فى الطرقات ، حتى انتهى الى مطعم ، فطلب قدحا من الشاى ، وسأل الخادم أن يحضر له الصحف ، ثم راح يبحث فيها عن أنباء الحادث .. واذا به يفاجأ بزاميتوف كاتب البوليس يقبل عليه فى ود ، ويحاول أن يجاذبه الحديث ..

وحاول الشاب أن يخفى اضطرابه ، ولكن كلامه بدا كالهذيان ، مما جعل الرجل يتفرس فيه ، ثم يقول : « ما أغربك .. انك لا تزال محموما .. تهذى ! »

وتطرق بهما الحديث الى الجريمة ، وكيف ان المجرم يفضح نفسه بتصرفات تافهة ينسى فيها الحذر ، فقال الشاب :

ـ أتريد ان تعرف كيف أتصرف لو كنت القاتل ؟ .. كنت أحمل الاسلاب ، وأهيم على غير هدى حتى أصادف حديقة أو ساحة ذات سياج ، فأودع الاشياء حفرة أغطيها بحجر كبير .. ثم أتركها سنة ، أو اثنتين ، أو ثلاثا قبل أن أعود اليها .. ما رأيك اذا كنت قتلت العجوز ؟

فتمتم زاميتوف مذهولا : « انك ولا بد مجنون .. أيمكن هذا ؟ »

ـ اذن لماذا كانت الاسئلة فى القسم ؟

وانصرف وهو يرتجف وقد طغى عليه انفعال جنونى .. بيد أنه صادف رازوميخن لدى الباب .. وحاول الشاب أن يعاتبه ، ولكنه صاح : « لقد سئمتكم جميعا .. ألا ترى اننى لا أريد كرمكم ؟ .. لماذا بحثت عنى فى بداية المرض وقد كنت أتقبل الموت راضيا ؟ .. انك تعذبنى .. تثيرنى ..دعنى وشأنى وأمسك عليك عطفك .. قد أكون عاقا ، أو جحودا ، أو وضيعا ، فدعنى لنفسى .. ! »

وعاد يهيم على وجهه ، وقد فاض به البرم بالحياة ، وبالكفاح .. وبرح به الضيق والتعب .. ولم يفطن الى نفسه الا وهو امام مسكن ضحيته .. وكان المسكن خاويا ، وقد انهمك عاملان فى طلاء جدرانه . وارتاب الرجلان وأزعجهما مظهره ، لا سيما حين زعم أنه جاء يستأجر المسكن ، فقال أحدهما «ان الناس لا تستأجر المساكن فى الليل .. لم لا تتصل بالبواب ؟ »

فلم يحفل ، بل تساءل ونظراته زائغة : «ارى الارض قد غسلت .. اين الدم .. دم العجوز واختها ؟ »

واستعان العاملان بالبواب الذى امسك بتلابيبه ودفعه الى الطريق .. فعاد من جديد يمشى على غير هدى ، واذا به يصادف «مرملادوف» وقد دهمته عربة وهو ثمل ، فاستصرخ الناس ليساعدوه على نقله الى مسكنه .. وتلقت «كاترين ايفانوفا» الصدمة فى جلد ، وبادرت الى اسعاف زوجها، بينما ارسل راسكولنيكوف فى طلب طبيب .. ولكن الطبيب لم ير أملا فى نجاته .. كان يحتضر .. واذ رأى ابنته « سونيا » تلج الغرفة ، راح يكافح ، فهرعت الفتاة اليه واحتضنته .. واذ ذاك ، اسلم الروح وهو يقول : «سونيا .. سامحينى يا ابنتى » !

واقبل الضابط الذى استجوب الشاب بالامس فى صدد الدين الذى فى ذمته لصاحبة البيت ، فعرف راسكولنيكوف وهتف : « أأنت هنا ؟.. انك مبلل بالدماء !» .. فقال راسكولنيكوف وفى عينيه نظرة غريبة : «اجل .. اننى غارق فى الدماء»

وبادر بالانصراف .. ولكن ابنة القتيل الصغرى لحقت به قائلة أن « سونيا » تسأله اسمه وعنوانه .. فذكرهما لها .. وأسرع الى الطريق . ولم يكن قد بقى معه من المبلغ الذى تلقاه من امه سوى خمسة روبلات ، اذ ترك عشرين روبية فى مسكن المتوفى« مرملادوف » .

وغشيه شعور غريب .. داخلته فجأة ثقة بنفسه ، واعتداد .. وبعد ان كان يضيق بالحياة ويفكر فى الانتحار ، احس برغبة فى ان يعيش .. وراح يتمتم لنفسه : «اليك عنى ايتها الاشباح والرؤى .. أولم تفارقنى حياتى اذ قضيت على حياة المرأة العجوز ؟ .. ليكن لها السلام والطمأنينة.. والآن ، يبدأ عهد العقل والنور ، والعزيمة ، والقوة ».. ولكى يثبت لنفسه هذا ، سار الى مسكن رازوميخن ، لينضم الى الرفاق الذين كانوا مدعوين ، والذين رفض من قبل أن يكون بينهم ..

ورافقه رازوميخن فى عودته الى داره .. وفى الطريق قال له :

ـ أوتدرى بم همس لى زوسيموف ونحن نهم بالخروج ؟.. لقد قال انه يخشى أن تكون قد جننت أو أوشكت .. وقد أوحى اليه حديثك مع « زاميتوف » بأنك أصبت بخبل.. وقد بدأت وزاميتوف نفهمك على حقيقتك ، فان ما حام حولك .. تلك القصة لم يقدر لها أن تعيش طويلا ، لاسيما بعد أن قبضوا على عامل الطلاء .. لقد علل زوسيموف اغماءك فى القسم بأن الحمى كانت تدب فى جسدك منذ شهر .. ولقد أزعجت زاميتوف اليوم بالهراء الذى قلته ، ولكنه أدرك أنك كنت تسخر منه ..

ـ اسمع يارازوميخن .. لقد كنت منذ برهة فى حكم الميت ، حتى اننى تخلصت، من كل مامعى من نقود .. ثم رأيت مخلوقة أظهرت بعض اكتراث بى .. ولكن ، أمسكنى فاننى أوشك أن أقع .. ما هذا ؟ . ألا ترى فى حجرتى نورا ؟

ولكن خوفه زال حين ألفى أمه واخته فى انتظاره فى الحجرة ، وهما فى أقصى حالات القلق لطول غيابه ..

الجزء الثالث

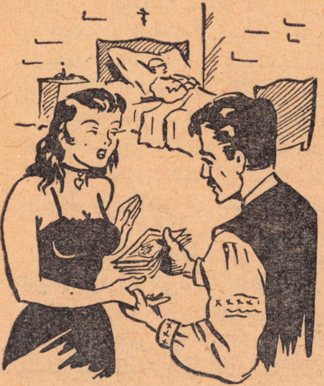
لم يكد راسكولنيكوف يرى أمه وشقيقته حتى جمد فى مكانه وثلجت أطرافه .. واندفعتا نحوه تقبلانه ، ولكنه هوى مغشيا عليه ، فبادر رازوميخن الى اسعافه وهويطمئنهما .. وما أن أفاق راسكولنيكوف ، حتى أمسك بيدى أمه وأخته ، وراح يحدق فيهما بأسى وشجن ، ثم هتف : « اذهبا الان الى المسكن المؤجر لكما .. اذهبا ولا تعذبانى .. »

وافضى اليهما بما فعله بلوشين ، ورجا أخته بأن تتحلل من خطوبتها .. وبين ذهول أمه ، ودهشة أخته ، مضى يقول : « هل تظنين اننى أهذى ؟.. انك ستتزوجين من لوشين من أجلى .. لكنى لن أقبل هذه التضحية .. ان هذا الزواج سيكون عارا .. ليس ثمة مبرر .. ومهما كنت تعسا ، فاننى سأبرأ منك لو عقدت مثل هذا الزواج ! »

وراح رازوميخن يذكر للمرأتين المشدوهتين أن المرض قد أصاب راسكولنيكوف بخبال .. وأصر على أن تنصرفا ، ورافقهما الى المسكن الذى استأجره لهما ، وهو يؤكد لهما أنه لن يلبث أن يأتيه بالطبيب .. وما كادتا تستقران فى المسكن ، حتى غادرهما رازوميخن ، ثم عاد مصطحبا زوسيموف الذى راح يطمئنهما على صحة عزيزهما« روديا » - كما كانتا تدللان راسكولنيكوف - قائلا انه يعزو مرضه الى أسباب عقلية نشأت عن عوامل جسدية ونفسية : كالافراط فى التفكير ، والحذر ، والقلق ، والاضطراب ، والتخوف .. وأعرب فى سياق الحديث عن انه يعتقد أن راسكولنيكوف مصاب بخبل من أجل أمر معين بالذات .. وهو نوع من الامراض العقلية كان زوسيموف معنيابدراسته اذ ذاك ..

وقضى رازوميخن وزوسيموف ليلتهما على مقربة من راسكولنيكوف .. فلما استيقظا فى الصباح ، وجداه لا يزال فى سبات عميق ، نصح الطبيب بأن لا يزعج منه .. ومن ثم خف رازوميخن الى مسكن أم صديقه وشقيقته ، فتناول معهما طعام الافطار وراح يحدثهما عن روديا وظروف حياته، وكيف بدا فى الفترة الأخيرة كثير الوساوس والهواجس .. وكان خلال الحديث يحس باعجابه يزداد بدونيا - شقيقة روديا - وانتبه فجأة الى « بولتشيريا الكسندروفنا » ، أم صديقه وهى تتحدث عن ابنها قائلة :

- انك لا تستطيع أن تتصور كيف كان فى صغره غريب الأطوار ، متقلب الميول .. ولقد كانت أخلاقه وهو فى الخامسة عشرة مصدر دهشة مستمرة لى .. بل اننى لا أزال اعتقده قادرا على أن يأتى من الأمور ما لا يخطر لأحد !



وتطرق بهم الكلام الى لوشين ، فاذا السيدة تصارح صديق ابنهـا بأن لوشين أرسل لهما خادمــه بالأمس يستقبلهما عند وصولهما بدلا منه ، كما بعث اليها فى الصباح رسالة يعتذر بأنه لن يستطيع أن يزورها وابنتهـا قبل الثامنة مساء ، ويرجو أن لا يجد « روديا » والا انسحب فورا ، لا سيما وانه رآه بالامس فى مسكن سـكير دهمته عربة ، ولمحه يدس فى يد ابنة السـكير المحتضر ـ وهى من ذوات السمعة السيئة ـ نقودا !

واقترحت «دونيا» أن يذهبوا ليعودوا اخاها .. ووجدوه مرتديا ثيـابه ، وقد انهمك فى تمشيط شعره ،وكان قد سبقهم الى مسكنه الطبيب زوسيموف ، الذى لاحظ ان مريضه لم يستقبلهم بابتهاج ، وانما يتجلـد ، كمن يستجمع صبره ليحتمل عذابا موقوتا لا مفر منه .. وبدأ يتحدث الى راسكولنيكوف قائلا : « أحب أن أقنعك بأن من المهم أن تمحو الاسباب الاولية التى ترتب عليها مرضك ، حتى تشفى .. والا استفحل المرض .. وهذه الاسباب غامضة بالنسبة لى ، ولكنها ولا بد معروفة لديك .. اننى أعتقد ان صحتك بدأت تسوء مذ تركت الكلية .. وخير ما ينبغى أن تفعله هو أن تشغل نفسك بهدف تسعى اليه »

وغالب نفسه وهو يستمع الى المريض يقول : « هبو ذلك .. لسوف أستأنف دراستى الجامعية فى أقرب فرصة ، واذ ذاك يزول كل شىء .. انما يحيرنى اهتمامك بى .. بل ان كرمك يضايقنى لأننى لا أرى له مبررا ! »

وتحول يعتذر لرازوميخن عن غلطته معه بالامس ، ويعتذر لأمه وأخته عما سببه لهما من انزعاج ، وعن تلكئه فى أن يخف الى مسكنهما فى الصباح، فلقد فطن الى آثار دم مسكين دهمتهعربة بالأمس ، فعهد الى « ناستسيا » بغسلها ، وكأنما ذكره ذلك بالنقود التى تركها لاسرة الرجل ، فاعتذر لأمه عن سوء تصرفه فيما أرسلته له من نقود ..

وينتقل بهم الحديث الى ابنة لصاحبة البيت ، توفيت منذ شهور .. وكان راسكولنيكوف قد أحبها وأراد أن يتزوجها .. وقالت أمه على حين

غرة : « أعتقد ان لهذا أثرا كبيرا فى الوساوس التى تنتابك »

فهتف : « أجل .. ليتك تعرفين يا أمـــاه .. ما أغرب الفكرة التى أوحتها كلماتك ! » .. والتفت الى أخته فجأة وقال : « أرى من واجبى يادونيا أن أذكرك بأننى لا أزال أخيرك بينى وبين لوشين »

وعبثا حاولت الفتاة أن تنكر التضحية التى أحس بها .. وعرضت عليه خطاب لوشين ، ثم قالت : « اننى أرى حضورك فى هذا المساء أمرا لا غنى عنه ، وأتوسل اليك أن تحضر » .. واذ وعدها ، التفتت الى رازوميخن ، ورجته هو الآخر أن يحضر الاجتماع ..

*

وفى تلك اللحظة أقبلت « سونيا مرملادوف » .. ودهش راسكولنيكوف لمقدمها وتولاه شىء من الحرج .. وبدت الفتاة مرتبكة ، مرتجفة ، وذكرت له أنها موفدة من « كاترين ايفانوفنا » تسأله ان يحضر قداس الجنازة فى الغد ، اذ ليس لها من أحد فى الدنيا ، وهى تعتمد عليه وتثق فيه .. كما تشكر له المنحة التى جاد بها بالأمس ..

وراح راسكولنيكوف يتأملها وهى تتكلم .. لم تكن بالجميلة ، ولكن عينيها كانتا تشعان رقة ولطفا يجذبان القلب . وكانت الفتاة قد بهتت مذ رأت مظهر الفقر الذى كان يسود المكان ، فتمتمت بصوت خفيض : « ما أراك الا حرمت نفسك من كل شىء بالأمس لتجود علينا بتلك المنحة ! »

وانصرفت أم الشاب وأخته .. وعندما عاد بعد أن ودعهمـــا ، عجبت «سونيا» اذ رأت وجهه قد أشرق فجأة . واستعاد هو فى ذهنه ما كان قد سمعه من مرملادوف عنها .. وفجأة ، التفت الى صديقه رازوميخن قائلا : « أتعرف بورفيريس بتروفيتش ، رئيس المباحث ؟ .. أظنـك أخبرتنى بأنه يفحص حالات الاشخاص الذين كانوا يقترضون من العجوز لقاء رهن .. ولقد رهنت لديها خاتما كانت أختى أهدتنيه ، وساعة كانت لأبى .. وأحب أن أستردهما .. لا لقيمتهما المادية ، وانما .. لانهما عزيزان »

وتطوع رازوميخن لأن يصحبه الى رئيس المبـــاحث ، عقب انصراف «سونيا» .. ومضى فى الطريق يحدثه عن براعة الرجل فى عمله ، ثم ذكر أنه كان بين ضيوفه ليلة أمس ، وكان تواقا لأن يتعـــرف براسكولنيكوف لطول ما تحدث عنه .. وتولى الشاب انفعال راح يبذل جهدا جبارا ليتغلب عليه .. وضاعف من اضطرابه أنه لم يكد يستقر وصديقـــه فى مكتب « بورفيريس » ، حتى أقبل « زاميتوف » ..

ولكنه تمالك نفسه .. وأجلسه رئيس المباحث الى جـــواره ، فتجلد ومضى فى كلمات واضحة يذكر له الرهنين ، والظروف التى اضطرته لارتهانهما .. ورازوميخن يرقبهما وينصت فى اهتمام .. ثم سأله صديقه فجأة :

« أهذا سر استيائك بالأمس حين سمعت نبأ فحص حالات الذين كانوا يعاملون المرابية العجوز ؟ »

وتولى راسكولنيكوف غضب شديد ، ولكنه أدرك خطورة الموقف فقال : « لا تسخر منى .. ولكن الساعة كانت لأبى ، وقد زارتنى أمى أخيرا .. ولو عرفت انها لم تعد فى حوزتى لاستاءت »

فقال « بورفيريس » : « أتعرف أننى كنت أتوقع زيارتك ؟ »

وأجفل راسكولنيكوف ، ولكن الرجل كان مشغولا بتقديم منفضة الى رازوميخن ليلقى فيه برماد سيجارته .. ثم التفت الى راسكولنيكوف قائلا : «لقد وجد خاتمك وساعتك فى مسكنها .. ولكنك تأخرت كثيرا فى الحضور .. ! »

ـ لقد كنت متوعكا ..

ـ سمعت هذا .. بل انك لتبدو شاحبا ..

فصاح الشاب فى عنف : « لا .. لست شاحبا .. »

ومضى رازوميخن يروى قصة مرض صديقه ، وعناية زوسيموف به .. وتطرق الحديث الى موضوع كان بروفيريس ورازوميخن وزاميتوف يتناقشون فيه بالامس ، فرأوا أن يحتكموا بشأنه الى راسكولنيكوف : « ان الجريمة نوع من الاحتجاج على سوء تنظيم المجتمع .. وكان من رأى بروفيريس وزاميتوف أن « المرء مسوق الى الجريمة نتيجة تأثير من بيئته لا يقوى على مقاومته » .. وذكر رئيس المباحث أنه قرأ منذ شهرين مقالا لراسكولنيكوف عن « الجريمة » فى احدى الصحف ..

وأجفل الشاب .. كان المقال قد نشر قبل ستة شهور فى الواقع تحت الحرفين الأولين من اسمه ، فأدرك ان رئيس المباحث كان ولا بد ينقب وراءه ، ومعنى ذلك أن ثمة شبهات تحوم حوله !

وتمالك راسكولنيكوف نفسه وشرع يبين أن مقاله كان يدور حول الحالة النفسية للمجرم أثناء ارتكابه الجريمة .. ومضى يقول : **« وأذكر اننى قلت أن للشخص ذى المواهب الفذة ، الحق ـ بصفة غير رسمية طبعا ـ فى أن يسمح لضميره بأن يتجاوز بعض الحدود ، اذا كان تحقيق رأى من آرائه يتطلب ذلك .. ومثل هذا قد يكون لخير البشرية أحيانا .. فلو افترضنا أن بعض الاكتشافات ـ كنظريات نيوتن ـ ما كانت لتظهر دون تضحية واحد ، أو عشرة ، أو مائة ، أو أكثر ، من العوائق الآدمية ، لحق لنيوتن أن يتخلص من هذا العدد من الناس لتطبق اكتشافاته الآفاق .. كذلك أذكر اننى قلت ان جميع أصحاب الشرائع فى التاريخ كانوا فى حكم المجرمين ، اذ كان من الطبيعى أن يخرقوا القوانين التى كان يلتزمها المجتمع وهم يبشرون**

بقوانين جديدة .. بل ان منهم من لم يتردد فى اراقة الدماء ، حين رأى لذلك جدوى ، مثل نابليون .. ومن ثم فالنوابغ القادرون على استحداث كل جديد ، لا بد أن يكونوا - بفضل القوة الكامنة فى أعماقهم - مجرمين .. والا لعجزوا عن أن يحرروا أنفسهم من قيود المجتمع وأن يبشروا برسالتهم ! »

واستطاع روديا أن يتفادى الشراك التى كان بروفيريس ينصبها له خلال الحديث .. وعبثا حاول رازوميخن - بعد انصرافهما - أن يقنع صديقه بأنه واهم فيما خال من أن بروفيريس وزاميتوف يرتابان فى أن له علاقة بمقتل المرابية العجوز .. وقال فى النهاية :« ان بروفيريس من أقاربى ، وسأبذل جهدى لاجلو سريرته .. »

*

◆ **وعاد** راسكولنيكوف الى حجرته ، وهو يشعر بأن قواه تفارقه .. وراح يحدث نفسه متخبطا: « كان يجب ان أتوقع كل شىء .. ان أصحاب العبقرية لم يخلقوا عباقرة ، وانما صنعوا عبقريتهم بأنفسهم .. أمثال ذلك الذى ضرب طولون ، وأجرى المذابح فى باريس ، وترك جيشا فى مصر ، وتخلص من نصف مليون نسمة فى حملته على موسكو .. ولكن، هل كان نابليون يسمح لنفسه بأن يزحف تحت سرير مرابية عجوز بحثا عن نفائسها ؟ .. **على ان العجوز نفسها لم تكن ذات قيمة .. وانما أنا قتلت فيها مبدأ ! .. كنت أرجو أن أعيش ، ولم تكن بى رغبة فى أن أهمل أما تتضور جوعا .. فأردت أن أضع لبنة فى سعادة البشر - وهذا يكفى لارضاء ضميرى! - ولكن ، احقا كان ذلك .. أم اننى كنت أسعى لانال نصيبى من السعادة ، فحسب ؟ .. ما أنا الا حشرة من هوام الارض .. دودة أكثر خسة ودناءة من تلك التى قتلتها ! »**

وانطلق يهيم فى بحران من الافكار ، والهواجس ، والرؤى والمناظر .. وهبط المساء وهو يتخبط فى دياجير وساوسه .. وفجأة ، رأى رجلا غريبا يلج الغرفة ، فانتصب جالسا ، وسأله : « ماذا تريد ؟ »

وكان القادم « أركاديوس ايفانوفيتش سفيدريجايلوف» ..

الجزء الرابع

◆ **اشاح** راسكولنيكوف عن زائره فى جفوة ، اذ عرف فيه ذلك السيد الذى راود أخته عن نفسها حين عملت مربية لديه .. لكن الرجل انطلق يدافع عن نفسه بأنه بشر ، وبأن للفتاة سحرا لم يقو على مقاومته .. وان التحقيق فى مصرع زوجته أثبت انها لم تمت نتيجة ضربه لها .. وتحول بعد ذلك يتحدث عن خطوبة «دونيا» الى « لوشين » قائلا : « هذا المستر لوشين من أقرباء زوجتى .. وهو ليس بالكفء لدونيا .. وفى رأيى ان

أختك تضحى بنفسها ـ فى حماقة وغير ما أنانية ـ من أجل أسرتها ٠٠ ولقد خيل الى مما عرفته عنك انك تغدو سعيداً لو عرقلت هـذا الزواج ، اذا رأيت فى ذلك مصلحة أختك ٠٠ »

ومضى الزائر يؤكد أنه لم يكن يقول ذلك لغرض خاص ، اذ أنه لم يعد أسير هوى الفتاة ، وانما لانه ـ وقد شرع يتهيأ لرحلة طويلة ـ أراد أن يصلح خطأ كانت زوجته الساعية فيه دون ان تدرى عواقبه ، كما أنه شاء أن يستغفر دونيا عن كل ما عانت من منغصات بسببه ، وان يقدم لها عشرة آلاف روبل كتعويض يريح ضميره ، قائلا لشقيقها : « صدقنى اذا قلت اننى بعيد عن الانانية ٠٠ ثم اننى قد أتزوج عما قريب من فتاة أخرى ، ولذلك فلا مجال للاشتباه فى اننى أريد التأثيرعلى « دونيا » ٠٠ ! »

والى جانب الروبلات العشرة آلاف ، كانت زوجته «مارفا بتروفنا» قد أوصت للفتاة بثلاثة آلاف أخرى ٠٠ !

وبينما كان «سفيدريجايلوف» منصرفا ، أقبل « رازوميخن» فتطوع لمرافقة صديقه روديا لزيارة أمه وأخته ٠٠ وأخبره فى الطريق بأنه تحـدث الى «بورفيريس» بصدده ٠٠

وكانت الساعة الثامنة حين بلغا النزل ، فاذا بهما يلتقيان بلوشين هناك ٠٠ واقتصر الحديث فى البداية على لوشين وخطيبته وأمها ، ثم تطرق بهم الى ذكر « سفيدريجايلوف » ، واذ ذاك انطلق لوشين يصفه بكل نقيصة ومذمة ٠٠ وهنا ألقى راسكولينكوف بنبأ منحته السخية ٠٠ وبهت لوشين ، ثم حاول أن ينسحب ، ولكن «دونيا» جرته الى الحديث عن الخطاب الذى اشترط فيه ان لا يحضر أخوها هذا اللقاء ، حتى اذا احتد وانفعل ، صاحت أم الفتاة ـ بولتشيريا الكسندروفنا ـ « أراك تظن نفسك السيد المطلق هنا!؟»

ـ لست على صواب فى هذا ، لا سيما وقد علمت بما أوصت به مارفا بتروفنا لابنتك ٠٠

فصاحت دونيا : « كأنى بك كنت تستغل فقرنا ! ٠٠ أخرج من هذه الحجرة يابيتر بتروفيتش !٠٠ اننى لا أريد أن أراك هنا ثانية !»

وانصرف لوشين مدحورا ، وهو يرتجف غضبا ٠٠

وساد الابتهاج الجميع بعد ذلك عدا «دونيا» التى شحب وجهها، وعبست أساريرها ٠٠ وكان قلب «رازوميخن» يرقص فى صدره طربا ، لكنه سيطر على عواطفه ٠٠ واذ انجابت سحابة الانفعال عن الحضور ، ذكر ان له عما يضع تحت تصرفه ألف روبل ليبدأ بها مشروعا ، فاقترح ان تساهم الاسرة بألف أخرى ، فينشئون مشروعا لنشر الكتب يتفرغ له هو وروديا ودونيا ٠٠ فتحمس الشاب وأخته للفكرة ٠٠ وفجأة ، نهض روديا متهيئا للانصراف

أثناء الحديث ، وقد بدا عليه تغيرغريب ٠٠ واذ تساءلت أمه وأخته وصديقه عن سر هذا الانصراف ، قال وعلى شفتيه ابتسامة غريبة :

ـ قد تكون هذه آخر مرة نجتمع فيها معا ٠٠ من يدرى ؟ ٠٠ لقد جئت وبى رغبة لان أقول لكم أنه قد يكون من المستحسن ان نفترق فترة من الزمن، فأنا لست فى حالة طيبة ، وفى أشد الحاجة الى الراحة.. ولسوف أعود عندما يقدر لى أن أعود ٠٠ على اننى لن أنساكم بل سأظل أحبكم أبدا ٠٠ فدعونى وشأنى مهما أصابنى ٠٠ أتوسل اليكم أن تنسونى ، ولا تتحروا عنى ٠٠ وعندما تكون ثمة ضرورة ، فسأعود اليكم من تلقاء نفسى ٠٠ أو أرسل فى طلبكم ٠٠ اذا كنتم تحبوننى حقا فلاتسعوا ورائى ، والا فسوف أكرهكم !»

وبهتت أمه وأخته، ثم طفقتا تستعطفانه وتتوسلان اليه ، ولكنه بدا كالمأخوذ الذى ينطق بحديث لا يعيه ٠٠ واندفعمغادرا المكان ، غير انه انتبه الى أن «رازوميخن » يتبعه ، فارتد اليه قائلا : « عد اليهما ٠٠ لا تتركهما !٠٠ أمكث معهما دائما ، ولو ٠٠ لو استطعت فسوف أعود ! »

وكان يقفان على مقربة من مصباح فى ردهة معتمة ، جامدين ،وقد حدق كل منهما فى الآخر لحظة ٠٠ وفى هذه اللحظة استعرض رازوميخن كل ماضيه ٠٠ وبدت له نظرة صديقه كشعاع يتغلغل فى أعماقه ٠٠ وفجأة ، ارتجف، وعراه شحوب أحاله الى هيئة الموتى ، اذ أومض بريق الحقيقة فى ذهنه ٠٠

وفجأة ، سأله راسكولينكوف : « هل فهمتنى الآن ؟ »

واستدار ٠٠ وفى خطى سريعة غادر المنزل ٠٠ !

*

◆ **يمم راسكولنيكوف من فوره الى حيث كانت تقيم «سونيا» ، وابتدرها** بقوله : « اننى هنا للمرة الاخيرة ٠٠ وقد لا أراك بعد ذلك أبدا ! »

ـ ماذا ٠٠ أراحل أنت ؟

ـ لست أدرى ٠٠ غدا ٠٠ كل شىء محتمل ٠٠ وانما جئت لاقول لك كلمة : ماذا قررت لنفسك ؟ ٠٠ أعرف ان أمك واخوتك يعتمدون عليك !؟

ـ لا تقل هذا٠٠اننا نتشاطر كيسا واحدا٠٠ثم ، ماذا ترى أمى مستطيعة أن تفعل ؟٠٠ آه ، لو رأيت كيف بكت المسكينة !٠٠ ثم لو سمعتها تتكلم عن آمالها ٠٠ انها تقول انها ستنشىء مدرسة داخلية لبنات الاسرات فى مسقط رأسها، تعهد الى بادارة شئون نزيلاتها..وآه لو سمعتها تتحدث عن أملها فيك ٠٠ وأنت ! ٠٠ ألم تشفق عليها فتحرم نفسك من آخر ما كان معك من نقود ، مع انك لم تر الا القليل من خصالها وأحوالها ؟

ـ ان أمك فى آخر مراحل السل ، ولن تلبث أن تموت قريبا ٠٠

فصاحت الفتاة دون أن تعى : « لا ٠٠لا ٠٠ لا ! »



ـ حسنا ‥ هبى انها عاشت ، وانك أصبت بمرض ، ونقلت الى مستشفى ‥ ما الذى يجرى للاسرة ؟ ‥ ان كاترين لابد أن تنهار فى ظرف كهذا ، فماذا يحيق بالاطفال ؟ ‥ ان الاحتياط الوحيد هو أن تدخرى شيئا من المال ‥

ـ مستحيل ‥ لقد حاولت ‥ وأخفقت ‥

واقترب منها فجأة دون أن تفطن ‥ وأومضت عيناه ‥ وارتعشت شفتاه ‥ وعلى حين غرة ، انحنى فقبل قدمها ‥ وأجفلت الفتاة وقد اعتراها الخوف ، وكأنها ازاء رجل مجنون ‥ فقال :

ـ اننى لم أركع لك شخصيا ‥ وانما للانسانية المعذبة فى شخصك ‥ انك ولا شك قد ترديت ، ولكنك لم تفعلى ذلك الا لانك ضحيت بنفسك لغير ما غرض ‥ حدثينى ، كيف تحتملين هذا العار ، ولك نفس مرهفة ! ‥ لخير لك ألف مرة أن تغرقى نفسك وتضعى حدا لهذه الحياة ؟

فقالت فى وهن وهى تتطلع اليه فى ذهول ، وان بدت نظراتها حالمة ، طاهرة ، كنظرات الشهداء :

ـ و هم ؟ ‥ ماذا يصيبهم ؟

وتأملها فى فضول ‥ لقد رأى فى سونيا ظاهرة غير عادية فى المجتمع : فان الرذيلة لم تفسد نفسها وتفكيرها ، وان دنست جسدها ! ‥ ولم يزده هذا سوى عجبا من احتمالها حياة الوحل التى تتمرغ فيها ! ‥ وخيل اليه انها ولابد مجنونة ! ‥ وفجأة ، لمح نسخة من الانجيل فسار الى حيث كانت ، وتناولها ، ثم سألها : « من أين لك هذه ؟ »

وشد ما كانت دهشته اذ عرف ان « ليزافيتا » ـ أخت المرابية التى قتلت معها ـ كانت قد أعارتها هذه النسخة ‥ وانها كانت تتردد عليها لتقرءا معا فيها !

وسألها ان تقرأ له فى الانجيل قصة « لعازر » ، وكيف بعث على يدى المسيح ‥ وترددت الفتاة برهة ‥ كانت تدرك انه لم يكن يؤمن بالله ‥

ولكنه الحف فى رجائه ·· وفى صوت متهدج ، مضت تقرأ له ·· وأرتجفت وهى تقرأ كيف بلغ المسيح قبر « لعازر » ، فقالت له أخته ان أربعة أيام انقضت منذ وفاته ، ولابد ان التلف قد دب الى جسده ، فقال لها : « ألم أقل لك انك اذا آمنت فسوف ترين مجد الله ؟ » ·· واذ انتهت «سونيا» من القراءة ، سادهما الصمت ·· وكانت الشمعة تحتضر ، فتحتضر معها ذؤابة النور التى كانت تضىء تلك الحجرة التى ضمت قاتلا ، ومومسا ، والكتاب المقدس !

وفجأة ، شرع راسكولنيكوف يروى لسونيا كيف قطع علاقاته بأسرته ، واستطرد قائلا : « أنت كل من تبقى لى الآن·· فلنرحل سويا··لقد جئت لاقترح هذا ·· لنرحل سويا ما دامت لنقمة قد حلت بكلينا ! »

وخيل اليها انه مجنون ، ولكنها سألته : « والى أين ؟ »

ـ لست أدرى ·· كل الذى أدريه ان هدفى وهدفك واحد ·· لن يفهمك أحد·· أما أنا ، فقد فهمتك ·· ألم تتصرفى كما تصرفت ؟·· لقد بعت جسدك ، فقضيت على حياة ·· حياتك !·· كان بوسعك أن تعيشى بمواهبك ·· وبادراكك ·· أما الآن ، فستموتين فى أحدالاماكن العامة ·· ولكنك لاتطيقين التفكير فى هذا ، ولو بقيت وحيدة فسوف تحاجين نفسك كما أفعل ·· بل انك لتبدين الآن علىشىء منالخبل ·· ومن ثم يجب أننمضى معا ، نتبع طريقا واحدا : الحرية ، والقوة··القوة قبل كلشىء !·· السمو فوق كل المخلوقات الهيابة المرتجفة ·· هذا هو الهدف ! ·· ربما كنت أكلمك للمرة الاخيرة··على أننى اذا قدرلىأن آتىغدا ، فسأنبئكباسم منقتل ليزافيتا·· سأصارحك به ·· انت وحدك ·· وعلى انفراد !·· لقد اخترتك ، وسآتى، لا لأسأل الصفح ، وانما لأكشف السر··لقد اخترتك مذ حدثنى أبوك عنك··

❃

◆ فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، ذهب راسكولنيكوف الى «بوريفيريس» فى مكتبه · واضطر الى أن ينتظر طويلا قبل أن يسمح له بالدخول ، الامر الذى أثاره وجعله يشعر نحو الرجل بالمقت والانفعال !

وبادر الرجل الى اغلاق باب مكتبه على اثر دخول الشاب ·· وانطلق هذا يقول انه أدرك بالامس ان «بوريفيريس» كان يريد أن يوجه اليه أسئلة فى تحقيق رسمى عن معاملاته مع المرابية العجوز ، فجاء يضع نفسه تحت تصرفه ·· ولكن الرجل راح يثرثر فى موضوعات تافهة ، مما أغاظ الشاب فقال له « أصحيح ان ثمة عرفا قضائيا يتبعه كل المحققين ·· فيبدأ الواحد منهم بأحاديث تافهة ، أو ـ أحيانا ـ بموضوعات هامة بعيدة عن المسألة

الاصلية ، ليشغل بال الشخص الذى يجرى التحقيق معه ، أو يهدىء شكوكه ، ثم ينقض عليه فجأة بالسؤال الرئيسى ، كما لو كان يوجه اليه ضربة قاضية بين عينيه !؟ »

وانطلق الرجل يقهقه بشكل زاد من حنق الشاب ، ثم قال له : « **اننى أوافقك ٠٠ فعندما يكون ثمة تحقيق مع شخص موضوع اشتباه ، لا يخطر ببال هذا الشخص قط ان المحقق سيجاذبه أطراف الحديث فى كل الموضوعات التى تقوم بمنأى عن موضوع التحقيق ، ليشغل باله ، ثم يصوب اليه ضربة بين العينين ، كضربة البلطة على أم الرأس !٠٠ ثم ، هاك مثال آخر قد ينفعك فيما بعد : هب اننى أخال نفسى مقتنعا بجرم شخص معين ٠٠ فلماذا أخيفه مقدما وأوحى اليه بأن لدى كافة القرائن ضده ؟ ٠٠ لم لا أدعه طليقا برهة، لازداد ثقة من أدلتى ، حتى تكون تحرياتى فى دقة العملية الحسابية ٠٠ لو انه كان ذكيا ، متعلما ، وأمرت بالقبض عليه ـ لفرط يقينى من جرمه ـ لحرمت نفسى من كل وسيلة قد تواتينى فيما بعد لاثبات ادانته ، اذ أتيح له الفرصة ليفحص حالته الذهنية بنفسه ٠٠ اننى بسجنه أصل به الى وضع مؤكد ، محدد ٠٠ أما اذا فعلت العكس، فتركته طليقا ، ولم أعره انتباها ، ومن ثم لم أنبهه كى يتخذ الحذر ، فان الارتياب فى اننى على علم بجرمه يظل يتملكه ويستبد به لحظة بعد أخرى ، ويظل موقنا من اننى أضعه تحت الرقابة ليل نهار ٠٠ فلا يلبث أن يفقد جلده ورباطة جأشه ، ويأتينى من تلقاء نفسه ، ليزودنى بالقرينة الحاسمة ضد نفسه ، ويمكننى من أن أختتم تحقيقى بأدلة دقيقة ٠٠ انه يدرك أن لا سبيل له الى الفرار ٠٠ ومن ثم فلن يفر ، لا لانه لا يدرى الى أين يذهب فحسب ، ولكن لانه قبل كل شىء فى قبضتى من الناحية النفسية !** »

وظل راسكولنيكوف طيلة هذه المحاضرة صامتا ، ساكنا ، شاحب الوجه٠٠ لقد فطن الى أن الرجل يحاوره ، ويهز أعصابه ، فحفزه هذا على المقاومة والصمود ٠٠ واحتد على «بروفيرس» وأغلظ له القول ، ثم صاح : « اننى لم أعد أرتاب فى انك تشتبه فى اننى قتلت المرابية العجوز وأختها ٠٠ فاذا كنت تظن ان من حقك ان توقع بى وتقبض على ، فاقبض على ٠٠ ولكننى لن أدعك تعبث بى وتعذبنى !»

فضحك «بروفيرس» منه وأخذ يهدىء من هواجسه ، ويوحى اليه بأنه ضحية لانفعالاته ٠ وانه ماذهب الى مسكن القتيل وذكر للعاملين اللذين كانا يطليانه بأنه يريد أن يستأجره ، وسألهما عن بقع الدماء ٠٠ واخذ يروح هنا وهناك ويوحى الى الناس باتهامه ٠٠ الا لان شعوره باشتباه البوليس فيه ، أثار هواجسه وجعل وساوسه تحاول أن تقر فى ذهنه انه يستطيع الاقدام على

جريمة كهذه ٠٠ واستطرد قائلا : «انك مريض ، وكان من الخطأ أن تهمل مرضك من البداية٠٠ان ما جرى لك نتيجة بحران الحمى٠٠اعتن بنفسك!٠٠»

وفيما كان راسكولنيكوف يسعى الى الباب فتح باب فى الطرف الآخر للحجرة ، وأعلن صوت ان عامل الطلاء - المعتقل بتهمة اغتيال المرأتين - قد اعترف بأنه القاتل !

اعترف كذبا بعد أن انهارت أعصابه تحت وطأة التحقيق !

*

وانصرف راسكولنيكوف وهو يرتجف انفعالا ، اذ أخذ يتذكر كيف انه كان على وشك أن ينزلق ٠٠

وظل الارتعاش يهز كيانه ، حتى بعد ان استقر فى غرفته ، على أريكته ٠٠ ثم تذكر فجأة ان اليوم موعد القداس الذى أعدته «كاترين ايفانوفنا» - أم سونيا - فهب ليوافيها ٠٠

الجزء الخامس

◆ **كان** لوشين بين المدعوين الى العشاء الذى تكبدت «كاترين ايفانوفنا» اقامته على روح زوجها ٠٠ فلقد أوحى اليها بأن فى وسعه أن يحصل لها على معاش ٠٠ لكنه استدعى «سونيا» فى صباح ذلك اليوم ، وسألها أن تحمل الى كاترين اعتذاره عن أنه لن يستطيع حضور المأدبة ، ثم قدم لها ورقة مالية من ذات العشرة روبلات ، كعطاء يساهم به فى معونة الاسرة ٠٠

وحرصت «كاترين» على أن تجلس راسكولينكوف الى يسارها حول المائدة - التى أنفقت عليها نصف الهبة التى جاد بها - كما سألت «سونيا» أن تجلس الى يساره ٠٠ ولكن المدعوين نسوا المناسبة الحزينة التى جمعتهم ، فأفرط بعضهم فى الشراب ، وانطلقت ألسنتهم بما أفسد الجو ، وأثار الجدال والصخب والشجار ٠٠ **وفى غمرة هذه الجلبة ، ظهر «لوشين» ليتهم «سونيا» بأنها سرقت منه مائة روبل أثناء زيارتها اياه فى الصباح !**

وساد الجمع صمت واجم ٠٠ وأنكرت الفتاة وهى مشدوهة، مبهوتة ٠٠ وفجأة ، ثار الجدل فى الغرفة ، وأخذ كل شخص

يتكلم غير منصت لسواه ، وثارت « كاترين ايفانوفنا » فى سخط جامح على لوشين ، وأمسكت بذراعه وجذبته نحو الفتاة تسأله أن يفتشها ٠٠ فقال :

ـ لست أرجو غير هذا ، ولكن التفتيش يجب أن يتم بيد أحد رجال البوليس ، وان كان هنا من الشهود الكفاية ٠٠

وتحولت « كاترين » تقلب جيوب الفتاة ، واذا بورقة من فئة المائة روبل تقع من أحدها ٠٠ وامتقع وجه « سونيا » وصرخت : « لا ٠٠ اننى لا أعرف عنها شيئا ! »

وحول راسكولينكوف بصره عن الفتاة ليتأمل لوشين متفرسا ، بينما جرت دموع « كاترين » مدرارة ، وغشيتها من دائها أزمة كادت أنفاسها تتقطع من قسوتها ٠٠

وفجأة ، قفز الصديق الذى كان قد عرف لوشين بالاسرة ، وصاح فى الرجل : « **يا لك من خسيس وضيع !٠٠ ألم أكن حاضرا مقابلتك للفتاة فى هذا الصباح ؟٠٠ اننى مستعد لأداء الشهادة أمام البوليس ٠٠ مستعد لان أقسم بكل الايمان ٠٠ لقد رأيتك بعينى تدس الورقة فى جيبها خلسة ، فخيل الى أنك تصدر فى ذلك عن كرم !** »

وشحب وجه لوشين ، بينما مضى الرجل يصف له كيف أنه كان يصافحها بيمناه ـ وهو يودعها ـ بينما يسراه تدس الورقة فى جيبها ٠٠ وانبرى لوشين يكذبه فى قحة وضجيج ٠٠ واذ ذاك ، تقدم راسكولينكوف وصاح :

ـ الآن فهمت كل شىء ٠٠ لقد ارتبت من البداية في أن ثمة دسيسة مدبرة ٠٠ لقد كان هذا السيد خطيبا لاختى ولكننى مذ رأيته لم أرتح اليه ، ورفضت قبوله خطيبا ٠٠

وانطلق يروى كيف أن الرفض أحنق لوشين عليه وحفزه على أن يتخذ من حمله « مرملادوف » الى داره ، وتبرعه بمبلغ من المال لمساعدة أسرته ، مادة لوشاية يوقع بها بينه

وبين أمه وأختـــــه ، اذ يوحى اليهمـــا بأنه على علاقة غير شريفة بسونيا !٠٠ لكنه حطم هذه الوشاية أثناء وجوده فى زيارة أمه وأخته ليلة الامس ، فحاول لوشين الليلة أن يظهر سونيا فى مظهر اللصة ، ليصور الشاب لأمه فى صورة المتردى الذى قدم اليها ـ أثناء وجودها فى مسكنه ـ لصة ســـاقطة !

وانقلب معظم الحاضرين ضد لوشين ، فاضطر الى أن يبادر بالانسحاب قبل أن يصاب بضر ٠٠

وأحس راسكولينكوف ـ رغم شجونه وأحزانه ـ بارتياح لما فعله من أجل « سونيا » !

وعقب انفضاض المأدبة فى تلك الليلة ، وجد الشاب نفسه مسوقا الى الغرفة التى كانت « سونيا » تستأجرها بعيدا عن الاسرة مذ مارست مهنتها ٠٠ واستقبلته الفتاة وهى تقول فى حرارة : « ماذا كان يصيبنى لولاك ؟ »

ـ أفهمت كيف أن الاتهام كله كان مبنيا على وضـــعك الاجتماعى ؟٠٠ ماذا كان يجرى لو لم تنكشف دسيسة لوشين؟ ٠٠ ألم يكن من المحتمل أن تكونى الآن فى السجن؟٠٠ فماذا كان يحدث ؟٠٠ ماذا كان يصيب أمك وأطفالها الى جانبك ؟٠٠ أفبعـــــد ذلك كنت تتركين لوشين يعيش ويرتكب دناءاته وشروره ؟

ـ ولكن ٠٠ من أكون أنا حتى يتوقف على ارادتى وجـــود شخص ما ؟٠٠ من اختارنى لاحكم بالموت أو الحياة عـــلى الآخرين ؟

وكأنما مرق سهم من نور أضاء ذهن راسكولينكوف فاذا به ينكس رأسه ، وقد أذهله وأفزعه ما تكشف له ٠٠ وتطلع الى الفتاة فجأة ، فاذا بها ترمقه فى حب اكتسح الكراهية التى انبثقت فى قلبه اذ كشفت له كلماتها الحقيقة البغيضة ٠٠ وأخفي وجهه بين راحتيه ٠٠ وبغتة ، نهض وقد اشتد شحوبه،

وغشيه نفس الشعور الذى انتابه حين وقف خلف المرابية العجوز وأمسك بالبلطة ‥ وسألته الفتاة فى حيرة : ماذا أصابك ؟ »

ـ لا تخافى يا سونيا ‥ انما أسائل نفسى ، عما يدعونى الى أن أعذبك وأشقيك ‥

وهمست وهى تتأمل وجهه فى فيض من العواطف : « أواه ‥ لكم تعانى ! »

ـ لا شىء ‥ لعلك تذكرين اننى وعدتك بالامس بأن أطلعك على من قتل ليزافيتا ‥ ولهذا جئت ‥

ـ هل اهتدوا اليه ؟

ـ لا ‥ لم يهتد اليه أحد ‥

وظلت لحظة صامتة ، ثم قالت فى حيرة : « فكيف عرفته اذن ؟ »

ـ عرفته لانه وثيق الصلة بى ‥ لم يكن يعتزم أن يقتل ليزافيتا ، وانما أراد أن يقتل العجوز ‥ ولكن أختها فاجأته ، فقتلها ‥ والآن ، هل عرفته ؟‥ فكرى ؟‥ احدسى ؟

وسرت فى كيانه قشعريرة باردة ‥ وطالع فى وجه سونيا خوفا لا سبيل الى وصفه ، مثل ذلك الذى رآه على وجه ليزافيتا وهو يهوى بالبلطة على رأسها !‥ وهتفت الفتاة وقد تفتقت الحقيقة فى ذهنها : « يا الهى ! » ‥ ثم تهالكت على سريرها ، ودفنت وجهها فى الوسادة ‥ ولكنها سرعان ما نهضت فسارت اليه ، وأمسكت بيديه ، وراحت تتفرس فى وجهه كأنما كانت ترجو أن تقرأ ما يكذب ظنها ‥ ثم ارتجفت ، وأطلقت صرخة خافتة ، وجثت على ركبتيها أمامه ، دون أن تدرى ما تفعل ، وهتفت فى قنوط : « انك ضال ضائع ! »

ونهضت فجأة ، فارتمت على عنقه وراحت تقبله فى وجد وحنان ‥ ثم هتفت: « ليس على وجه البسيطة فى هذه

الدنيا من هو أشقى أو أتعس منك !» ٠٠ وانخرطت فى البكاء ٠٠ وغالب هو عواطفه ، لكن دمعتين أفلتتا من عينيه ٠٠ وهتف : « اذن ، فلن تنبذينى يا سونيا ؟ »

ـ أبدا ٠٠ أينما كنت ٠٠ سأتبعك أينما ذهبت !

وأخذت تقبله ٠٠ بينما كان يحدثها هامسا : « لو أن الحاجة وحدها هى التى دفعتنى الى القتل لكنت الآن سعيدا ٠٠ أواه يا سونيا !٠٠ ما سألتك بالامس أن تنطلقى معى ، لكى نسرق أو نقتل ٠٠ لم أكن أعرف اذ ذاك ٠٠ الآن فهمت ٠٠ ليس لى من أمنية سوى أن لا تفارقينى ٠٠ لقد عجزت عن حمل العبء وحدى، فألقيت به على سواى ٠٠ أردت أن أثير الشجون فى قلب غيرى من أجلى ٠٠ أفهل تحبين جبانا ؟٠٠ اننى جبان ٠٠ قط لن أصفح عن نفسى ٠٠ لقد كنت أطمع فى أن أغدو كنابليون ٠٠ وكان هذا سبب الجريمة !٠٠ سألت نفسى يوما سؤالا : « هب أن نابليون كان يوما فى مثل وضعك ٠٠ لا انتصارات ولا معارك، وانما هو يوشك أن يرتكب جريمة ليصون مستقبله، فهل كان يتورع عن قتل عجوز ليستولى على ثلاثة آلاف روبل؟» ٠٠ وظلت الفكرة تراودنى وتلح على ٠٠ وانتهيت الى أنه ما كان يتورع عن القتل ٠٠ فاستندت الى ذلك !٠٠ ولقد عرفت الكثير فيما بعد ٠٠ عرفت أن انطوائى على نفسى شل تفكيرى ٠٠

ـ كفى !٠٠ كفى !٠٠ لقد أعرضت عن الله ، فعاقبك بأن أسلمك للشيطان !

ـ كفى يا سونيا ٠٠ اننى أعرف كل هذا ٠٠ أعرف أن الشيطان هو الذى كان يغرينى ٠٠ وهو الذى كان يقودنى ٠٠ ولكن ، هل قتلت العجوز حقا ؟٠٠ لا ٠٠ انما قتلت نفسى !

ونصحته بأن يلجأ الى البوليس ، ويعترف ، ويتوب ٠٠ فلما هالته النصيحة ، سألته : « أو تحمل عبئا كهذا ٠٠ طيلة عمرك ! »

*

وراح يهيم على وجهه أياما على غير هدى ، كالنائم ، الشارد، الغارق فى بحران محموم ٠٠ الى ان قدر له ان يزور «بروفيريس»، فاذا هذا ينصحه بان يعترف حتى ينال الحق فى ان تكون عقوبته مخففة ٠٠

وأسلم نفسه ٠٠ واستطاع أن يكسب شفقة العدالة ، فقضى عليه بالسجن ثمانى سنوات ٠٠!

الخاتمة

◆ **وفى** سجن قلعة حصينة فى احدى مدن سيبريا ، راح راسكولنيكوف يقضى مدة العقوبة فى التكفير ٠٠ بينما تزوج « رازوميخن » من « دونيا » ، وراحا يعدان العدة للقيام بمشروعات فى سيبيريا ، حيث الاراضى خصبة ، شاسعة ، وحيث كان راسكولنيكوف٠٠ واعتمدا على سونيا فى أمر رعاية الشاب فى سجنه ، الى أن تهيأ لهم الهجرة ٠٠

ولم تعش « بولتشيريا » طويلا بعد سجن ابنها ، وزواج ابنتها ٠٠ أما سونيا ، فقد منحها « سفيدراجايلوف » ثلاثة آلاف روبل ، كى ترافق راسكولنيكوف وتعيش على مقربة منه فى سيبريا ، فأخذت تتردد عليه فى سجنه ٠٠

لكن التعس لم يلبث أن سقط أسير مرض طويل ٠٠ لا لسوء معاملة وجدها فى السجن ، وانما٠٠ لانه أحس بالضعة والهوان أمام سونيا !٠٠ لانه أضاع نفسه بسبب خطأ انساق اليه !٠٠ لانه غدا لا يرى له مستقبلا ٠٠ ولا هدفا فى الحياة !

وعند ما شفى ، أحس بتجربة جديدة لم تكن له بها دراية من قبل : أحس بالحب نحو سونيا ٠٠ وعندما استوثق من حبها ، بدت له الحياة تحت أضواء جديدة خلابة ٠٠ أحس بأنه بعث بعد موت ٠٠ بعث الى حياة جديدة !

وعندما حانت الليلة الاخيرة له فى السجن ، بدا له كل ماضيه كحلم بعيد ٠٠ حتى خطيئته ٠٠ وحتى سجنه !٠٠ ومد

يده تحت وسادته ، فتناول نســـخة من الانجيل .. نفس النسخة التى قرأت له سونيا منها قصة لعازر ، وكانت نفسه قد تاقت اليها أثناء مرضه ..

ولم يفتح الانجيل ، وانما خالجته فكرة : ألا يقدر له أن يحرز مثل ما لسونيا من ايمان ، ومشاعر ؟.. لقد شقيت ، وتعبت ، ومرضت ، ومــع ذلك ، فلم يفت شىء من ذلك فى طمأنينتها ورضى نفسها !

وفكر فى المدة التى قضاها فى السجن .. كان وســونيا ينظران اليها فى البداية كما لو كانت أياما .. **وما خطر لهما يومئذ أن الحياة لا توهب من جديد بغير مقابل ، وانما هى تتطلب ثمنا غاليا ، ولا تكتسب بغير الصبر .. والالم .. والجهـــاد !**

اللجنة العليا لمهرجان ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤

مهرجان الادب والشعر

تعلن اللجنة العليا لمهرجان ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ اقامة مهرجان للادب وفن الرسم فى مباراة عامة توزع فيها خمسمائة جنيه على الفائزين فى الموضوعات التالية :

اولا ــ القصة : ١٠٠ جنيه للفائز الاول ، ٥٠ جنيه للثانى وللمتسابق ان يقدم قصته نثرا او شعرا او زجلا او مسرحية على ألا تقل عن ٧٠ صفحة (فولسكاب)

ثانيا ــ قصيدة شعرية : ٤٠ جنيه للفائز الاول ، ٣٠ جنيه للثانى، ١٠ جنيه للثالث

ثالثا ــ قطعة زجلية : ٢٠ جنيه للفائز الاول ، ١٠ جنيه للثانى

رابعا ــ اغنية (باللغة العربية او العامية) : ٢٠ جنيه للفائز الاول ، ١٠ جنيه للثانى .

خامسا ــ موضوع بحث باحدى اللغات الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية او الالمانية او الاسبانية عن اهداف الثورة : ٥٠ جنيه للفائز الاول ، ٢٥ جنيه للثانى

سادسا ــ لوحات رسم (تابلوهات) : ٦٠ جنيه للفائز الاول ، ٣٠ جنيه للثانى (للوحة الزيتية) ــ ٤٠ جنيه للفائز الاول ، ٢٥ جنيه للثانى (للوحة الفحم او الماء)

على أن تكون جميع موضوعات المسابقة جديدة لم تنشر من قبل وموضوع هذه المسابقات عن اهداف وآثار الثورة وحركة التحرير كالقضاء على الاقطاع والرجعية والحزبية او الاصلاح الزراعى وآثار الثورة فى العمال الزراعيين والصناعيين ... الخ .

وترسل الموضوعات من خمس نسخ (على الآلة الكاتبة أو بخط واضح) باسم السيد رئيس لجنة الدعاية لمهرجان ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ بمبنى الجمعية الزراعية وآخر موعد لتقديم الموضوعات يوم ١٠ يوليو سنة ١٩٥٤ وستعلن النتائج خلال ايام المهرجان

القاهرة فى ١٩٥٤/٦/٩

الخالدون



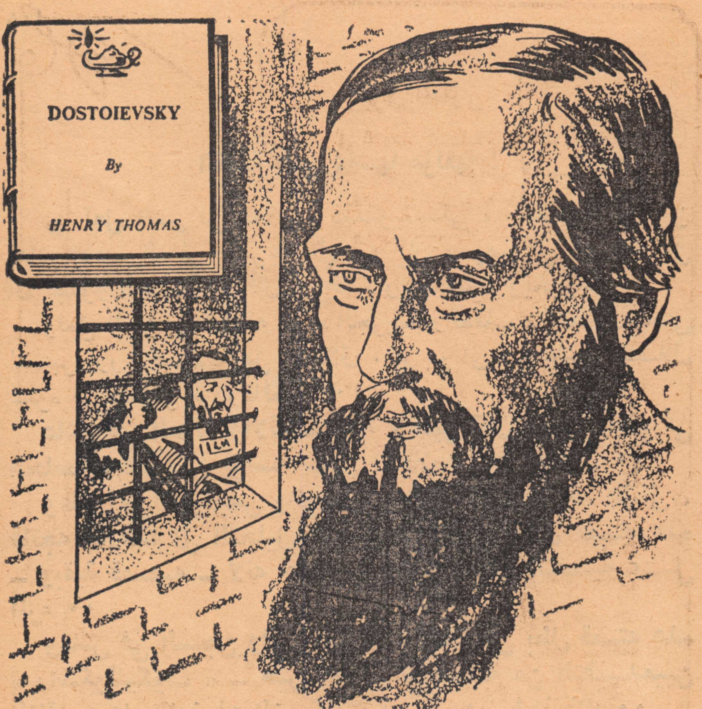
عظماء .. في غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : ((ديفاليرا)) .. و ((غاريبالدى)) .. و ((لويس باستير)) .. و((اميل زولا)) .. و((ماركونى)) .. و((تشايكوفسكى)) .. ((مصطفى كمال)) .. ثم ((شوبان)) .. و((جى دى موباسان)) و((مختار)) و ((تشارلس ديكنز)) و ((بيتهوفن)) و « موسولينى » و « شيللى » و«بلزاك» وأخيرا ((بودلير)) وهم أولئك العظماء فى السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع والموسيقى .. والفنون .. الخ

واليوم أقدم لك فيمايلى كتابا عن حياة الروائى الروسى العظيم «دستويفسكى»

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، براوننج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشة، ارسطو .. بوذا، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، اديسون ، فورد . . والتر سكوت ، ديماس .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك.. مايكل أنجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



فيدور دستوفيسكى

الروائى الذى تغلغل إلى أعماق النفس البشرية

القصة التى عاشها مؤلفها !

◆ **لعل** السر فى نجاح « دستويفسكى » وخلود اسمه بين أعلام الأدب العالمى ، يرجع الى أنه كان يحرص فى قصصه على أن يصور الحياة كما كان يراها ، ويلمسها ، ويخبرها ..

ولعل السر فى نجاحه فى « الجريمة والعقاب » بالذات ، حتى لتعتبر أروع قصصه على الاطلاق ، يرجع الى أنه عاش خلال عمره فى الكثير من وقائعها ..

عاش فى العزلة والانطواء ، حين كان يطلب العلم فى الجامعة ، فلم يكن يؤنسه سوى الاحلام ورؤى الخيال ..

وعاش فى الهواجس والوساوس التى كانت تؤرقه الليالى ، فاتجه به هذا الى التحليل النفسى فى علاج أبطال قصته هذه - وبقية قصصه - لانه جرب آثار العوامل النفسية على المرء ..

وعاش فى السجن وفى سيبريا - كما عاش بطل قصته هذه « راسكولنيكوف » - حين اعتقل مع جماعة من التقدميين الناقمين على الاوضاع التى كانت تسود روسيا اذ ذاك ..

.. حتى الانجيل الذى رافق « راسكولنيكوف » فى منفاه وسجنه ، حظى « دستويفسكى » بمثله ، اذ دست امرأة فى يده نسخة من الانجيل وهو يهم مع رفاقه بركوب القطار الى سيبريا !

وكما اختتمت « الجريمة والعقاب » خاتمة طيبة ، كذلك اختتم « دستويفسكى » الفترة من حياته التى استغرقها فى تأليف تلك الرواية ، خاتمة سعيدة : اذ تزوج من السكرتيرة التي كان يملي عليها أصول الرواية !

دون الجمال .. ابر النحل !

◆ **ولكن** .. لندخل البيوت من أبوابها .. ولنبدأ من حيث بدأ « دستويفسكى » .. فقد ولد فى سنة ١٨٢١ لأب انحدر من أصلاب قبائل « النورمان » الرحالة ، وكان طبيبا متواضع الحال فى مستشفى مخصص للفقراء ، كان يمتلىء فى الشتاء بضحايا قسوة الطبيعة على البشر .. أما فى الصيف ، فكانت حديقة المستشفى تحفل بالاطفال والكهـول ممن هرأ البرد أطرافهم .. حتى لقد رسخت فى ذاكرة دستويفسكى منذ الطفولة صورة « بستان المرضى » ، فكان منذ صغره لا يملك سوى أن يتأمل فى هذين النقيضين المجتمعين : آلام البشر وعذابهم ، الى جانب جمال الطبيعة المتمثل فى الحديقة ..

وكان يفصل بين الحديقة ومنزل الطبيب ، سياج عال ، ولكن « فيودور » لم يكد يتعلم المشى ، حتى تبين أن السياج لم يقو على أن يحول بينه وبين جمال الطبيعة وعذاب الانسان، اذ اعتاد أن يتسلل الى الحديقة خلال باب فى السور .. الى أن فاجأه أبوه ذات مساء ، فأوصد الباب فى غضب وسخط ، وأمره بأن لا يقربه ثانية .. ولكن اغراء باب الحديقة كان يفوق رهبة العقاب .. **بل انه كان يرحب بالعقاب ، اذ رأى فيه عذابا يقرب بينه وبين المعذبين الذين كانوا يعيشون خلف السور .. المعذبين الذين كانوا يعيشون وسط الجمال .. ولعل هذه المفارقة أوحت اليه منذ الصغر بأن لا بد من العذاب للوصول الى الجمال !**

وكان الدكتور دوستويفسكى قاسيا .. مولعا فى حياته بسياسة الاسوار ، حتى لقد كان يكتب لابنه ـ فيما بعد ، حين رحل هذا للدراسة الجامعية ـ يوصيه بأن « يبنى حول نفسه سياجا ، وأن يصون نفسه عن مباذل زملائه » !

على أنه ماكان بحاجة الى بذل هذه النصيحة ، فلقد أنشأ « فيودور » منذ حداثته على الابتعاد عن الناس ، وكان يقسو عليه من أجل ذلك ، فلما التحق الشاب بكلية الهندسة بجامعة بيترسبورج ، حافظ على وحدته ، ولم يسمح لغير الاحلام بأن ترافقه .. كان يعيش فى الخيال لان أباه لم يسمح له بأن يعيش فى الحقيقة ! .. وحتى خيالاته لم تنج من تدخل ابيه وسلطانه، اذ حرم عليه – لفرط تزمته – أن يذكر النساء فى اشعاره !

ولكن الشعر والادب لم يلبثا أن انحرفا بالشاب عن العزلة التىأرادها له أبوه ، اذ دفعا به الى صداقة فريق من الشبان المولعين بالادب ..

فاجعة فى الاسرة !

◆ **وذات** يوم ، قتل أبوه .. قتله حوذى عربته ، وقيل ان الانتقام كان الحافز الاول ، فقد كان « الدكتور » قاسيا على من كان يسترقهم ويستعبدهم فى الضيعة التى ابتاعها بمدخرات عمره ، ولاذ بها بعد أن ودع العمل فى مستشفاه ..

ولم ينبس « فيودور » باسم أبيه بعد ذلك اليوم .. **ولكن مصرع الرجل ، والحافز الذى نسب اليه ، أثارا فى نفس الشاب عواطف متضاربة وانفعالات صاخبة ، كانت تملأ لياليه رؤى وخيالات .. رؤى كانت تكيده ، وترهبه ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته تلهمه بتلك القصص والمغامرات والمآسى النفسية التى كانت تدور فى نفوس أبطاله لا خارج كيانهم .. ومن جوف الخيال انبعث له جبار راح يستأثر به ويستحوذ عليه ..**

أما ذلك الجبار ، فلم يكن سوى .. الشعب الروسى .. وهبه نفسه فلم يعد يكتب الا ليعبر عن آلامه وآماله ، ولم يعد يعمل ويشقى ويجهد الا من أجله ..

واذا كان قد رأى رأس هذا المارد ، ممثلا فى المثقفين وعلية القوم ، فانه رأى قدميه ممثلتين فى أولئك الملايين من المعذبين الذين كانوا يفضفضون عن صدورهم فى الحانات والمشارب ..

فكان يلجأ الى هناك لينصت الى أحاديثهم ‥ ولم يكن لخجله يجرؤ على مجاذبتهم أطراف الحديث ‥ ولا كان لشروده بالذى يجتذب محبى الثرثرة ، ولكنه كان يستدرج الناس الى لعب « البلياردو » ‥ اللعبة التى تمكنه من أن ينكس رأسه ـ فيخفى وجهه ـ بينما يرهف أذنيه ‥ وهكذا كان يخسر مالا ، ولكن يكتسب حكمة !

أمام الموت وجها لوجه !

◆ ثم عاد الى أوساط المثقفين ، يرجو أن يجد لديهم العون على خلق معنى للحياة لهؤلاء الملايين ‥ على تغيير وجه المجتمع، وخلع القيصر واقامة جمهورية للاحرار ‥ فقد كان يؤمن اذ ذاك بأن الله لا يغير ما بالانسان ، ولكن الانسان هو الذى يستطيع أن يعتق نفسه من الاستعباد !

وعرف « فيودور » اجتماعات المتطرفين من هؤلاء المثقفين فأخذ يتردد عليها ، ويضم صوته الى الناقمين على الظلم ، حتى انتهى به الامر الى أن أعتقل فى أحد الاجتماعات ذات يوم ، وبعد محاكمة بتراء ، اقتيد الى السجن فى انتظار اعدامه وزملائه ‥ ولكن ‥ كيف يستطيع الطغاة أن يسجنوا الذهن والعقل ، ان هم استطاعوا أن يسجنوا الجسد ؟

وهكذا ، ذات صباح قارس البرد ، اقتيد « فيودور » بين جماعات المسجونين السياسيين ، ليقفوا أمام الجنود ويعرضوا صدورهم للرصاص ‥ وقسم الضحايا الى فرق وضع فتانا فى ثالثتها ‥ ولكنه لم يحفل ، ولم يرتع ، بل ظل محتفظا بصفاء ذهنه ‥

وصفوا ‥ ورفع الجنود بنـــادقهم ‥ وفى اللحظة التى أوشكوا أن يطلقوا فيها الرصاص ، أقبل فارس يستحث جواده ‥ وكان يحمل عفوا من القيصر الذى استبدل باعدامهم ‥ النفى الى سيبريا

وسيقوا فى أمسية عيد الميلاد الى القطار الذى أعد لنقلهم٠٠ وفى أول محطة وقف فيهـــا ، دست امرأة غريبـــة فى يد « فيودور » نسخة من الانجيل ، كانت الهادى الوحيـد لذلك المسافر الى تلك البطاح النائية المنعزلة ٠٠ وبين صـفحات الانجيل ، وجد ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرين روبية ، قد تكفى لان تمكنه من أن يبتاع تبغا ، وصابونا ، وخبزا أبيض ٠٠ ولكنها لم تكن كافية لان تبتاع له راحة البال !٠٠ فما كان بالهين على شاب مثله ، مرهف الحس ، أن يقضى وقتـــه فى زى السجن ، والاغلال تحيط بساقيه وساعديه ٠٠ ولا كان بالسهل على اليد التى لم تعمل يوما بأداة تزيد فى الثقل على القلم ، أن تتحمل عناء الاشغال الشاقة !٠٠ ولا كان باليسير على الفتى الخجول ، أن يعيش بين حثالة روسيا من لصوص وسفاكى دماء !٠٠ كان هؤلاء الذين لا سبيل الى اصلاح نفوسهم يخالطونه ، ويقطعون عليه أفكاره ، ويوشكون أن يرتكبوا أفظع جرائمهم : جريمة القضاء على ذهنه !

آلام البشر تشغل تفكيره

◆ **ولكن** ذهنه أبى أن يموت ، بل عاد يشغله آلتفكير فى المشكلة الكبرى ٠٠ مشكلة مصير الانسانية !٠٠ وسرعان ما أصبح يرى سجن سيبريا حانة أخرى من حانات «بيترسبورج» التى كان يتردد عليها ليسمع آلام الانسانية وهو يتظاهر بلعب « البليارد » ٠٠ واذ ذاك ، أومض فى ذهنه بريق من النور ، رأى على ضوئه السبيل الى اصلاح أولئك الذين لم يكن من سبيل الى اصلاحهم٠٠ وتبين أن المهمة ليست فى يد الانسان ، وانما هى فى يد قوة خارج كيانه ٠٠ فتحول الى الانجيل يلتهـــم صفحاته فى نهم ، فاذا به يعثر مرة أخرى بين صفحاته علـى الورقة المالية ذات الخمسة والعشرين روبية ٠٠ واذا بها توحى اليه بما كان يفوق قوتها الشرائية المادية ٠٠ كانت رســالة

روحية ، ألهمته أن الله هو الذى ينقذ الانسان ويعتقه من اسار الظلم والاستعباد ، مذنبا كان أو ملاكا !

وراح يوغل فى الطريق الجديدة ، **فاهتدى الى أن الخطيئة ليست سوى اختبار من الله ، ووسيلة لاكتساب رحمته وكرمه .. وكان كلما أمعن فى التفكير فى مسألة « الشر » ازداد اقتناعا بأن الجرم شىء ، والشر شىء آخر .. وبأن الفارق شاسع بين قصاص المحاكم وبين ارادة الله .. وبأن « الذين يقضى عليهم الناس بالعقاب ، ينقذهم الله » .. فاشتراكه مع الثوريين للعمل باخلاص نحو « انقاذ الناس » ، لم تر فيه المحكمة ـ وهى صادقة الاخلاص ـ سوى ذنب عاقبته عليه بما تعاقب به القتلة الذين يزهقون الارواح .. ومن ثم أحس بأن معرفة الحقائق تحتاج الى تعمق فيما وراء الظواهر .. فمضى يتعمق !**

وأعفى من الاشغال الشاقة بعد أربع سنوات ، ولكن عقابه لم ينته ـ وفقا للقانون الروسى اذ ذاك ـ بل كان عليه أن ينضوى فى خدمة الجيش فى سيبريا ، وأن يعمل حتى يرقى الى مصاف الضباط ليسترد اعتباره وكرامته ..

غرامه بالأرملة المرحة !

◆ **وما لبث** أن وقع فى هوى زوجة قائد فرقته الذى كان يقترب من الموت حثيثا .. وكان الاطباء قد زعزعوا ثقة دستويفسكى فى رجولته ، اذ ذكروا له أنه مصاب بالصرع ، وان المرضى بهذا الداء يتأخر نضوجهم فى الحياة ، ومن ثم فقد وطن نفسه على أن لا يتزوج .. ولكن هذا الغرام « الاول » جعله يراجع نفسه .. فلما مات القائد ، ضرب بكلام الطب عرض الحائط ، وتزوج من الارملة !.. وهمست شائعات سخيفة بأنها قضت الليلة السابقة للزفاف فى أحضان عاشق آخر .. وان هذا العاشق كان يتبع الزوجين فى ترحالهما حين آن لفيودور فى النهاية أن يغادر سيبريا ..!

ولكن الزوج المخدوع لم يلبث أن وجد أن ليس ثمة ما يجعله يخشى خيانتها ، اذ أنشب السل أظفاره فى صدرها..

ولم يكن « فيودور » قد كف عن التفكير فى مسألة « الشر » .. وكان لا يفتأ يذكر « بستان المرضى » - الذى خالط ذكريات طفولته - والسياج الذى كان المرضى يعيشون وراء أحد جانبيه ، والاصحاء وراء الجانب الآخر .. وانتهى الى أن سنة الطبيعة تقتضى أن يموت المرضى ، وأن يعيش الاصحاء !

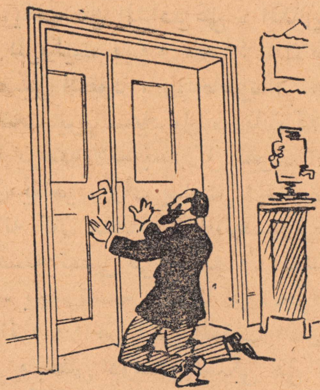
تجد لذتها فى تعذيبه !

وكانت العواطف الجياشة التى يحتبسها قد ملت طول الحبس ، وتاقت الى الانطلاق .. **وفى تلك الاثناء التقى بالفتاة التى أوحت لشهواته الحبيسة بأن تتمرد .. كانت «ابوليناريا بانكرايتيفنا سوسلوف» طالبة جريئة ، حملت العلم الاحمر وراحت تنشد « المارسيليز » فى مظاهرات الاشتراكيين .. وقد أنصتت يوما الى احدى محاضرات دستويفسكى ، فكتبت اليه تكاشفه بحبها .. وكانت قاسية ، تتلذذ بالتعذيب ، حتى فى حبها .. كانت ، كما وصفها : « تستطيع أن ترتكب جريمة فى غير ما اكتراث على الاطلاق .. لم تخلق امرأة فى خلاعتها الفاجرة .. ولو التقى بها الماركيز دوساد - صاحب مذهب « السادية » أو التعذيب فى الحب - لتلقى على يديها دروسا ! »**

وغدا « فيودور » رجلين فى جسد واحد :

رجل يعكف على حل مشكلة الجريمة والعقاب ، يتتبع خيوطها ، ويسجل ملاحظاته ، ويترسم شخصيات وعبارات القصة التى كان يحوكها حول البطل الطالب « راسكولينكوف» وكان هذا هو الرجل اليقظ فى كيانه ..

أما الرجل الآخر ، فقد راح يحلق على أجنحة الاحلام المحمومة ، فطاف أوربا مع « ابوليناريا » .. وكانت تستبد به **تعذبه .. وتجبره على أن يستمتع بها آنا ، وعلى أن يمقتها**



آنا آخر ٠٠ وكان يركع أمامها ، ويتوسل اليها باكيا ليلة بعد ليلة ، كى لا توصد باب مخدعها دونه !

ثم واتته الانباء بأن زوجته تقترب من أجلها المحتوم ، فكر عائدا الى جوار سريرها ٠٠

المعشوقة الثالثة ٠٠ !

◆ **وذات** صباح، خطت «آنا جريجوريفنا » الى حياته ٠٠ وكانت فتاة فى مقتبل الشباب، التحقت بخدمته كسكرتيرة يملى عليها رواية « الجريمة والعقاب » ٠٠ قصة الطالب « راسكولينكوف » الذى ذابت ارادته فى الصورة الوهمية التى رسمها خياله للانسان المثالى ، فاذا جسده يصبح عبدا لعقله ٠٠ واذا الوهم يبرز للحياة ، والحى يتلاشى في الاوهام ٠٠ واذا بسلطان العقل يسير الجسد الى الجريمة ليختبر آراءه فيها !

وكانت الفتاة تكتب ما يمليه عليها ، وهى تتطلع فى عجب واعجاب الى النابغة الذى كان يكتب تحفة كهذه الى جوار سرير زوجته وهى تحتضر ٠٠ وما أن أوشك الكتاب على نهايته ، حتى بدأ يعترى « فيودور » اضطراب غريب ٠٠ ولكن « آنا » استجمعت يوما جرأتها لتقول له : « قد لا يقدر لاى جيلين أن يجتمعا معا ٠٠ ولكن أى انسانين يستطيعان ذلك ! »

٠٠ وكان أن تزوجا !٠٠ بعد موت زوجته طبعا !

وأخذت نوبات الصرع تهاجمه أثناء شهر العسل ، فكانت

« آنا » تحنو عليه ٠٠ ولكنه مضى فى اتمام الرواية !٠٠ وكان لا يكف عن التردد على « الكازينـــو » ، يقامر بنقوده عـلى « الروليت » ٠٠ فقد كان الانفعال ، والالوان التى تتحكم فى مصير النقود ، والمخاطرة ، تجتذبه اجتذاب الحياة نفسها ٠٠ وذات يوم ، عاد الى « آنا » قانطا ، يتوسل اليها أن تمنحـه ما يرهنه لانه بدد كل نقوده ! ٠٠ كان يشعر بأن لا بد له من أن يقامر ، وأن يواصل المقامرة ، لا طمعا فى الربح ، ولكن ٠٠ لانه كان محتاجا الى الخسارة ٠٠ تماما كمـا كانت تطورات قصته تمضى فى خياله ٠٠ فقد بلغت به تطوراتها الى أن « المرء قد يجد نفسه مسوقا الى الجريمة ، لا من أجل الجريمة ذاتها ، وانما ٠٠ من أجل العقاب الذى يتلوها » !

ويمضى دوستويفسكى فى القصة ٠٠ فيكشف جريمـــة راسكولنيكوف ويرسله الى سيبريا ٠٠ وهناك ، وهو يتلقى العقاب ، يشعر لاول مرة بالبراءة والطهـــر ٠٠ لانه عرف الحقيقة ٠٠ وعرف الله !

ويهمس دوستويفسكى : « أهناك اله ؟ » ٠٠ وينبعث فى أعماقه صوت يقول : « ان صلاح الانسان لا يتسنى الا بوجود الشيطان ٠٠ فعن طريق الشيطان وحده ، يستيقظ ضـمير الانسان ! »

الابله ٠٠!

◆ **وأقبل** الشباب ـ بجنسيه ـ على «فيودور دوستويفسكى» يرون فيه أستاذا للجيل ، ويناقشونه فى المصير الاجتمـاعى للانسان ٠٠ وكانوا اذا حدثوه عن أحلامهـــم فى خلع القيصر واقامة جمهورية ، تذكر كيف نفى فى صدر شبابه ليعيش بين القتلة والمجرمين فى سيبريا ، فيهز رأســه فى أسى ويقول : « اهدأوا يا أبنائى ٠٠ لسنا بحاجة الى العنف لكى نبعث الدنيا ونخلقها خلقا جديدا ٠٠ انما نحن بحاجة الى عمل جليل ٠٠ الى ثورة عظيمة ٠٠ تنبعث من أعماقنا ! »

فيعارضه الشبان صائحين فى غيظ : « وكيف نلهم الناس جميعا بأن يقوموا بهذا العمل الجليل ٠٠ وبهذه الثورة العظيمة التى تنبعث من أعماقهم ، كما تقول ؟ »

– ولم تطالبون الناس جميعا بذلك ٠٠ ألا تستطيعون أن تتصوروا ما قد يصل اليه رجل مستقيم واحد من قوة وسلطان؟ ٠٠ ليظهر رجل مستقيم واحد ، وأنتم ترون كل الناس يتبعونه !

وكانت نظراته بعد ذلك تلين وتسرح فى آفاق غير مرئية٠٠ وبدلا من الكلام،كان يتحول الى القلم ، فاذا سحره يصور رويدا شخصية مثالية نبيلة حقا ٠٠ صورة انسان يمثل الجمال المطلق ٠٠ ذلك هو الامير « ميشكين » ، الأبله ، المصاب بالصرع ، الذى غادر مصحة الامراض العقلية من عهد قريب ، والذى كان قد واجه خبث الانسان وهو مستند الى ثقته الساذجة بطبيعة الانسان ٠٠ ويمضى فى حياته يجوس خلال عالم الانذال والاشقياء ، فيتلقى اعتداءاتهم دون أن يرفع اصبعا واحدا فى وجوههم !٠٠ ويغيظهم هذا ٠٠ يغيظهم انهم قادرون على أن يسلبوه كل شيء الا ايمانه فى طيبة النفس البشرية ٠٠ ثم لا يلبثون أن يتبينوا انه يعيش فى عالم أرقى من عالمهم ٠٠ عالم الضمير الحى والوعى السامى ٠٠ ولكنه عالم شاهق الارتفاع، والطريق فيه كالسراط ٠٠ لا يزيد عرضها عن شعرة ٠٠ ومن ثم فمن المتعذر أن يحفظ الانسان توازنه عليها !

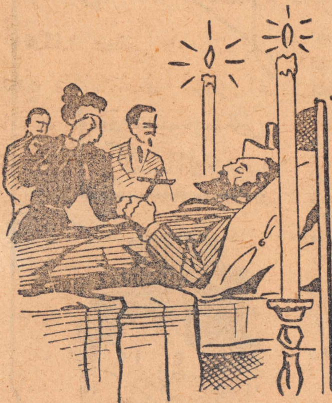
وكذلك يقع ذلك الانسان المثالى – الذى صوره دستويفسكى – فى حب امرأة ساقطة !٠٠ ثم يغار عليها عاشق آخر فيقتلها ٠٠ ويتدفق الناس الى غرفتها ليجدوا القاتل فى بحران وهذيان ، بينما جلس الامير الى جواره على الارض يواسيه ويرفه عنه ٠٠

أفكاره تثقل رأسه !

وهكذا يمضى دوستويفسكى يخترق الحجب ، حجابا وراء حجاب ، ليكتشف أعمق أغوار نفسه ٠٠ وفى العام الاخير من حياته ، أخذ يسير منكس الرأس تحت ثقل أفكاره ٠٠ كان لا يفتأ يفكر فى الانسان ٠٠ هذا المخلوق المركب من أوشاب ولهب ٠٠ هذا الملاك الشيطان ٠٠ الحكيم فى حماقته ، الاحمق فى حكمته !٠٠ وكان يخلق الشخصيات فى قصصه من شريرة أو خيرة ، ويروح يسأل كلا منها عن سر الحيـــاة ٠٠ ومضى « دستويفسكى » يجوس خلال الطرقات ، وينصت الى المارة ، عسى أن يجد الجواب فى كلمة عابرة ، أو هـــزة رأس ، أو ابتسامة ، أو اشراقة مباغتة فى نشوة الامل الحالم ٠٠

ولكن أفكاره كانت تحمله دائما فوق مستوى الضمير الآدمى الذى يحتل نفوس البشر حوله ، فيرتاد الآفاق ليرى بعيـــن الخيال العالم المثالى الذى تهفو اليه نفسه ٠٠ العـــالم الذى يسوده الحب والصدق والوئام ٠٠ العالم الذى عاش فيه الانسان الاول قبل أن يعرف الكذب ، فيقوده الى الجريمة وسفك الدماء والفرقة والظلم والقوانين و٠٠ حب الحزن والاسى !

ثم يواتيه الجواب أخيرا ، خلال الطرق الانسانية الثلاث ٠٠ الطرق المتشابكة الملتوية ، المختلط بعضها ببعض ٠٠ طرق الضلال والطيش والالم ٠٠ ويكتب : « **لسوف يأتى ٠٠ ابن الله الذى سخرت منه الدنيا بأسرها وأسمته : « الابله » ٠٠ وسيتعلمون كيف يتبعونه حين يلقنهـم المعنى الحقيقى للخير والشر ٠٠ فاذا هما جسد واحد ، وروح واحدة ٠٠ واذا كل انسان مسئول عن عمل الجنس البشرى بأسره ، واذا الجنس البشرى بأسره مسئول عن عمل كل انسان ٠٠ سيأتى ويعلمنا**



الحقيقة الكبرى الوحيدة : ان كل الناس ، من أسمى قديس الى أدنأ قاتل ، انما يسعون. جميعا ، وان اختلفت مسالكهم ، الى منبع النور الكامن فى أعماق ذاتهم .. نور الوحدة الشاملة .. والحب الشامل .. »

على شاطىء الأبدية

◆ **ويجلس** دوستويفسكى ويعتمد رأسه بين راحتيه ، فاذا بيديه تبتلان .. واذا الدم ينزف من رئتيه .. ولكنه يمضى : « .. وان الحياة لا يجب أن تمتهن .. وان الموت لا يجب أن يرهب .. »

ويجتمع أولاده وزوجته حول جسده المسجى يبكون .. وتتدفق البرقيات من كافة أرجاء روسيا .. وتقام الصلوات طول الليل من أجله .. ولكنه يمضى قائلا : « يا أبنائى .. لا ينبغى أن نتوق الى حياة أبدية مقبلة .. فانا اذا لم نصل الى الابدية فى دنيانا هذه ، فلن نصل اليها قط .. ان الابدية معنا الآن .. هناك لحظات نصل فيها الى أسمى وجود ، فاذا الزمن يقف عن سيره ، واذا حياة الجنس البشرى كله تذوب فى حياتك .. هذه هى لحظات الابدية »

وقد حظى دوستويفسكى بهذه اللحظات ، فلما مات فارق الدنيا ناعم البال مطمئنا ، لانه فى الواقع لم يمت .. كل ما هنالك أن جسده انتقل من حال الى حال ، أما روحه .. أما فكره .. أما فلسفته .. فقد أكسبتها لحظات الابدية خلودا !

عزيزى القارىء ...

هذا باب جديد أحسبه قد طاف بخيالك منذ زمن .. ففى كل شهر تخرج المكتبة العربية عشرات من الكتب، لعشرات المؤلفين ، فى شتى الموضوعات .. وأنت حائر لا تدرى أيها تقرأ وأيها تدع - فان وقتك لن يتسع لقراءتها جميعا ولا شك ، ومن العسير عليك أن تعرف مايوافق ذوقك من المطبوعات من مجرد معرفة اسم الكتاب واسم كاتبه .. بل ان تصفح الكتاب بين يديك فى المكتبة التى تبيعه لن يكفى كى تعرف عنه ما تود معرفته من أبوابه وجزتياته ..

لذلك رأيت أن افتح لك فى «كتابى» هذا الباب الذى سيقدم اليك فى كل شهر ملخصا لاهم كتاب ظهر خلال الشهر المنصرم ، فى أسلوب يكاد يكون هو أسلوب كاتبه ، وبعبارات أكثرهاعباراته ذاتها - أو على حد التعبير الانجليزى In the author's own words - كيما تلم المامة وجيزة بالكتاب ، فتقتنيه اذا راقتك مادته ووافقت هواك، أو تقنع بهذه الخلاصة اذا آثرت عليه كتابا آخر .. وهكذا يستطيع كل قارىء أن يقتنى أقرب الكتب الى ميوله ومزاجه

وسبق أن قدمت لك فى هذا الباب:

ابو نواس : للعقاد

الهوى والشباب : بشارة الخورى

هذا أو الطوفان : خالد محمد خالد

واليوم أقدم لك هذا الكتاب الذى هو أحدث انتاج للمفكر المصرى الكبير « سلامة موسى »

نحن فى ركب الأدب



ظهر فى المكتبة العربية



جوته
ابسن
نيتشه
ويلز
دستويفسكى
برنارد شو
داروين
فرويد
فولتير
هؤلاء علموني
بقلم
سلامة موسى

« كن رجلا ولا تتبع خطواتى »

جيته

المؤلف العظيم ليس هو الذى يجعلنا نرى الدنيا بعينيه ونشهد على الناس والاشياء بضميره ، وانما هو الذى يعلمنا الاستقلال فى الرأى ، رائين ومشاهدين ، وأن يكن فى رؤيته وشهادته قد فتح بصيرتنا ..

وقد تأثرت بهؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب ، وأحببتهم وعظمتهم ، ووجدت فيهم النور والتوجيه .. ولكنى حاولت الاستقلال عنهم، وهذا هو ما أنصح به للقارىء

المؤلفون يغيرون الدنيا

◆ **ذلك** ان الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل .. أو هى خارطة نأخذ فى رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة ، فنحن المسئولون عن اتمام المشروع أو رسم هذه الخارطة .. وحسن فى الاخلاق أن نقول اننا مسئولون عما نفعل

وقد بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى سنة ١٩٠٦ ، حين ساء الوسط العائلى .. ففررت الى أوربا .. وهناك رأيت رؤى ، وشرعت أختلط بعناصر جديدة فى المجتمعات والعائلات ، واقرأ من الكتب ما يشع النور فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى ، فقررت من ذلك الوقت ـ وأنا فى حوالى العشرين ـ أن أكون متمدنا ومثقفا ..

وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدينين وأهدف الى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم ، وأجول وأتأمل .. وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الانجليزية والفرنسية ، واتصل عقلى عن سبيلهما بأكبر العقول القديمة والحديثة .. ورشحت نظرية التطور الى وجدانى وتشبعت بها فصارت مزاجى وأسلوبى، وكبرت قيمة الانسان فى نفسى ، لأنى عرفت تاريخه الماضى فى مئات الملايين من السنين ، كما صرت أحس بتاريخه القادم فى المئات من ملايين السنين أيضا .. وتحملت بهذه المعرفة مسئولية ، وأحسست دينا ..

وكان أكبر جزء فى « مشروع » حياتى انى « احترفت » الثقافة ، فكانت حرفة وهواية معا ، لا أبالى بما فيها من تعب وعرق. وقد بنيت بها شخصيتى وانضجت بها وجدانى ، واستطعت ان أنسلخ عن عقائد الطفولة ، وان أصل الى اليقين الجديد بهداية داروين واينشتين .. واصبح عقلى عالميا ، أحس

أن العالم كله أصبح وطنى ، ليس لى حق التفكير فى مصالحه فقط ، بل على هذا الواجب ! .. ومع ان ثقافتى فصلت بينى وبين الكثير من النـاس لاختلاف مستوينا ، فانها بسطت لى آفاقا شاسعة من الفرح والألم والتأمل والعبرة ، فجعلت حياتى أكثر حيوية ، وحبى للطبيعة أهم وأعمق ، وفهمى للكون أوفى وأنور ..

ومع أنى احترفت الادب والعلم والثقافة ، فان هذه جميعها هى عندى حياة وكفاح أكثر مما هى حرفة . لذلك أنا لا أبالى ما يقال عن اسـلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة .. وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى ، وانما هى تعود الى ألف مليون سنة ! .. وانا أحمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموما شخصية لى ، لأنى أدين بنظرة ـ وكدت أقول بعقيدة ـ التطور .. ومن أجمل الاحسـاسات التى استمتع بها فى فترات اليأس ، والتى تحيل هذا اليأس الى رجاء ، ان مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ، كل هذا لن يموت بعد موتى .. وانا بذلك أتجاوز حياتى ، وأحيا بعد موتى ..

ولقد قرأت أكثر من ألف كتاب ، واخصبت الكتب حياتى ، وجعلتنى مثمرا مضيئا ، ولكن الكتاب الاول الذى له فضل الصـياغة والتوجيـه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » ، فانه زاد عمرى من سبعين سنة الى ألف مليون سنة ..

وهناك زعم بأن الساسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات .. وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير ، وقد غيرت الجغرافيـا السياسية للاقطار ، كما أنه ليس شك فى أن المباشرين لهذه التغييرات كانوا من السياسيين أو من العسكريين ، ولكن هذه التغييرات لم تكن تصل الى صميم النفس البشرية .. ومع ذلك فنحن عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب ، نجد انها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات قام بها مفكرون اخترعوا الآلات أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لاعلان نظريات جديدة .. فالسياسى والعسكرى قد سار كلاهما فى اثر المفكر والمخترع الذى انبعث الى التفكير بقوات اجتماعية أخرى ..

وقد غيرت الحربان الاخيرتان تخوم الأقطار .. ولكنها لم تغير الاتجاه البشرى أو الاتزان النفسى .. وانما الدنيا تغيرت بالكتب . والمثل الاكبر أن كتب الدين قد غيرت النفس البشرية اذ عينت لنشاطها اتجاها، وأكسبتها أهدافا لم تكن لتعرفها من قبل .. وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة ، بل أن الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه الى حد كبير الاختلاف الدينى ..

وهناك عشرات من الكتب « البذرية » التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها ! .. وانها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية ، مثـل كتب : داروين ولامارك واينشـتين وتولستوى وبرناردشو وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنـا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل .. والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتاب التافهين .. ويعرف أن هناك جريمة تعلو على كل الجرائم فى الخسة والنذالة والحقارة والخيانة ، هى الحجر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ ، وهذه هى الخيانة الكبرى للانسانية !

ونحن نختار الكتاب فى العادة كى نتزيد فى معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هى المادة الخامة للثقافة ، اذ ليست الثقافة معارف فقط ، وانما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة الفلسفية .. ومعظم القراء يحتاجون الى المؤلف الذى يثير الاستطلاع ويبعث اليهم بالخمـائر ويوجه ويرشد .. والمؤلف العظيم هو الذى يعلمنا . هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفا فلسفيا جديدا ، أو خطة واتجاها جديدين للفكر البشرى .. وهذا الكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا . وأحيانا يتغير القارىء لأنه انساق فى موجة جديدة أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارىء ، ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت اليه ، فأثرت فيه ..

وليس كل منا قادرا على الاستنباط الفلسفى من المعارف ، ولذلك نحن نحتاج الى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنـا آفاقا جديدة ، أو يرشدوننا الى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الايمائية من بين العشرات من الأفكار المألوفة .. وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الايمائيين من عصر لآخر ..

وعلى القارىء أن يختار الكتب كما يختار المعلمين والاصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معا ، حتى يبقى ذهنه نشيطا ، وحتى تزيد حياته حيوية بتجديد عاطفته ومنطقه معا .. وكما يخرج الفقير الذى يعيش فى زقاق محدود الى الحقول فينتعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارىء أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، الى الآفاق الرحبة .. ان مناخنا الثقافى لا يلائم القرن العشرين ، وانما يلائم القرن العاشر .. أجل ، نحن فى عقم ثقافى ، ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا أيضا تفاهة التفكير فى المفكر التافه حين يقول ان الطربوش شعار وطنى ـ مثلا ـ كأن هذا الموضوع يرتفع فى اعتباره الى مقام المشكلة الفلسطينية .. !

ولا أستطيع ان أقول ان الكتب العربية ترتفع الى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع ، وان كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته، ولكن مجتمعنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه ، لذلك أقول مرة أخرى اننا فى عقم ثقافى لا نلد ولا نتوالد... ولذلك أقول أيضا فى صراحة مؤلمة أن القارىء المصرى لن يكون متمدينا ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، الا اذا درس لغة أوربية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة ، فينعطف التاريخ ويتغير وجه الارض . وهؤلاء هم المؤلفون الايمائيون

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحوت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الاثر الاكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافتى . ولكن اختيارى لهم لا يعنى انى أشير على القارىء بأن يقرأهم ويعرفهم ، لأنى انما أردت أن أبسط له بعض الاسباب والنتائج فى تكوين شخصيتى ، وأن أشير الى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية نحو عمر قد تجاوز السادسة والستين .

فولتير محطم الخرافات

◆ **عاش** من أجل الحرية ، وكانت ايماءة حياته احترام الانسان وكرامة الناس وحريتهم .. تغير تاريخ أوربا بحياته ، اذ نقلهـــا من التعصب الى التسامح ومن التقييد الى التحرير ، وغرس بذلك شجرة الديموقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها، كما بسط الآفاق لحكم العقول، فظهرت الحكومة المدنية العصرية ..

وأسوأ ما تصاب به أمة ان يتحد الدين مع الاستبداد ، وهذا ما فشا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، فقد صدر قانون فى سنة ١٧٥٧ ، باعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين.. ولكن فولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة كى ينجو من خطر الاعدام ! وكان فى هذه الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومى والكنسى .. ويدعو الى التسامح والأخوة .. ولقى عنتا فى دعوته الى الحرية وخاصة حرية العقيدة .. واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية ..

ومع كل ما اتهم به فولتير فانه لم يكن كافرا ، بل كان يؤمن بالله أعظم الايمان ، ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب أن لا تحتكر الدين .. واننا يجب أن نكون « الهيين » قبل ان نكون مسيحيين أو يهودا أو هندوكيين .. كان يرى الله فى كل مخلوق ..

والواقع اننا حين نتأمل حياة فولتير ، نجد ان الكنيسة الكاثوليكية قد انتفعت بعداوته لها ، لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين .. وكذلك انتفعت بفصلها عن الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر الدين ، اذ يغنيه عن القوة الروحية والاخلاق السامية بما يستمتع به من قوة بوليسية وحماية قانونية !

ولفولتير عبر ودلالات كثيرة لعصرنا .. **فاننا نفهم منه ان حرية العقل وحرية العقيدة وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر .. وان الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات انما ترتكب أفظع الجرائم ، وهى جريمة الخيانة للروح البشرى .. وعبرة أخرى نستخلصها من حياته هى ان الاديب ليس رجل القلم والحبر وتقليب الكتب واجترار الاقوال القديمة ، وانما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى .. وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته من حيث انه يكتب عن احساس ووجدان بما يحس ويجد ، ثم يصدر عن ذلك مفكرا للتنظيم والتوجيه .. ولذلك قيل ان اسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه .. واذا كنت فى حياتى الأدبية قد وصلت الى أن اختص بأسلوب ، فانى أعترف هنا بانى لم أقصد قط الى هذا الهدف، وانما كانت غايتى أن أصل الى التعبير الجلى الذى يوضح فكرتى ، واظن اننى نجحت فى ذلك .**

جيته .. الشخصية العالمية

◆ **كان** جيته يكتب يومياته .. أى كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوما بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما انجز من اعمال .. والمتأمل لتدويناته يحتاج الى التساؤل : أأديبا كان جيته أم عالما ؟

ان عبقرية جيته لم تكن فى الادب أو العلم أو الفن ، وانما كانت فى شخصيته .. واذا كان هم الاديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة أو مقالة ، فان هم جيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه ..

وجمهور القراء يعرف أدب جيته ، ولكن قليلا منهم يعرفون ابحاثه العميقة فى العلوم .. فان له مكتشفات فى الجيولوجيا والبيولوجيا والبصريات .. وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهانا على فضله فى الجيولوجيا .. كما استطاع أن يكشف عن أن المخ امتداد للنخاع الشوكى .. الخ

ومن الخطأ أن يقال ان جيته كان يهتم بالآداب والعلوم ، لأن اهتمامه الاول كان بالحياة .. بل انه لم يجعل الآداب أو العلوم هدفه ، لأن الهدف الوحيد الذى سدد اليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول انه يبنى « هرم » شخصيته ، يدل القارىء على أن الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية .. فكانت الشخصية رسالته الاولى باعتبارها التحفة الاولى

للانسان المثقف الذى يحيا حياة الوجدان والعقل . ومن هنا كلمة برانديس الاديب الدنمركى ، أن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته . والمعنى أن الأمة التى ارتقت فى ثقافتها الى المرتقى الذى تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هى الحياة نفسها ، هى الأمة الراقية . أما اذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأى نشاط أو هدف آخر مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء فهى غير راقية .

ومن علامات النضج فى الانسان ان يميز بين المعارف والحقائق .. وأن يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .. وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات .. وأن يحس حركة التاريخ فى كل يوم من أيامه ، ويكون على احساس واتصال بالدنيا والكون .. وأن يكون قد وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير فى الكليات الى تفاؤل بمستقبل البشر .. فان تفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .. والرجل الناضج متدين ، وديانته احترام الحياة ، وكى نحترم الحياة ، يجب أن نعمل لرقيها وتطورها الى أعلى ..

وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات ..

ومن علامات النضج فى الاديب أن يرتفع من همومه الشخصية الى الاهتمامات العالمية .. وأن يرفع الأدب من آراء واحساسات تكتب الى ممارسة فى الحياة .. وأن يتعرف الى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم اليها ويكون من جنودها أو قوادها ..

وقد حقق جيته كل هذه الانواع الثلاثة من النضج ..

ونحن الذين أحببنا جيته ، لا نكسب منه معارف .. وانما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى اتبعه ، وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .. نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح ..

ومن هنا كان جيته واحدا من أولئك الذين تعلمت منهم ، ولم أتعلم منه فنا أو أدبا أو علما ، وانما تعلمت منهج الحياة التى عاشها جيته ، فقد كان ينبهنى من وقت الى آخر كى أعيش على مستواه ..

كان يعيش نهاره كله ، فلا يقيل ساعة الظهيرة .. وكان يفطر فى الساعة الحادية عشرة ، ويتغدى فى الساعة الثانية ، ثم يتنزه ، ثم يحل وقت العشاء ، فالقراءة والدراسة .. وكان يكتب يومياته وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوما بعد يوم .. وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف .. وكانت اختباراته كثيرة واستمتاعاته الاحساسية شاملة ، كما كانت ثقافتهموسوعية ، فهو لم يحصر ذهنه فى تخصص ما ..


داروين

ونحن نتعلم من جيتــه ان غاية الحياة هى الحياة .. أى ترقيــة الشخصية بتربيتنـا ، وبسـط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار ، حتى نزداد فهما لانفسنا وللطبيعة فنزداد بذلك استمتاعا ..

ونتعـلم منه أننـا ـ حتى فى الشيخوخة ـ يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة ، ولن يكون هذا الا بتهيئة سابقة طويلة ..

وأخيرا ، نتعـلم منه أننا جميعا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم

داروين .. عار العائلة

◆ « أنت لا تعنى الا بالصيد والكلاب واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عارا على نفسك وعلى عائلتك » .. هذه هى الـكلمات التى تلقـاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح فيه لأى انسان أنه قد خاب الخيبة التامة .. والآن ، بعد أكثر من مائة سنة ، لا يعد داروين عارا على عائلته ، بل هو فخر أمته .. ونحن الآن ، بعدوفاته بأكثر من نصف قرن ، نستطيع أن نقول انه اكسبنا فهما جديدا للطبيعةوالكون والانســان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل .. ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها ، ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا .. فنحن نفكر فى التطور الداروينى ونفكر متطورين ..

ونحن مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، التى تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف ، هى الحـافز للتفكير .. فاننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية ، اذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر فى نظريته الخطيرة ، ولما جعل موضوعها هدفه فى الحياة .. فالحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه « احترف » التفكير ، وانه كان مريضا أو متمرضا ، فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه حين عيره بأنه سوف يكون عارا على عائلته . فقد كان لا ينام الليل الا بعد أرق يستمر ساعات ، وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف ، فاذا جاء النهار كتب كلماته القليلة ، ثم يبقى نهاره مريضا . ومرضه هذا نفسى .. كأنه يقول : « طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟ »

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟ .. والدلالة الخطيرة التى انتهى اليها قراء داروين هى أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط ، وان البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا اليه .. فأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة الى حرية البحث والدرس .. وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الاخلاق والاديان وفق النظرية التطورية، ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى ، لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الانسان الى الانسان نفسه . كما أصبح التطور فنا نمارسه فى ايجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح .. وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات « بشرية » جديدة

ولا أعرف كاتبا تأثرت به أكثر مما تأثرت بداروين ، فانه أعطانى القب الذى أزن به أحيانا ، وأحيانا أهدم به التقاليد. وجعل التطور مزاجا تفكيريا ونفسيا عندى ، بل جعله عقيدتى البشرية التى تنأى عن الغيبيات .

واذن يجب أن أعد داروين المعلم الاول الذى علمنى ..

فيسمان .. المؤلف الذى أفسد ذهنى

◆ **نعم** ، أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضا، من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة ، فجفت عندى ينابيع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن البقاء ما كنت لأؤمن بها لولا هذا المؤلف الالمانى .. ذلك أنى كنت فى العقد الاول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الاصلح .. وكان النقاش يدور اذ ذاك حول الصفات المكتسبة ــ أى العادات : هل تورث أم لا تورث ؟ .. وفى حوالى سنة ١٩٠٩ ، وقع فى يدى كتاب يدعى « الجرثومة المنوية » لفيسمان .. **فقد وجد هذا العالم بالمشاهدة الميكروسكوبية أن الجراثيم المنوية فى الحيوان مستقلة تمام الاستقلال عن الخلايا الجسمية ، وهى تسكن فى أجسامنا وتغتذى من دمائنا ، ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثر .. ونحن نتسلم هذه الجرثومة من آبائنا ونسلمها لأبنائنا ، وهؤلاء يسلمونها للأحفاد ، دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .. ولذلك ليس فى ترقية الوسط أية ترقية للانسان ، لأن التفاوت فى الكفايات لا يعود الى تفاوت فى الوسط ، وانما الى تفاوت فى الوراثة . هذه الوراثة التى لا نعرف فى زعم فيسمان كيف نؤثر فيها أو نغيرها ..**

ولم أستطع الا التسليم بما قاله فيسمان ، لأنه قائم على المشاهدة التى هى بينة العلم .. ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب مندل ، وانتهيت الى الايمان بأن الوسط لا قيمة له أصلا فى تغير السلالات وتطورها .. أى اننا يجب أن نسلم بأن الافراد فى الحيوان والنبات والانسان تتفاوت فى الكفايات ، ونحن - مع أننا نجهل مصدر التفاوت - مضطرون الى التسليم به تسليما يشبه التسليم بالغيبيات .. وقد كانت لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى تتلوها مركبات اجتماعية . ذلك ان تنازع البقاء فى الطبيعة يجب أن يكون له صداه فى مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه حتى يموت .. لأنه انما ولد وارثا لهذا العجز الذى لن يصلحه الوسط .. ثم لماذا يبقى الزنوج أحياء ما دامت هناك شعوب أرقى منهم ؟

وقرأت بعد ذلك ما ينقض ما قاله فيسمان ومندل .. فالجراثيم المنوية فى الذكر والانثى تتأثر بخلايا الجسم ، **ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات ، تتأثر بها الجراثيم المنوية ، فتعود هذه العادات وراثية.. وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط أحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى ، وأكسبنى فهما آخر للتطور ، فتنازع البقاء ليس هو كل شىء .. وشرعت أبصر أن التعاون فى الطبيعة أكبر أثرا من التنازع .. وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الاكبار من شأن الوسط البشرى وضرورة ترقيته حضاريا وثقافيا ، لأن العادات التى يتعودها الانسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز الى الاجيال القادمة . والدلالة الاخلاقية لهذا النظر الجديد هى اننا اذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش فى عادات سيئة ، فاننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل الى الاجيال القادمة بالوراثة . وايمانى بالوسط أعاد الى اتزانى الذهنى والاخلاقى وملأنى تفاؤلا بمستقبل البشر ..**

هنريك ابسن .. داعية الشخصية

◆ **هنريك** ابسن هو داعية الاستقلال الروحى للانسان عامة وللمرأة خاصة ، وقد الف درامته « لعبة البيت » فى دعوة المرأة الاوربية الى أن تستقل وتنشد الآفاق وتجرب التجارب وتختبر الدنيا وتربى نفسها بدلا من أن تعيش خلف الرجل !

وقد غير ابسن أوربا الادبية وأحالها الى الآراء العصرية ، واذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » ، كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد الى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل ، ودعا الى الاستقلال النفسى والى الجد فى

الحياة بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحرارا مفكرين مكافحين مستقلين.. وكان يرى أن الاديب يجب أن يكون واقعيا، يرى الواقع الملموس ثم يبنى خياله على أساسه ويرى رؤياه من خلال عدسته

واذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة .. وفى دراما « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » ، يوضح لنا أن المرأة لن تكون انسانا الا عندما ترفع نفسها من الأنثوية الى الانسانية ، وهذا لن يكون الا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر ..

وقد كان ابسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين ، أتلمس المثاليات الاوربية والقيم العصرية وأبنى شخصيتى الذهنية ، وكان مركز المرأة المصرية يحز فى صدرى .. ولقد تعلمت من ابسن شرفا جديدا لم أكن أعرفه حين تركت بلادى الى أوربا فى عام ١٩٠٧ ، هو شرف الانسانية التى يجب ألا يحدها حجاب المرأة .. هو شرف الزواج الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعبد .. هو شرف الأمة التى ترفع نساءها الى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات ..

ان الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها ورقيها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الابداع الا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتنا وتشترك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار ..

فردريك نيتشه .. فتنة الشباب

◆ **اثنان** انخدعت بهما سنوات كثيرة : أولهما فيسمان .. أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى فافتتنت به سنوات قبل أن تخلصت منه . واحساسى نحوه هو الحب .. عرفته فى عام ١٩٠٩، وكنت منغمسا فى نظرية التطور.. وهبط على نيتشه كما لو كان وحيا أوكشفا .. نثر ساحر كأنه أبيات من الشعر ، وخيال يرتفع الى آفاق المستقبل ، وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشىء رهبة وجزعا أو تنفضه حماسا وطربا ، وفلسفة تعلو على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الايمان وغلواء التفاؤل .. كان يدعو الى أن يكون الانسان معبرا ، يصل بين القرد والانسان المثالى (السوبرمان) .. فان بين البشر ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن بينهم أقوياء يستحقون البقاء .. وان المسيحية - بدعوتها الى الرحمة وحب المساكين والضعفاء - استبدلت بالرجولة والبطولة ضعفا زريا، نرى نتائجه فى شعوب أوربا الحاضرة حيث تتفشى الامراض وتكاد تكون خالدة ، لأننا نحمى كل مريض ونعنى بعلاجه .. ونستطيع أن نلخص فلسفة نيتشه فى انها ترمى الى جعل غاية الحياة خدمة الاقلية من الشخصيات

السامية ، وليس خدمة الاكثرية أو سواد الأمة .. فهو اذن عدو الديموقراطية ..

ونيتشه ـ كما قال اندريه جيد ـ يغار غيرة شخصية من المسيح ، ونحس ونحن نقرأ كتابه « هذا ما قال زرادشت » انه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية .. وكثير من أقواله يوحى بالهوس ، أن لم نقل الجنون ! ومما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة فى جنون ، اذ كان فى الدور الأخير من مرض الزهرى ..

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان أو الجنون ، فهو قد عرض لقضية انسانية واضحة : هى أن مصلحة البشر وارتقاء الانسان يقتضيان محاربة الضعف والمرض والنقص ، كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية كالصحة والقوة والذكاء .. وفى ضوء التطورات والتجارب لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشه بأن نكون قساة ، فالتطور يصيح بالتعاون ، ونحن البشر ، بما وصلنا اليه من معارف بيولوجية، نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى

ارنست رينان .. داعية البشرية

◆ **كان** له أبلغ الوقع وأبعد الاثر فى ثقافتى وتربيتى .. وهو الذى غرس فى نفسى الروح البشرى ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية للمسيح ، التى وصفها رينان بكلمات الحب والاعزاز ، والتى أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع الى الأخلاق التى رسمها فيها ..

وقد قضى رينان من عمره نحو أربعين أو خمسين سنة وهو يشرق على أوربا ويضىء عقولها ويربى نفوسها ، وأوربا بعده هى غير أوربا قبله بفضل ما تألم .. وقد تألم كثيرا ..

ورينان نشأ نشأة كنسية ، اذ تعلم فى مدرسة للآلهيات ، ولكنه تركها وآثر دراسة اللغات والادب ، ودرس اللغات السامية واتقن اللغة العربية ودرس فلسفة ابن رشد ونقلها ووضحها فى اللغة الفرنسية .. وفى سنة ١٨٦٠ أوفدته الحكومة الفرنسية مع بعثة الى فلسطين لدراسة الآثار . وحين عاد الى باريس حاولت الحكومة أن تعينه أستاذا للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتابا عن المسيح باعتباره انسانا لا أكثر .. وهذا الكتاب جوهرة من جواهر الادب الفرنسى ، بل الادب العالمى ، ومع انه جرد شخصية المسيح من الغيبيات ، فانه أبرز ميزاته الاخلاقية ودعوته الانسانية ، بحيث ينتهى القارىء الى الاحساس نحوه بالحب والاحترام ، اذ يجد فى المسيح جمالا وفتنة ، وفي دعوته تحديا لكل رجل في شرفه وأسلوب

حياته . ومن هنا يعد رينان من دعاة البشرية . وهو وان لم يكن قد دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة ، فانه بمؤلفاته العديدة قد دعا اليها مداورة ومواربة ، اذ بين الادباء والانبياء والفلاسفة ووضعهم جميعا فى صف واحد لتربية الضمير البشرى ، فهو مسيحى مسلم يهودى بوذى .. وهذا هو شأن الكثيرين من أدباء عصرنا المتازين ، بل هو كذلك ايمان الساسة المتازين أمثال غاندى ونهرو .. والخلاصة أن رينان عاش يدعو الى دين الحب .. الذى كان رسالة حياته

دستويفسكى ... ذكاء العاطفة

◆ تتسم قصص دستويفسكى بحنان ورقة يشيعان فى نفوسنا احساس الدين .. وهى جميعها دعوة الى الخير وحب الاطفال وحماسة الامومة ولذة التضحية والارتفاع عن الدنايا المادية، ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .. **لذلك تمتاز قصصه بأن أشخاصها يتسمون بالاحساس والذكاء معا .. وتكاد جميعا تخلو من العقدة ، الا القليل جدا .. وفى النهاية نجد أنه يهدف الى خيال الشعر ، فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو غايات فى الفن والشعر . وهذا ما يجب أن يكون ، لان القصة هى التفسير الخيالى للحياة ، حيث يرتفع المؤلف بالواقع الى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة .. وقد كسبت من دستويفسكى أكثر مما كسبت من غيره ، أعنى ذلك الاحساس الادبى الذى لا يختلف عن الاحساس الدينى أو الموسيقى . ذلك أننا ازاء الدين والأدب والموسيقى لا « نعرف » ، وانما نحس !**

وقد فطن دستويفسكى الى أن علما بلا دين هو دمار بشرى عام . بل نستطيع أن نقول انه بصرنا بقوة العلم الطاغية التى تتمثل أفظع ما تتمثل فى القنبلة الذرية .. التى يخرج بها طيار يشرب كأسا من الكونياك فى نزق ومجون ، ثم يقتل ثمانين ألف انسان فى ثانية ، ويعود ضاحكا الى معسكره كما حدث فى هيروشيما ..

ودستويفسكى فى قصصه جميعا ينشد الايمان الذى يستطيع أن يستقر به الانسان على هذه الدنيا ، حتى ولو كان هذا الايمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .. وقد كان حافزه الى الاعتماد على الايمان ذلك الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر اطلاق النار عليه ، فانه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر الى الحياة من موقف الموت .. **وأكاد هنا أن أقول ان الدين ليس سوى النظر الى الحياة من موقف الموت ، فان الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو ، عندما نتأمله، يغير القيم والاوزان ويحيلها من التقدير الاجتماعى الى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة**

الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه . ولكن فكرة الموت تنقدح فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونتساءل عن نهايته ! وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية ، وعندئذ نحس كما أحس ديستويفسكى اننا نحن بنو البشر كيان واحد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . . .

وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقرية الارادة ، واينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ،وأخيرا ديستويفسكى الذى يمثل عبقرية الاحساس .

ثورو : نداء الطبيعة

◆ **جرب** هنرى ثورو ـ الكاتب الامريكى ـ تجربة فى العيش كانت الهاما لغاندى ، فأخذ عنه غاندى أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الامبراطورية البريطانية ، وهو «العصيان المدنى» .. وقد كان ثورو يقصد من هذه العبارة الى أن نكون أحرارا بحيث لا يربطنا المجتمع بعاداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لان لكل منا حق الاستقلال فى تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية .. وكان الروح التجارى والاقتنائى فى أيامه على أشده فى الولايات المتحدة ، فعمد هو الى صده بترك المدينة والاقامة فى الغابة .. وهو فى هذا الاعتكاف « عاص مدنى » يحاول ان يتخلص من القيم والاوزان الاجتماعية كى يصل الى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التى تعلو على العادات والعرف ..

واحساس ثورو للطبيعة عميق .. **وهو يطالبنا بأن نعيش فى الطبيعة ، ويوضح لنا ان ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة ، انما هو شىء ثانوى الى جانب ارتباطنا بالطبيعة: بالارض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر .. فيجب أن نعيش مع هذه الاشياء أو فيها .. وهو يعنى اننا اذا عمدنا الى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة ، وارتضينا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة ، فان يوما واحدا من العمل فى الاسبوع يكفل لنا جميع حاجاتنا ، وعندئذ نستطيع أن نقضى الايام الباقية فى الاستمتاع والاختبارات ..**

على ان ثورو لم يقض عمره كله فى الغابة ، فقد رجع بعد سنة وبضعة شهور الى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم ان عودة البشر الى حياة الفطرة فى الغابة لم تعد ممكنة .. وانما قصارى ما نفهمه من تجربته انه أومأ ايماءة لنا بأننا من وقت لآخر يجب أن نختلى ونستوحد كى نعيد النظر فى حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية

التى لم نفكر من قبل فى قيمتها ؟ .. وهل لا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننقحها بالهام الطبيعة التى تردنا الى الاصول والجذور ؟

فرويد .. تشريح النفس البشرية

◆ **كانت** « السيكلوجية »، الى نهاية القرن الماضى ، علما مغلقا أو كالمغلق .. ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو « العقل الكامن » .. وفكرة العقل الكامن هى احدى الفكرات المحورية أو البذرية .. ففى العقد الاول من هذا القرن كان صوت فرويد هامسا خافتا ، فما هو ان بلغنا العقدين الثانى والثالث حتى صخب وعلا ، بل طغى . وأحس العالم ان هاهنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيها جديدا لم نكن نعرفه من قبل .. **فقد أثبت فرويد ان النفس البشرية ورثت وظائف وحشية قديمة ، وانما نألم ونبتئس لاننا فى صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة ، وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها ..**

وقد انتفعت كثيرا بهذا الاتجاه السيكلوجى فى ثقافتى ، ولكننى لم انتفع به كثيرا فى حياتى اليومية ، لانى على الرغم من معارفى فى السيكلوجية ، ما زلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى ، الا القليل .. ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب فى ذهنى وحركنى الى تفكير اختلاقى جديد . فمن ذلك انى تجنبت الخبط الذى يرجم به الكتاب فى موضوعات مختلفة مثل السعادة ، ووثبت فورا وبداهة الى أن السعادة هى الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وبمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء ، وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن نكون تعساء ..

وقولى ان فرويد هدانى وأرشدنى ليس معناه انى قد استسلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت فى نفسى .. هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى ميدان السيكلوجية وأكسبنى الحافز .. وفرويد هو بعد ذلك المفكر الاساسى بين السيكلوجيين ، فانه حط على الحقيقة الاولى وهى الكبت العام للشهوة الجنسية وما يؤدى اليه من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزا أوليا للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق مستقبلنا الاخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الاولى من الطفولة ، انما يوضح أكبر الحقائق فى مبادىء التربية ، ويظهر قيمة العائلة الحاسمة فى التوجيه الاجتماعى .. وأخيرا هو الذى جعلنا نعرف اننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف المستترة فى العقل الكامن اكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به ما نفعل ..

ولكننى لست فرويديا من حيث ايمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة موروثة فى الرغبة فى العدوان أو الموت ، أو فى هذا الاتجاه الاخلاقى أو ذاك . فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية الى أن التربية وحدها - العائلية والاجتماعية - هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهة أو ايمان وخضوع أو تمرد .. فالمجتمع يفرض علينا أسلوبا للارتزاق ، فيعين لنا بهذا الاسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد الى تعاون وحب ، ومن مباراة تهدف الى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من احساسات القلق ، الى وطنية تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع .

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الخميرة التى تفشت فى ذهنى وكانت علة العشرات ، بل المئات من التأثرات الذهنية . فانه هو الذى كان يحفزنى من حيث لا أدرى الى دراسة المجتمع ، وكيف يجب أن نتقى الاجرام أو نعين أصول التربية أو نتقى الحروب أو نفكر فى الشئون الجنسية..الخ

سميث .. أصل الحضارة

◆ وهو الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى ما لا أزال أنفذ منه الى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .. فالتاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الارض..وليس لامة تاريخ ، ما لم تكن هنـــاك تفاعلات اقتصادية بين الافراد تؤدى الى ايجاد مؤسسات مثل المحاكم أو المعابد ونحوها

كان « اليوت سميث » أستاذا للتشريح فى كلية قصر العينى قبل نحو أربعين أو خمسين سنة .. وكانت له هواية ، انتهى فى أخريات حياته الى احترافها ، وهى تاريخ مصر . لكنه كان يدرس هذا التاريخ ليدرس تطور الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق استقصاء جذور الحضارة المصرية .. واستطاع أن يثبت ان مصر أصل الحضارة للعالم كله ، لا لان أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وانما لان جغرافية مصر قد تفاعلت مـــع الانسان المصرى بما لم يتفاعل به أى وسط آخر مع الانسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .. وبهذه النظرية نقل اليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الاصل الى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الاحياء الى أصل واحد ..

وقد كانت مؤلفات اليوت سميث عندى انبلاجا ذهنيا قادنى الى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زالت فى اشتباكاتها العديدة فى وعيى..

هافلوك اليس .. الزواج الانفصالى

◆ اذا سألت عن هافلوك اليس فى احدى المكتبات عرفت أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية .. لكن هذه المؤلفات تنطوى فى الواقع على مزيج

من الادب ، والعلم ، والفلسفة ٠٠ فهو يكتب باسلوب مكين قد احكمت عباراته كما نقيت من الزوائد. وهو لايرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهبا ، وانما هو يزن الآراء ويعرض لها فى اسهاب شرحا ونقدا ، ثم ينتهى الى الخلاصة التى يستقر عليها ويدعو لها ٠٠

كان من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الافاق لهذه الدراسات قبل فرويد .. وهناك فرق اصيل بينهما ، ذلك ان هافلوك اليس كان يبحث الشئون الجنسية من حيث انها نشاط سليم يتصل بالاصحاء ، ويبحث اثره فى حياة الشبان العزاب والمتزوجين ، وفى الحياة العائلية وتربية الاطفال ، ومكانه فى الحضارة ٠٠ اما فرويد فيبحث النشاط الجنسى من ناحية المرض لا الصحة!

ونحن نكاد لانجد شيئا فذا أو شاذا فى حياة هافلوك اليس ٠٠ ولكن ميزته الاصلية انه اتخذ اسلوبا معينا فى عيشه لم يتخذه غيره - ولسنا نشك فى أنه سيجد التقبيح والازدراء من تسعين فى المائة من القراء ! - غير اننا نقصد الى أن نوضح العوامل التى ادت الى اتخاذه هذا الاسلوب وتقدير الحضارة القائمة له .. فقد عرف هافلوك فتاة انجليزية تدعى الآنسة اديث ليز ، قبل نحو ستين سنة ، وكانت هذه الفتاة من اولئك اللائى كن يسمين فى انجلترا - حوالى سنة ١٨٩٠ - باسم المرأة الجديدة..أى المرأة المؤمنة بحقوق جنسها ، والمسرفة فى الدعوة اليها ٠ كانت ترى أن البيت على حاله - اذ ذاك - هو «طاحونة» تسخر فيها المرأة ، فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهى مجهدة لا يتوافر لها الوقت الكافى للراحة او الاستمتاع الاجتماعى او الثقافى .. وانه يجب على كل امرأة أن تؤدى عملا اجتماعيا بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال ٠٠ ولم تكن هذه الآراء حوالى سنة ١٨٩٠ تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادى السائد وقتئذ ٠٠

وكانت آراء اديث ليز هذه تغرى امثال هافلوك اليس بحبها والتعلق بها ٠٠ وتم زواجهما بالفعل ، **وهنا تبدأ عبرة القصة ٠٠ فان هذين الزوجين مالبثا ان ابتدعا بدعة جديدة ، هى الزواج الانفصالى .. فانهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما الى منزله المستقل ، وصارا يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان فى سريرهما بمواعيد، كأنهما عاشقان وليسا زوجين..وذلك اقتناعا بالمبدأ الذى مؤداه أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكناه وبرنامج يومه ، لا يفسد عليه ذلك زوجه .. كانا يريان فى الزواج انه بعض الحياة فقط ، وانه يجب ان يترك الزوج حرا اذ هو انسان أولا ، له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته ، وهو يحب ان يجد الحرية كى يمارسها جميعا فى خلوة وفى استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الآخر !.. وقد عاشا على هذا الاسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان. على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم ، فان الزوجة أحست هوى**

جنسيا نحو شاب أحبته ، فاستسلمت له ، ثم عادت فأحست انحرافا جعلها تحب فتاة من جنسها .. وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك ، ولكنهما لم يعمدا الى الطلاق قط ..

وقد يعلل البعض هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .. واعتقادى ان هذا الاستنتاج قد يكون صادقا ، فان الرجل حين يعيش منفردا معتزلا للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش معتزلة للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى ، وخاصة اذا كانت هناك زعزعة نفسية سابقة .. فاننا نجد فى اخلاق هذه الزوجة رعونة وتقلبا لا يدلان على عقل رصين متزن ..

وهذا الزى الجديد للزواج ، او هذا الاسلوب الجديد للعيش ، يتفشى هذه السنين الاخيرة فى الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ـ وفى أوربا الغربية الى حد ما ـ فان المساواة فى التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية اهلتها للعمل والكسب .. كما ان احالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى الى أخرى تقوم على العمل الكهربائى جعل بقاء المرأة فى المنزل طوال النهار شيئا غير معقول .. وهذه الاعتبارات بلغت ذروتها فى الولايات المتحدة .. **والمرأة التى تنشد تكوين شخصيتها انما تنشدها عادة بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء فى البيت ، وهى لذلك حين تتزوج ، تصر على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعى ، وتطلب بقاءها منفصلة فى منزلها وقت الزواج كما كانت ايام عزوبتها .. وليست المرأة وحدها هى التى تطلب فى امريكا واوربا الغربية هذا الزواج الانفصالى ، وانما هو الرجل ايضا حين يرصد نفسه لاهداف اجتماعية يحس ان الروابط الزوجية تقيده وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها ..** وبالطبع هذا الزواج الانفصالى لا يمكن ان ينشأ الا اذا كان الزوجان يريان ضرورته لرقيهما . اما اذا لم يجدا هذه الضرورة فانهما يعيشان معا .. وأغلب الظن ان هذا الزواج الانفصالى لا يزيد فى الوقت الحاضر على واحد فى المائة .. لان هذا الانسان الجديد الذى ارتقت شخصيته وزاد احساسه الاجتماعى على احساسه العائلى ، لا يمكن ان يزيد على واحد فى المائة من المواطنين فى أرقى امة !.. و«الاحساس الاجتماعى» يعنى الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة والفن والاختراع والاكتشاف ، لان هذه الاهتمامات تحتاج الى رصد القوى كلها لاتمامها فى خطوة واستقلال . وقد كان هافلوك اليس من هذه الناحية انسانا جديدا ، ولكننا لا نستطيع ان نبت برأى فى هذه الجدة ، هل هي للسعادة والخير ، ام للتعاسة والشر ؟

شــو ٠٠ رفيق حياتى

◆ لعل احسن ما اقتنيت فى حياتى ، ذكرى برنارد شو !٠٠ وقد عرفته فى سنة ١٩٠٩ ، ورافقته الى سنيه الاخيرة ، الى أن مات فى الرابعة والتسعين ٠٠ ودرست فلسفته فكان لى منها توجيه وارشاد ٠٠ ولكنى لم انتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التى ، الى مدى بعيد ، تنبع من حياته أكثرمما تتألف من أفكاره ، أو فلنقل ان حياته قد اندمغت فى افكاره فعاش عيشا فلسفيا ٠٠ فقد تناول برنارد شو حياته كما لو كانت مادة خامة ، وجعل يعتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا ٠٠

وقد كان كتابه الاكبر هو حياته ، فانه اتبع اسلوبا فى العيش يتفق وكلمته المأثورة : «انما يكون الانسان فاضلا اذا اعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .. وقدنظر شو الى جسمه كأنه تحفة غالية ، وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجعلها فى أمعائه اذ انه رفض أن يجعل جسمه جبانة لجثث الحيوانات ، والتزم الطعام النباتى ! .. وكان التعمير بعض اهدافه كما كان بعض فلسفته ، فكان يقول ان أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، لذلك نحن نخطف اللذة والمتعة خطفا ، ولا نبالى اصلاح هذه الدنيا لاننا زائلون منها قريبا.. ولو طالت أعمارنا لاهتممنا بالدنيا واصلحناها ـ وقد كان يرى ان ارتقاء الحضارة فى المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للانسان ، وانما الارتقاء الصحيح هو ان يطول عمره الى الف سنة ، ويزيد مخه الى كيلو جرامين ، وان يكون حصينا من الامراض منذ ولادته الى يوم وفاته . وهذا هو الانسان المثالى (السوبر مان) الذى يجب ان يستولد من الانسان بالانتخاب الحكومى ٠٠ وديانة شو هى الديانة البشرية التى تنأى عن الغيبيات ٠٠ ويغلب انه كان لا يختلف عن رينان فى بشرية المسيح ، وفى ان الله كائن فى الانسان ، وهو قوة الحياة التى تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ٠ والى هنا تقف «غيبياته» ، وهى غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد !

وقد فهمت الامم العربية النهضة على انها التحرر من الاجنبى المستعمر المستبد ، فطالبت بالاستقلال والدستور ، واعتقدت ان كل شىء من امانيها قد تم . ولكن الامم الاوربية فهمت النهضة على أنها قبل كل شىء تحرير الضمير البشرى ٠ ففصلت الدين من الدولة ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطة البابا والفتها ، واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التى تعمل للتنوير الذهنى والسعادة البشرية

والناهضون فى أوربا هم علماؤها وادباؤها وليسوا ساستها ، وبرناردشو واحد منهم ، فانه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا الى حياة الطهر

ومكافحة النفـــاق الاجتماعى .. وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الخرافات والتقاليد والجبن القومى. ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضات الاوربية وعملنا لتحرير ضميرنا ، لكان لنا الى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية ، ولكان لنا منها موقف اخر حيال المشكلات الاقتصادية والاخلاقية والثقافية

غاندى .. داعية الاستغناء

◆ لم يكن غاندى مؤلفا من حيث التأليف الكتابى .. ولـــكنه ألف ماهو خير من الكتب .. ألف حياته التى كانت مصباحا منيرا أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات .. وكانت رسالاته متعددة ، فقد دعا الى الوطنية الهندية ، ومحاربة الاستعمار ، والى الاستقلال والحرية ، كما دعا الى المغزل والمنسج والى الطعام النباتى .. ولكن كل هذه الدعوات كانت تسودها روح القداسة .. ذلك ان وثبته لم تكن للهند وحدها ، وانما كانت أخاء بشريا لسكان هذا العالم كله .. ولم يكن كفاحه دمويا ، وانما كان مقاومة سلبية

ولم يكن اخلاصه لديانة آبائه فقط، أى الهندوكية ، اذ كان يصلى صلاة حافلة جامعة للانجيل والتوراة والقرآن والكتب الهندوكية المقدسة ! وقد صام اكثر من نصف عام على فترات ، كى يحمل الهندوكيين والمسلمين على الاخاء ، وبذلك رفع السياسة الى مستوى القداسة ..

حادثة واحدة فى حياة غاندى تدلنا على ان نسكه لم يكن متكلفا ، واستغناءه لم يكن يحمل معنى القهر .. تلك هى انقطاعه عن الاتصال الجنسى منذ بلغ الرابعـة والثلاثين . فهو لم يكن يقسر نفسه على هذا الحرمان ، ولم يكن يحس أنه حرمان .. ذلك لان الآمال والآفاق التى كان يترامى اليها تفكيره كانت تغمر نفسه وتشغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، ان ينسى ما دونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهى طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة او اقتناء الثراء ، لان نفسه كانت مغمورة بما هو أسمى .. اى ان غاندى سد قنوات شهواته لانه جمعها كلها نهرا واحدا نحو غاية موحدة هي الانسانية ..



ولم يكن غاندى يضع القواعد كى يتقيد بها ، ولكن للاسترشاد الاخلاقى فى الخطة العملية .. لذلك نجد ان التزامه للمقاومة السلبية لم يكن جامدا ، اذ هو كان يلجأ الى العمل الايجابى – أى العصيان المدنى – من وقت لآخر ..

وعلمنا غاندى أيضا ان حكمة الحكيم ليست بالاقتناء وانما هى بالاستغناء ، واننا نستطيع أن نحقق السعادة بالقليل من الحاجات ... بل اننا اذا أقللنا منها عشنا على أحسن حال ..

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لاشك فيه ، ولكن هناك ما هو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعبادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لايصح أن تبقى فى القرن العشرين

ولز .. فيلسوف الصحافة

◆ **حياة** ولز الادبية – منذ شرع يكتب ، حوالى ١٨٩٥ ، الى وفاته فى ١٩٤٥ – هى تاريخ نصف قرن من التطور الذهنى لكاتب عظيم ازاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية .. ومؤلفاته الاولى كلها تفاؤل واستبشار بالمستقبل ..العلوم تسود المعارف وتغربلها وتزيد سلطة الانسان على الارض والماء والسماء ، والامراض تنهزم وتنمحى ، والمحصولات الزراعية تزيد وتلغى الجوع ، والروح التنظيمى يعم العالم بالاشتراكية ..

ثم تأتى الحرب الكبرى الاولى ، فيخمد شىء من هذا اللهب ، ولكن يبقى منه شىء كبير .. **اذ يؤلف ولز فى سنة ١٩١٩ تاريخا للعالم يدعو فيه الى ايجاد حكومة واحدة مع ادارة عامة موحدة للتعليم فى دولة الدنيا .. ولكن بعد عشر سنوات يتقهقر الاستبشار ، فهو غاضب يائس ، وهو يدعونا الى مادية صرفة ، منظمة ، يتوافر فيها الطعام والمسكن والمعرفة . ويقول ان هذا هو الدين . حتى اذا حلت سنة ١٩٤٥ يعمه اليأس ، اليأس العلمى الذى كان أساس الامل من قبل ، فيتحدث عن انقراض البشر بالقنبلة الذرية ..**

والى ولز أعزو روح الجد فى برنامجى الثقافى ، والآفاق الموسوعية فى معارفى ، والاتجاه الدينى الذى أتجهه فى الصحافة فضلا عن التأليف . فانى أدرس جغرافية هذا العالم وتاريخه بالروح الدينى ، واهتمامى بما يجرى فى أسبانيا على أيدى الفاشيين أو فى الصين على ايدى الشيوعيين يفوق اهتمامى بشئونى الشخصية ...

وقد كان ولز مجاهدا متوسعا فى جهاده ، **وجهاده هذا للعالم وليس لبريطانيا وحدها . فهو يدعو الى ايجاد قانون اساسى عام ينص فيه على**

حق كل انسان .. وهو يدعو الى ارتباطات ونظم عالمية لاتزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات وتزول فى حكومة عالميـة واحدة . وهو يدعو الى ايجاد قانون لصيانة الثروات العامة - كالمناجم وعيون البترول - باعتبارها ملكا مشـاعا للامم جميعـا .. للبشر .. وهو يطلب التنظيم العلمى للانتاج . ويرى أن التنظيم العلمى لاحوال عالمنا جدير بأن يهيىء الفرصة لـكل انسان كى يحظى بتعليم جامعى .. الخ

شيفتزر .. صديق الزنوج

◆ **البيرت** شفيتزر - الفائز بجائزة نوبل الاخيرة - مؤلف فى الادب والاجتمـاع والفلسفـة والمسيحية .. ولـكنه زيادة على ذلك ، عمل وكافح .. تساءل وهو شاب : ماذا أفعل كى أخدم الزنوج الذين سحقهم الاستعمار الاوربى ؟.. وأجاب المبشرون بأنه يمكنه أن يرحل الى افريقيا فيبشر الوثنيين من الزنوج بالمسيحية .. ولـكنه أحس مرارة التهكم فى هـذا الاقتراح ، فانه كان يوقن أن كثـيرا من المبشرين كانوا أعـوان الاستعمار .. وكان يتساءل : كيف نقدم للزنوج تعاليم المسيحية وقـد عرفوا أن هؤلاء المسيحيين هم أنفسهم الذين ينهبونهم ويذلونهم ويحرمونهم ؟

وكان فى الثالثة والثلاثين حين عكف على دراسة الطب .. ثم رحل الى « لامبارنييه » فى (السنغال) الفرنسـية ، فأسس مستشفى وأقام مع زوجته نحو أربعين عاما عاد بعدها فى سنة ١٩٤٩ .. وهو أعمى ..

وكان مفكرا عميقا ، يبحث ، ويستقصى ، ويحـاول أن يهتـدى الى يقين .. ألف كتابا عن المسيح الذى أحبه وعمل بتعاليمه ، ولـكنه عالج حياته بمشرط فرويد بما لايرضى المسيحيين

وكان اليقين الذى حمله على أن يترك الثراء والمجـد والمدنية ليقضى أحسن سنى عمره فى خدمة الزنوج ، هو احترام الحياة .. وهو مفتاح يهيىء لنا التفكير السليم فى تطور المجتمع البشرى

جون ديوى .. فيلسوف العلم

◆ **شيوع** الاسلوب العلمى فى أيامنا جعل الفلاسفة والادباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وادب ، ولذلك أصـبحت الفلسفـة « تجريبية » ، وصاحب هذا الرأى أو هذه الدعوة الى اتخاذ الاسلوب العلمى فى الفلسفة هو جون ديوى .. الذى يعد من أكبر الفلاسـفة الامريكيين ، **كما انه مؤسس المدارس « الارتقائية » الجـديدة التى دعا فيها الى أن تكون المدرسة مجتمعا صغيرا يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ بعد ذلك .. وفلسفته عن التعليم تندمج فى فلسفته عن الحياة**

وفلسفة ديوى تقوم على أنه ليس فى الكون شىء ثابت . وما دام التغيير والتطور هو الاساس لوجودنا ، فاننا يجب لذلك أن ننادى «بالتجربة» فى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى التربية .. والفصل بين المعنويات والماديات ليس حقيقة ، فالمادة والروح ، والجسم والعقل ، والفكرة والمادة ، كلها شىء واحد .. ومعارفنا عن الكون والاشياء ليست نهائية ، بل هى موقوتة بعمرنا فقط ، لان هذه الاشياء تتطور .. ونحن نتطور ، ولذلك فان فهمنا للاشياء يتغير .. وما عندنا من أفكار وآراء وعقائد وفلسفات ، مرجعها الى المجتمع الذى نعيش فيه ..

والتربية عند ديوى هى النمو الذهنى . ولما كان الذهن اجتماعيا فان المدرسة يجب أن تكون اجتماعية .. ولهذا يجب الا تنقطع بتاتا عن الاتصال بالمجتمع ..

سارتر .. زعيم الانفرادية

◆ **وهو** يجعل من الالحاد أساسا لفلسفته ومذهبه ، على الرغم من أن هناك وجوديين ، مثل جاسبر ، وجبرييل مارسيل ، يأخذون بمذهب الوجودية مع الايمان بالله .. وعندى أن وجودية سارتر ليست شيئا جديدا على أوربا الا من حيث لهجتها الهجومية ، وهى عندى أيضا ليست فلسفة . وقصارى ما أفهمه انها مذهب اخلاقى هو فى النهاية ثمرة النزعة المادية فى العلوم . كما هو ثمرة النزعة الانفرادية التى كانت تسود القرن التاسع عشر فى السياسة والاخلاق ..

ماهى الوجودية ؟.. هى انك موجود ، هى أنك وجدت .. ولكنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك فتصوغ نفسك وتستخرج أو تستخلص جوهرك .. فتصبح لك دلالة ، فانت وزير أو مؤلف .. فانت الذى تحيل نفسك من الوجود الى الجوهر .. فانت اذن مسئول عن حياتك ، لانك حر فى اختيارك للاشياء التى تنتهى بك الى هذا الجوهر .. وهذه المسئولية هى التى تدفع الانسان فى النهاية الى أن يكون مسئولا عن المجتمع ، لانه مادام يختار احسن الاشياء لنفسه فهو أيضا يختار هذه الاشياء ذاتها للمجتمع الذى يعيش فيه .

انى عندما اتأمل الوجودية التى طغت على الباريسيين هذه الايام ، أرانى افتقد فيها الفلسفة فلا أجدها ، وانتهى الى انها مذهب .. ولكنها مذهب ضار .. واعتقادى ان نجاحها يرجع اولا الى التفكير المادى الذى عم أوربا .. والى احساس الزهو الذى تضفيه الوجودية على المؤمن بها ، من حيث انه مستقل .. والى اليسر فى اسلوب سارتر الذى يجعل الاستاذ والطالب والحوذى يفهمونه ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : « كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و« كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم انتقلت بك منذ العدد (١٦) من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هو الفيلسوف الانجليزى المعاصر « برتراند رسل » فى كتابه المشهور « غزو السعادة »

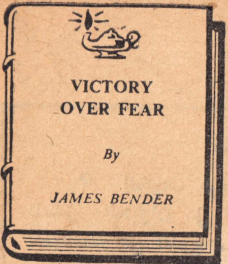
وبعده قدمت لك كتاب فرويد المشهور « التحليل النفسى » ، يليه « كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة » ، ثم « الجنس الاخر » ، و « عش حياة ايجابية » ، و « أبواب الحب المغلقة » و« فن الحب » للشاعر الرومانى أوفيد

واليوم أقدم لك هذا الكتاب الجزيل النفع فى « الانتصار على الخوف »

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..



الانتصار على الخوف

للعالم النفسانى الكبير
"جيمس بندر"





مشكلة كل انسان ..

◆ الخوف غريزة .. بل قوة طبيعية فطرت عليها نفوس البشر والحيوان على السواء ، حتى ليرى بعض العلماء انها لازمة للمحافظة على النوع ..

ولكن الخوف اذا طغى فاستبد بالانسان ، طبع حياته بالوجل .. والتردد .. والقلق .. والخجل .. والشعور بالنقص .. وكلها عوامل من شأنها أن تكبله بأغلال لا يستطيع معها المضى قدما نحو حياة ناجحة هانئة ..

وفى هذا الكتاب « الانتصار على الخوف » يعالج « جيمس بندر » ـ وهو من أقطاب علماء النفس فى أمريكا ، ويشغل منصب مدير معهد العلاقات الانسانيـة بنيويورك ـ هذا الموضوع الخطير بطريقته العملية والعلمية فى آن واحـد :

حاسة « تكتسب » !

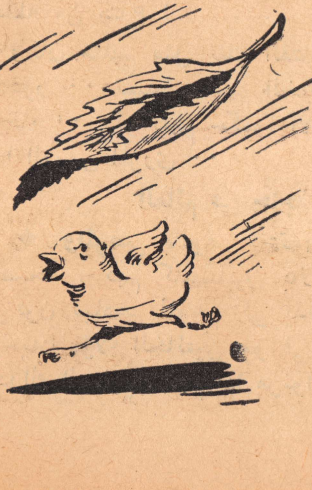
◆ **كادت** شابة فاتنة ، شقراء ـ يتألق نجمها فى سماء صالات برودواى الموسيقية ـ أن تقضى نحبها ، اذ أقدمت على تعاطى كمية كبيرة من الاقراص المنومة دفعة واحدة .. لأنها وجدت الديون تتراكم حولها فتسد أمامها كل منفذ وحيلة ، ولم يخطر لها ان من الدائنين من كان مستعدا لأن يصبر ويمهلها ، لو انه وجد منها عزما وتصميما على الجهاد للخلاص من الدين .. ولكنها فى الواقع لم تسع الى هذا الخلاص من أبوابه العملية .. ولم تحاول أن تعيش فى الحدود التى يمكنها منها دخلها ، بل كانت دائما تتجاوز هـذا الدخـل فى اسرافها .. كانت تفتقد سلامة الادراك وحسن التصرف فى المال !

وسلامة الادراك ليست مشاعا بين النـاس ، وانما هى حاسة تمكن من الادراك العام للاشـيـاء وتهدى الى حسن

التصرف فيما يتعلق بها ، وهى ـ بهذا الوضع ـ تبدو نادرة الوجود ٠٠ وكم من رجال نوابغ ونساء موهوبات ، افتقدوا الادراك السليم فى شئون حياتهم الخاصة !؟

أعرف مديرا لقسم المبيعات بشركة كبرى ، حرم من حسن الادراك فى الزواج ، حتى انه طلق الزوجة «الثالثة» منذ عهد قريب ! ٠٠ وأعرف فتاة حسناء ، تستطيع أن تكون من أجمل « الموديلات » للفنانين ، ولكنها تسهر فى المنتديات والملاهى ست أو سبع ليال فى الاسبوع !٠٠ كما أن لى صديقا من مهرة النجارين ، يعمل بجد ونشاط ، ويكسب كثيرا من المال ، ولكنه مع ذلك يعيش وأسرته عيشة بسيطة ، لأنه يبدد رزق أولاده فى المراهنة على خيل السباق !

كل هؤلاء من خيرة الناس ، ولكن فى تكوينهم خرقا يكفى لسده قليل من حسن الادراك والتصرف ٠٠ ويلعب الخوف عادة دورا جوهريا فى حياة أولئك الذين حرموا هداية حسن الادراك وارشاد حسن التصرف ٠٠



للخوف عدوى سريعة الانتشار !

◆ **ولعل** منا من لا يزالون يذكرون تلك القصة التى كانت فى كتب المطالعة الأولية : قصة « الكتكوت » الذى راح يجرى فى الساحة مفزوعا وقد خال ان السماء تهبط لتنطبق على الارض ، فما ان رأت بقية الدجاج جزعة حتى انطلقت بدورها

تبحث عن حمى وملاذ ‥ وكل ما كان هنالك لم يعد أن ورقة ذابلة هوت من احدى الاشجار فمست ذيل « الكتكوت » السريع الخوف !

بل لعل منا من لا يزال يذكر ذلك الحادث الذى أثار الذعر فى أمريكا بأسرها منذ حوالى عشرين عاما ‥ اذ كان « أورسون وليز » يقدم برنامجا اذاعيا ، فخطر له أن يخرج رواية « غزاة من المريخ » ، وهى قصة انساق فيها الروائى الانجليزى « هـ. ج. ويلز » وراء الخيال فرسم صورة وهمية لما يحدث لو أن كوكب المريخ كان مأهولا ، وهبط سكانه ليغزوا الكرة الارضية ! ‥ وانساق « وليز » بدوره مع الخيال ، فأخرج الرواية فى قالب واقعى ، وبدأها ـ دون تمهيد يوحى بأنها قصة ـ بأن اذاع نبأ هبوط مخلوقات من السماء فجأة ، وشروعها فى احتلال بعض المواقع ‥

وجزع الكثير من الامريكيين الذين كانوا ينصتون الى البرنامج الاذاعى ، واستبد بهم الهلع ‥ فهجروا المدن وانطلقوا الى التلال وقد حمل كل منهم أقصى ما استطاع أن يحمله من متاع !

وكان مثلهم مثل تلك الفتاة الفنانة ، و « الكتكوت » المذعور ‥ تسلط عليهم الخوف فدفعهم الى تصرفات طائشة خرقاء ‥ ولو انهم حكموا الادراك السليم ، لجنبوا انفسهم هذا الهوس المزرى ‥

العالم فى حاجة الى زعماء !؟

◆ **والمرضى** بالوهم يفتقدون سلامة الادراك لما يتعلق بالصحة ، فهم كالمصابين بالأمراض النفسية العصبية ، يتركون قيادهم للوهم كى يدفع بهم الى القنوط ‥ والأمل الوحيد لهؤلاء الخائفين هو فى أن يتعلموا كيف يمارسون الادراك السليم ، فهم اذا مرنوا عليه انجلت عنهم المخاوف ‥

ومن ثم فهم عادة فى حاجة الى شخص يحترمون رأيه ، ويتقبلون حكمه ، ويرتاحون اليه ، فيتبعون توجيهه لهم ‥ ومن أصلح الاشخاص لهذه المهمة ، الطبيب الانيس ، البشوش ، اللبق ، الذى يرى ان واجبه فى أن يبرىء مريضه لا فى أن يستبقيه تحت رعايته أطول مما ينبغى ‥ ومن ثم فهو يعين المريض على الشفاء بأن يطمئنه ، ويهدىء من هواجسه ، ويوقظ الادراك السليم فى نفسه ‥

وانا أومن عن يقين بأن اعظم واروع الصفات التى تمتاز بها الطبيعة البشرية هى انها قابلة للنمو فى كافة العصور ‥ ولولا ذلك لما تطورت المدنيات ‥ ولكن سر فترات الركود والخمول وعدم التقدم ، هو فى ان الزعماء الذين يتقدمون للأخذ بيد البشرية ، لا يؤتون البلاغة وقوة الاقناع الكافيين لحث الناس على نهج الطريق الصحيح ‥

فلنواجه الحقائق ‥

ولعل اعمق مأساة فى حياتنا جميعا ، هى اننا دائما لا نرحب بالحقيقة ولا نستجيب لها اذا واجهتنا ‥ فلو ان رئيس التحرير فى احدى دور النشر فقد منصبه ، لأشاح عن أى منصب يعرض له طالما كان أقل درجة أو مرتبا ، ولعاش حياته يتشبث بأمجاد الماضى ، حتى اذا اكتهل وجاوز مرحلة النشاط ، تبين حماقة تصرفه ، وندم على ما اضاع من فرص !

ولو أن أى شخص ممن يعانون الخوف ، تقبل هذه الحقيقة وآمن بأن فى مقدورنا أن ننمى فى نفوسنا حسن الادراك وبعد النظر ، لنحل مشكلاتنا اليومية على خير وجه ‥ لو آمن فريسة الخوف بذلك ، لحظى بطفرة هائلة تقربه من السعادة ‥

فنحن نستطيع فى الواقع ان ننمى فى نفوسنا حسن الادراك ، ولكن ‥ لو شئنا وأردنا ! ‥‥ وكم من آلاف البائسين الذين كان الخوف الطائش يشل طموحهم ويعرقل

تقدمهم ، وجدوا السبيل الى الطمأنينة والسكينة ، واتضحت لهم أسباب تحفزهم على الجد فى الحياة ، لمجرد انهم آمنوا بدعوة الادراك السليم !

الخوف أسرع منا جريا ، فلا سبيل للفرار منه !

◆ **أمامى** وأنا اكتب هذا الفصل من كتابى ، نسـخة من صحيفة نيويوركية تحمل صورة لامرأة جميلة ، وقد كتب فوقها بخط عريض : « تهرب ، من شدة الخوف » ٠٠ وجاء تحتها : « مسز (٠٠٠٠) التى تبحث عنها سلطات البوليس فى أربع عشرة ولاية ، لتزف اليها التأكيد بأنها غير مصابة بالسرطان ٠ فان هذه السيدة التى تبلغ الثلاثين من عمرها ، هجرت أولادها الثلاثة واختفت حين استبد بها الخـوف اثر فحص طبى خاطىء ، أوحى اليها بأنها مصابة بالسرطان ! »

ومع أن حال هذه السيدة يدعو للرثاء والاشفاق ، الا أننا لا نملك الا ان نقرر انها محرومة من الادراك السـليم ، والا لأدركت ان الفرار لن يحل مشكلتها ، لأن الخوف عادة اسرع منا جريا ، فكلما خيل الينا اننا سبقناه ، ألفيناه ماثلا أمامنا يتقدمنا ٠٠ ولو ان هذه المرأة لاذت بالادراك السليم ، لقـال لها : « اثبتى واصمدى ٠٠ يجب ان تواجهى الحقـائق ٠٠ فحتى اذا كنت مصابة بالسرطان فعلا ، فان عليك ان تبحثى عن العلاج ٠٠ ثم ، من ادراك ؟ ٠٠ لعل الطبيب اخطأ ، ولعلك لست مريضة ، فلم لا تعاودين الفحص مرة او اثنتين او ثلاثا على أيدى اطباء آخرين ؟ »

جاءتنى منذ ايام امرأة تشكو لى شـقوتها ٠٠ فمنذ عام ونصف هجرت زوجها ولما يكن قد انقضى على زواجها منه ستة شهور !٠٠ وأدركت من اجابتها على الاسئلة التى وجهتها اليها انها كانت تشتط فى الانانية كالأطفال ، وكانت تجهل اول مبادىء الحب ٠٠ فان الحب ينمو بالعطاء ، وينكمش بالأخذ

٠٠ ينمو كلما جاد المرء بعواطفه ، ويقل كلما طمع فى ان ينال مزيدا من صاحبه ٠٠ فاذا لم يعن المحب الا بارضاء نفسه وعواطفه ، واذا هو أفسح قلبه ليخزن السخائم والمنغصات ، فكيف يبغى ان يزدهر حبه ؟

قد تحاول زوجة شابة ان تعد بعض « البسكويت » لزوجها ، فاذا هى تتركه فى الفرن زمنا اطول مما ينبغى ، فيغدو أسمر اللون ٠٠ وهنا يحدث أحد أمرين : اما أن يكون الزوج أبله ، فينتقد البسكويت ويعيب صنعته ٠٠ أو ان يكون على قدر من سلامة الادراك ، فيطرى البسكويت ، ويملأ قلب الزوجة الواجفة ابتهاجا ، ويشجعها على ان تكون فى المرة المقبلة اكثر اتقانا واجادة ٠٠

فن السؤال ينمى حسن الادراك

◆ **وقد** يعود الزوج الى داره يحمل الى زوجته نبأ حصوله على علاوة ٠٠ ومع ان هذه العلاوة ربما تكون جاءت اقل مما كان يطمع ، الا ان مجرد ظفره بها يدخل الفرحة الى نفسه ٠٠ وهنا ـ أيضا ـ يحدث أحد أمرين : اما أن تكون الزوجة حمقاء فتسفه من قيمة العلاوة وتحط من قدرها ٠٠ أو أن تكون عاقلة، فتبدى ابتهاجا بها ، مهما كانت ضئيلة ٠٠ فأى الأمرين ادعى لتشجيع الرجل وحفزه على مضاعفة جهوده فى عمله ؟

ان الادراك السليم يجيب عن هذا السؤال قائلا : « ثانى الامرين بالطبع ! »

ولكن ، هل من وسيلة بسيطة لتنمية الادراك السليم ؟

أجل ٠٠ هناك طريقة تتمثل فيما نسميه : « فن السؤال » ٠٠ مثال ذلك ان عاملا فى (نيوجيرسى) ، ارهقه تدبير العيش لأسرته المؤلفة منه ومن زوجته وطفليهما ، فسأل زوجته : « كيف نستطيع ان نغالب ارتفاع الاسعار يا حبيبتى ؟ » ٠٠ فاقترحت من ناحيتها ان تعمل على الحد من

النفقات التى تصرف على الطعام ٠٠ لكن هذا الحل لم يكن كافيا ، فانتهى الزوج الى بيع آلة ثمينة للتصوير كان يملكها ، واشترى ثلاجة لحفظ الاطعمة ٠٠ وعمد الى وضع برنامج لابتياع المقادير اللازمة من الطعام للاسبوع كله ، معتمدا على الثلاجة ، فاذا الابتياع بالجملة يحدث وفرا فى اثمان الطعام ، ووفرا فى كمياته ٠٠

وهكذا ساعده السؤال الذى وجهه الى زوجته ، على تنشيط ذهنه والعثور على مخرج ملائم ٠٠

الخوف من الخطأ يعرقل البت فى الامور

◆ **واذا** كنت من صرعى الخـوف ، فمن المرجـح انك لا ترضى عن كثير من قراراتك ، وهذا التردد من شأنه ان يفسد الكثير منها ، فلا تلبث ان تفقد ثقتك فى قدرتك على الحكم والبت ، وتصبح متشائما ، فيخيل اليك ان الحظ يعاندك ويعاديك ٠٠ وكلما اوغلت فى الارتياب فى مقدرتك ، ازدادت مخاوفك !

ولكن ٠٠ لا تدع هذا يثبط عزيمتك وهمتـــك ٠٠ فان الادراك الصحيح كفيل بأن ينقذك لو شئت أن تجربه !

اعتدت فى الحلقات الدراسية التى اعقدها لتلاميذى من اعضاء الهيئات الادارية فى الشركات ، ان اسألهم عما يعللون به سلامة القرارات التى يصدرونها فى اعمالهم ٠٠ **وقد لاحظت انهم يجمعون على ان هذه السلامة لا ترجع الى موهبة خاصة ، وانما مردها حسن الادراك فحسب ! ٠٠ ولعل من المهم فى هذا المجال انهم يعترفون بأن مقدرتهم على وضع القـــرارات الصحيحة انما تولدت عن التجربة والخطأ ٠٠ فهم يسعون بغاية جهدهم ، ويدعون النتائج للمقـــادير دون أن يحملوا أنفسهم همها ، فما ينبغى لهم ان يزعزعوا صحتهم بالتفكير فى أمور خرجت من نطاق قدرتهم وغدا زمامها فى قبضة قوى**

فوق نفوذهم .. وما ينبغى لهم ان يشيعوا بقلقهم وترددهم روح الاضطراب والارتباك بين من يعملون تحت امرتهم ..

وهم يشيرون بخمس خطوات لمن يشاء ان يحذق فن اتخاذ القرارات الصحيحة :

الخطوة الاولى : جمع الحقائق أولا ، فليس لذوى المسئولية ان يعتمدوا على مجرد التخمينات ، وان يعرضوا الأموال المستثمرة فى المشروعات التى يديرونها للضياع نتيجة الحكم على الامور على ضوء تقديرات غير مدعمة بأسانيد . وانما هم يستعينون بالخبراء ، ومعامل التجارب والابحاث ، واحصاءات السوق ، والهيئات المختصة ..

ومن هذا نستطيع ان نقتبس لأنفسنا مبدأ لحل مشكلاتنا ومخاوفنا الشخصية ، فعلينا أولا أن نجمع الحقائق اذا شئنا أن نستغل ما لدينا من وقت أو جهد . ومن الجهات التى يمكن ان نستعين بها فى هذا الصدد ، المكتبات العامة ، التى نجد بين جدرانها مراجع نسترشد بها فى كل موضوع.

الخطوة الثانية : تحرى الوقت الملائم لكل قرار .. اذ ينبغى ان تكون سريع البت فى الحالات التى لا بد فيها من قرارات عاجلة .. وأن تعنى ، ما وسعتك العناية ، بتحرى الدقة فى القرارات الهامة ، فان هذه تحتاج الى شىء من الأناة والتريث .

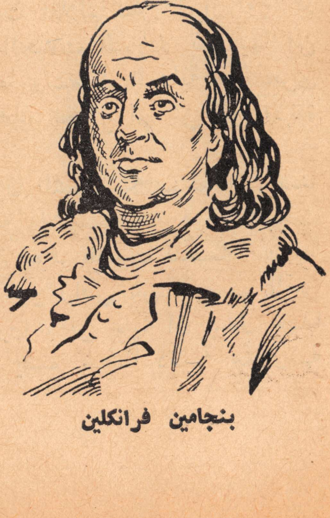
وقياسا على ذلك ــ فى الشئون الشخصية ــ لو افترضنا أن شخصا فقد عمله ، فان عليه أن يقرر من فوره البحث عن عمل آخر ، اذ لا بد له من أن يوفر القوت لنفسه .. أما اذا كان باقيا فى عمله ، ولكنه غير راض عن المنصب الذى يشغله ، فليس له أن يستقيل فورا ، بل عليه أن يبذل جهدا مضاعفا لتحسين حاله ، أو أن يضع خططا دقيقة مدروسة للبحث عن عمل آخر ..

فاذا قرر البحث عن عمل آخر ، فان عليه أن يحدد أولا نوع العمل الذى يشعر انه أقدر على النجاح فيه٠٠ وأن يبنى هذا التحديد على أساس من الوقائع والحقائق ٠٠ فاذا ما اطمأن ، شرع فى رسم الخطط للحصول على العمل ٠٠ مع الحرص على التشبث بالمنصب الذى يشغله ريثما تنتهى خططه الى النجاح ٠٠ وهذا هو منطق الادراك السليم !

وفى أمريكا ، دلت الاحصاءات على أن ٨٤ فى المائة من السكان لا يستخدمون سوى ٣٠ فى المائة من كفاءاتهم ومقدرتهم ٠٠ أما الستة عشر فى المائة الذين يستخدمون كفاءاتهم وادراكهم السليم أكمل استعمال ، فهم أقل أهل أمريكا تعرضا للمخاوف !

والخطوة الثالثة : لا ينبغى ارجاء عمل اليوم الى الغد ٠ ومما يؤثر عن « بنجامين فرانكلين » انه كان يعتبر التسويف نوعا من السرقة ، لأنه يحرم المرء من الفرص ٠ وهذا صحيح بالنسبة للخوف صحته بالنسبة للعمل، فاذا انت تركت الخوف يمضى فى حال سبيله دون ان تقضى عليه ، نما واستفحل ٠٠

لذلك يحسن ان تبدأ فورا بالتخلى عن عادة التسويف ان كنت مصابا بها ٠٠ واحرص - فى البداية - على البت فى صغار الامور دون ارجاء ، فلا تلبث ان تجد البت فى الكبير منها يواتيك بسهولة ٠٠



بنجامين فرانكلين

والخطوة الرابعة : تعرف حكم الغير واحترمه ، اذا ما ترددت فى الاطمئنان الى صحة قراراتك · فان آراء الغير تشحذ قدرتك على انتقاد قراراتك ، وعلى تحرى الصواب · وقديما قيل ان رأيين خير من رأى ، ومن ثم فاعرض آراءك على اصدقائك وزملائك لتتعرف حكمهم عليها ··

وانى لأعرف رئيسا لتحرير احدى المجلات ، اعتاد ان يعد نماذج لغلافات أعداد مجلته ، ثم يعرضها على خادمه وساعى مكتبه وبعض اصدقائه ·· وهو يهتم اهتماما خاصا بآراء الخادم والساعى

والخطوة الخامسة : اصغ الى كل هاتف ينبعث فى نفسك ··

قرأ أحد صناع العدسات الابصارية مرة مقالا عن الجمع بين نوعين مختلفين من النظارات ، فاذا بهاتف فى نفسه يسائله : لم لا تجمع بين مقاسين مختلفين من العدسات في عدسة واحدة ؟!

وتملكته الفكرة حتى انه باع فى سعيه لتحقيقها كل ما كان يملك ! ·· وكان اصدقاؤه يشفقون عليه ، وزوجته تظنه قد جن ·· ولكنه انتهى الى نجاح فى إنتاج العدسات المزدوجة اغرى الكثيرين على أن يسارعوا الى امداده بالمال ليبدأ مشروعا كبيرا أثرى من ورائه !

والزعماء والقادة فى مختلف نواحى النشاط يصغون الى ما ينبعث فى اعماقهم من هواتف ·· وليس معنى ذلك انهم ينساقون وراءها انسياقا اعمى ، وانما هم يقدرونها بمقياس تجاربهم ، ويجمعون الحقائق ، ويتحرون الوقت المناسب ـ متفادين الارجاء والتسويف اذا ما حان ـ ثم يتخذون قراراتهم ··

هذه هى الخطوات التى تستطيع ـ وأستطيع انا الآخر ـ بفضلها ان نبت فى الامور بقرارات صحيحة ، وان نتخلص من الخوف من الشروع ، ومن التردد فى البت ٠٠

الخجل سخافة منشؤها الخوف !

◆ **هل** تذكر تلك الآونة من عمرك ، التى كان الخجل خلالها يسيطر عليك ؟ ٠٠ وهل تذكر الألم الذى كنت تعانيه والحرج الذى كان يتولاك بسبب هذا الخجل ؟

تبين الدكتور « ا٠ ا٠ روباك » ـ من اقطاب علماء النفس ـ ان ٣٥ فى المائة من البالغين فى أمريكا ، يعتقدون ان الخجل والارتباك هما العقبة الكؤود فى طريقهم الى النجاح فى الحياة !

وليس الخجل لدى الشخص الناضج نوعا من الكبرياء ، ينبع من حب الذات ٠٠ وانما هو ينشأ عن خوف المرء من ان يسىء الناس تقديره ٠٠ وعن خوفه من ان يكشف فى احاديثه وتصرفاته عن شىء من الجهل ٠٠ وعن خوفه من ان يخفق فى الفوز باعجاب سواه ٠٠ فالخجل ـ على هذا الضوء ـ عبارة عن ٠٠ خوف !

والتصرفات التى تصدر عن الشخص الخجول تصرفات لا شعورية ـ فى حقيقتها وأصلها ـ يرمى بها الى ان يعفى نفسه من الخوف والشك ، فلا تلبث ان تحول بينه وبين الشهرة والرقى ، وتحمله على ان يرفض الفرص ويتهرب منها ٠٠ !

والواقع انك لا تخشى أبدا ما تفهمه وتدركه ، فليس يبعث الخوف فى النفس سوى الشىء المجهول ، المبهم٠٠ وهذا الخوف يجعلك خجولا ، مترددا ٠٠ وكثير من الناس يحجمون عن سؤال الغرباء عنهم ، اذا ضلوا الطريق فى مدينة كبيرة مثلا ، مع ان الامر لا يستدعى الخجل ٠٠ لأن كل انسان معرض لأن

يحتاج الى ارشاد الغير ، ولأن هذا الارشاد واجب على كل من اوتى المعرفة ٠٠ والمثل القديم يقول : « من قدم السبت وجد الأحد ! »

ولعلك خبرت يوما ذلك الموقف المحرج الذى يحدث اذا تقدمت بسؤال لشخص غريب ، فاذا هو يعرض عنك ويتجاهلك ويمضى فى طريقه ! ٠٠ ولكنك ما كنت لتعانى الحرج و « الخجل » لو انك واسيت نفسك باقناعها بأن الغريب هو الجدير بالرثاء ، لانه خجول ، وخجله هو الذى جعله يفر من الاستماع اليك ومساعدتك ٠٠

والواقع ان معظم الناس يتهيبون الاتصال بمن لا يعرفون ٠٠ وكم من شبان دعوا لمقابلة مسئولين أرادوا ان يعهدوا اليهم بأعمال ، فراحوا يطوفون بمكان اللقاء مرات ومرات قبل أن يستجمعوا جرأتهم ويلجوه ٠٠ وهذا التردد من شأنه ان يجعلهم ـ اذا ما اجتمعوا بالمسئولين ـ فى حالة لا تخلف أثرا طيبا فى نفوس هؤلاء ٠٠

لذلك فمن اهم الامور لك ـ اذا كنت مقدما على ميدان الاعمال ـ ان تهزم الشعور بالخجل، لكى تصل الى غاياتك ٠٠ اذ أن تهيب الناس كفيل بأن يؤثر على تفكيرك ، وأن يشل المواهب التى لديك والقوى التى فى نفسك ، وأن يسلمك حيرة وعى وبلادة ذهن ٠٠ ومثل هذه الحال فى دنيا الاعمال قد تضيع الفرص ، لا عليك وحدك ، بل وعلى الاعمال التى تمارسها ٠٠

ولو انك أنعمت النظر فى الخجل لوجدته لونا من السخافات الحمقاء ٠٠ اذ ما الذى يجعلك ـ أو يجعل اى شخص رشيد ـ فى حرج وخجل امام اى شخص آخر ؟ ٠٠ ان هذا الشعور لا يعود عليك بالاحترام ، ولا يبديك فى نظر الغريب بمظهر الشخص الذى يوليه حقه من الاحترام ٠٠ انه

يوحى للغريب بأنك تفتقد الثقة فى نفسك ومواهبك ، فلا يلبث أن يحكم عليك بأنك لم تستكمل بعد نضوجك ٠٠ وهذا هو الحق ، فان الخجل نوع من نقص النضوج النفسى والحسي ، ينبعث عن تأخر الشخص فى اجتياز مرحلة المراهقة ـ النفسية ـ والتغلب على مخاوفها ٠٠

٦ خطوات للتغلب على الخجل

وخليق بك اذا كنت تشعر بالخجل وتريد ان تتغلب عليه ، ان تتبع الخطوات التالية :

أولا : اعن بنفسك ٠٠ فاستكمل نموك وصحتك واصلح عاداتك وتصرفاتك وملبسك ٠٠ فان هذا يجعلك تطمئن الى مظهرك والى كل ما يصدر عنك فيبعث الثقة فى نفسك ٠٠ واحرص على الظهور بمظهر المعتد بنفسه ـ فى غير غرور ـ فلا تلبث ان تعتد بها فعلا

ثانيا : اعن بكلامك ٠٠ قل ما ترمى الى قوله ، وتخير الكلمات الدالة على المعنى الذى تهدف اليه ٠٠ واذا استدعى الامر فلا تتردد فى أن تتلقى دروسا فى فن الحديث والمناقشة والالقاء ٠٠ وتعلم كيف تحسن الاصغاء الى الغير ٠٠ وتذكر دائما ان الكلام الطيب ذو طابع مزدوج ٠٠ فبينما تتكلم ، يحسن بك ان تفكر فيما تقول ، وان تفكر فيمن ينصتون اليك ، فتطلع اليهم بوجه بشوش يرتسم عليه من التعبيرات ما يجعلهم يستجيبون لوقع حديثك ٠٠ واذا حرصت على التفكير فى هاتين الناحيتن فلن تجد فرصة للتفكير فى نفسك ، وبالتالى ، للخجل ٠٠

ثالثا : توقع الاعتراضات : فمن مستلزمات الحديث ـ الاجتماعى والتجارى على السواء ـ ان يعترض المنصت استرسال المتكلم ، وان يقاطع عباراته ، لأن الحديث تبادل وتجاذب ٠٠ فلا تدع الاعتراض يربكك او يشتت فكرك او ينسيك النقطة التى كنت تتحدث عنها

رابعا : كن مؤمنا بنفسك : اوح اليهـا بأنك ذو قيمة فى الحياة ، لأن لك مواهب وكفاءات خاصة ٠٠ ولكى تقنعها ، اكتب بيانا بالمواهب والميزات التى ترى انك احرزت منها فوق المتوسط : كالذكاء ، والمعرفة ، والمثل العليا ، والدخل ، والعمل ، والصحة ٠٠ وما دمت لا تبالغ أو تغالط ، فثق ان ادراكك لمواهبك كفيل بأن يطمئنك ، وبأن يطلعك على نواحى ذاتك وحياتك ، وبأن يفسح امامك المجال لاصلاح ما يحتاج منها الى الاصلاح

خامسا : فكر فى الشخص الذى يساورك الخجل اذ تتحدث اليه ٠٠ ان فى حياته هو الآخر فترات يراوده فيهـا الشك ، والهم ، والقلق ، والخوف ، ولعلها تسلمه الى الخجل ، فاشفق عليه ، وتناس نفسك فى سبيل تفهمه وتمهيد الجـو له كى يغالب خجلـه ازاءك ، ورحب به ، وابد امامه من العواطف اصدقها ، تجد ان لا سبيل للخجل عندك ٠٠

سادسا : تعشق بعض الهـوايات التى تسـتطيع أن تمارسها مع الغير مرة او اثنتين فى الاسبوع ٠٠ او التحـق ببعض الدراسات الاضافية او المسائية ٠٠ فان اتجـاهاتك الجديدة واصدقاءك الجـدد سيشـجعونك على ان تشـكل شخصيتك فى القالب الذى يجتذب الغير اليك ، وسيبعث فى نفسك الشعور بالفخر ، فلا تجد وقتا للخجل ٠٠

ومن الطبيعى ان مغالبة الخجل تحتـاج الى وقت ، وقد تعترضك عوامل تعرقلك او تحدث شبه نكسات ، ولكن هـذا لا يجب ان يثنيك عن هدم عاداتك وتصرفاتك القديمة ٠٠

الثقة فى النفس وفى الناس

◆ **عندما** تألق نجم الممثل « ويل روجرز » فى سماء ملاهى « برودواى » ، دعاه المنتج السينمائى « وليم فوكس » يوما وقال له : « ما رأيك فى ان تؤدى ادوارا فى افلامنا ؟ »

وابدى « روجرز » قبوله للفكرة ، فقـال له « فوكس » : « اذن أرجو ان تزورنا ، وان تحضر معك محاميا لكى يدرس العقد ، حتى نبدأ فورا .. »

ودهش فوكس حين رأى « روجرز » يقبل منفـردا ، دون استشارة أحد ، بينما كان هو قد احاط نفسه بمحـاميه ومستشاريه .. وبعد المجاملات العادية ، سأله عن محاميه ، فقال روجرز :

ـ وما حاجتى الى محام ؟ .. اتحب ان املى عليك صيغة عقد مناسب ؟

وتبادل فوكس ومستشاروه ابتسامة استخفاف ، بينما شرع الممثل يملى : « يوافق ويل روجرز على الظهور فى افلام شركة فوكس ، كما تتعهد شركة فوكس بأن تدفع لويل روجرز اتعابا عن الادوار التى يؤديها »

وبهت المحامون ، ولكن « فوكس » أقر العقد ووقعه ، فكانت هذه بداية رابطة سعيدة عادت بالخير على روجرز وفوكس

واعرف أخوين يمتلكان شركة ناجحة للتصدير ، انشأها أكبرهما ثم ضم شقيقه اليه ، دون أن يعنيا باتخاذ أية اجراءات قانونية ، أو تحديد نصيب كل منهما ، بل ان كلا صار يأخذ ما يحتاج اليه عندما يحتاج اليه .. ومع ذلك فان شركتهما تسير فى ازدهار ونجاح ..

ونحن اليوم احوج ما نكون الى الثقة فى الناس والاطمئنان اليهم .. بل ان الثقة عنصر جوهرى نحتاج اليه فى علاقاتنا بالناس ، وفى ايماننا بالآراء والأفكار ، وفى نظرتنا الى نواحى الخير فى كل الامور .. انها اساس العـلاقات الطيبة بين بنى الانسان ..

وفوق ذلك ، فان اظهار الثقة كفيل بأن يبعث على الطمأنينة .. طمأنينتك أنت ، وطمأنينة أولئك الذين تتصـل بهم فى حياتك اليومية .. ونحن اذ نبدى الثقة بالناس ، نوحى اليهم

بأننا نضع فيهم آمالا جساما ٠٠ وهذا من شأنه ان يحفزهم على الخير ٠٠ ويحفزك انت الآخر ! ٠٠ ولقد اثبت علم النفس الحديث ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ ان ما يخالجنا من احساس نحو الناس ، مقياس دقيق لما لدينا من احساس نحو انفسنا ٠٠ فاذا توقعنا السوء من الغير ، امطنا اللثام عن ضعة فى نفوسنا ، او عن ضعف تقديرنا لها ٠٠ ومن ثم فخير ما ينبغي ان نبدأ به هو ان نقيم وندعم فى نفوسنا الايمان واليقين والثقة ٠٠

وعلى العموم ، ففى وسعنا ان نقول ان جميع الناس الذين يعانون من انهيار فى مشاعرهم وعواطفهم ، أو بمعنى آخر ، الذين ينفرون ويشيحون عن الغير ، انما يكنون فى نفوسهم شعورا بضآلة شأنهم ٠٠ وينشأ عن افتقارهم الى الايمان بأنفسهم والثقة فى غيرهم ، خوف وقلق ينتهيان بهم الى المصحات العقلية ٠٠ اذ ان تعطشهم الى الايمان والثقة فى الغير ، يستفحل حتى يضطرهم الى محاولة الفرار منه باللجوء الى الخبل والجنون !

والواقع ان الثقة فى الغير والطمأنينة اليهم لون من الوان الحب دعت اليه الديانات والفلسفات ٠٠ ولعل ابشع انواع الخوف هو ذاك الذى يتأتى عن الافتقار الى الايمان بالله ٠٠

الذكاء أم الايمان ؟

وأعتقد أن مدنية عصرنا الحاضر تساعد على تنمية أذهاننا وتفكيرنا اكثر مما تعمل على تنمية ذكائنا ٠٠ اعنى انها تتجه بنا الى شحذ نشاط اذهاننا على حساب بصائرنا وأرواحنا ٠٠ ومن الامثلة الدالة على ذلك ، اننى تلقيت فى حياتى دراسات جامعية فى اكثر من خمس وسبعين مادة ، ولا اذكر أبدا ان واحدا من الاساتذة الذين درست عليهم حاول مرة ان يربط بين المادة التى يدرسها وبين القيم الروحية بطريقة مباشرة ٠٠ ولقد ظللت ست عشرة سنة القي دروسا في الكليات

والجامعات ، ولست اذكــر ـ فى كل علاقاتى بزملائى ـ ان منهم من حاول ان ينشىء صلات بين ميدان دراســاته وبين السمو بالروح البشرية ، اللهم الا واحدا او اثنين على الاكثر ٠٠ وانما كان الهم الاكبر للجميع ، هو التعمق فى موادهم لمجرد المعرفة بهذه المواد فحسب ٠٠ اى انهم يأخذون العلم لمجرد العلم ، لا كوسيلة لتقريب الانسان الى اخيه الانسان ، او الى الله !

القيم الروحية أجدى من المعرفة ٠٠

والحقيقة ان عالمنا فى حاجة ماسة الى القيم الروحية اضعاف حاجته الى المعرفة ٠٠ فان الروح البشرية تحتــاج الى تهذيب وتنقية وتنمية فوق ما تؤدى اليه المعرفة والتنمية الذهنيـة والفـكرية ٠٠ وهذا هو السبب فى ان الحـروب والاضرابات والطلاق وغيرها من الوان التداعى فى العلاقات البشرية لا تفتأ تفرقنا ٠٠

ويشرح العالم العالمى « البرت اينشتاين » هذه النقطة من ناحية اخرى فيقول : « يبدو ان كمــال الوسائل وفوضى الاهداف ، هى طابع عصرنا ٠٠ فلو كنا نرغب ـ مخلصين ، متحمسين ـ فى سلامة ورفاهية جميع البشر وفى تنميــة مواهبهم تنمية حرة مطلقة ، لما اعوزتنا الوسيلة الى مثل هذه الحال ٠٠ بل لو ان قسما صغيرا من الجنس البشرى كافـح فى سبيل مثل هذه الغايات ، لتجلى على مر الزمن سموه على كل البشر »

وما الايمان بعد كل هذا ؟ ٠٠ ان القواميس اللغوية تضم عشرات التعريفات له ، ولكنى اوثر من بينها هذا التعريف : « انه الاعتراف بالحقائق الروحية والمبادىء الخلقية وبأن لها سلطة شاملة وقيمة سامية »

ثم ٠٠ لنذكر دائما ان القلب هو الذى يحس بالايمـان ، وليس العقل !

الايمان ٠٠ والاكتشافات العلمية

◆ **ونحن** حين نؤمن بالعدالة الالهية ، نتيح لانفسنا أعظم مورد للامن والطمأنينة ، وخير رد على جميع مخاوفنا ! ٠٠ والايمان بالعدالة الالهية مسألة شخصية ، على اننى أحب أن أذكر هنا مثالا لما يتأتى عن الايمان :

فمنذ سنوات عديدة ، أقبل « تشارلس كيشرينج » ـ من أهالى وايتون بولاية أوهايو الامريكية ـ على سيارته ذات صباح ، وراح يدير اليد التى تحرك محركها ، حتى اذا أحس بالتعب قال لنفسه : « لا بد أن ثمة طريقة خير من هذه ، فقد كادت ذراعى تنخلع » ٠٠ ٠٠ وفى مساء ذلك اليوم ، لجأ الى «ورشة» صغيرة أقامها فى داره ليعمل فيها فى أوقات فراغه ، وكتب عشر وسائل لتحقيق طريقة لادارة محرك السيارة أوتوماتيكيا ٠٠ وأخذ يجرب كل طريقة على حدة ، حتى توصل الى الطريقة التى عرفت باسم « ديلكو »

ولقد اطرد اكتشافنا لنواحى تطبيق القوانين العلمية بسرعة عجيبة خلال السنوات الخمسين الاخيرة ، وكان من جراء ذلك أن أصبحت فى خدمتنا السيارات ، والطائرات ، والجرارات ، والغواصات ، والمذياع ، والتليفزيون، ومئات الاجهزة الآلية٠٠ ومع ذلك ، فان القوانين العلمية التى أتاحت لنا كل هذه الاشياء ، كانت معروفة فى أزمان الاغريق والرومان !٠٠ ذلك لانها من وحى القوانين الطبيعية ٠٠ والانسان لا يخلق القوانين الطبيعية ، لانها وجدت مع الطبيعة ، وانما هو يرفع الحجب من وقت الى آخر ، ليلقى نظرة خاطفة على ابداع المبدع الاكبر ـ الله ـ وعندما نكشف فى هذه اللمحات القانون الطبيعى الذى يخضع له السرطان ـ مثلا ـ فاننا لن نلبث أن نسيطر على السرطان ٠٠ فان هذا القانون موجود ، ولكنه بحاجة الى من يهتدى اليه ٠٠

ونحن اذ نقول «القوانين الالهية» ندرك أن هناك من سيسيء

فهم ما نقصد ٠٠ ولكني شخصيا أعتقد أن القوانين الالهية واحدة في جميع الاديان والعقائد ٠٠ وفي وسع كل امرىء أن يبصر بالقوانين الالهية ويمارسها ولو لم يكن يتردد على الكنيسة ٠٠ ومن ناحية أخرى ، يرى البعض انهم بحاجة الى أن يشهدوا الطقوس الدينية كى تثير فى نفوسهم الرغبة فى التفكير فى الامور المتعلقة بالايمان والقانون الالهى ٠٠

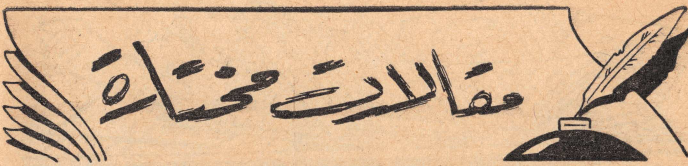
ولقد وفق الدكتور جوردون آلبورت حين قال ان « الايمان فى أصله هو اعتقاد المرء بصلاحية هدف من الاهداف وامكان بلوغه » ٠٠ فاذا جعلنا الايمان ـ بمعنى الثقة ـ بالجنس البشرى وبأنفسنا وبالقانون الالهى أهدافا لنا ، استطعنا أن نحرر حياتنا من ربقة الخوف ٠٠

كل منا خبر ، ولا بد ، ذلك الشعور الذى يخالجنا فى بعض الاوقات فيجعلنا نصبو الى قوة فوق تلك التى أوتيناها ٠٠ ومن ثم فنحن نتجه الى منبع تلك القوة ٠٠ الى الله ٠٠ والقانون الالهى ٠٠ والدين ٠٠ ومن هذا المنبع تفيض علينا الراحة والسكينة ، والتشجيع على العودة الى المحاولة ٠٠ وخلال الصلاة والادعية ، نهتدى الى المنفث الذى نفضفض خلاله مخاوفنا ومتاعبنا ، فيساعدنا هذا على أن نبصر المعجزات التى تحيط بنا والتى تهدينا الى ما نرجو ٠٠ وما أكثر المعجزات فى الحياة ٠٠ وأبسط مثال لذلك ، أن عملية السير العادية تتضمن تحريك ٣٨٥ عضلة و٢٢٢ عظمة فى جسد الانسان ٠٠ وهذا التحريك انما يسير على نظام موروث لا يد لنا فيه ٠٠ أفبعد هذا من معجزة !؟

ثم ، أليس العقل البشرى معجزة ؟٠٠ وأليس التحقق من أننا نستطيع أن نقهر الخوف بمجرد تغيير مسلكنا ، معجزة ؟

والخلاصة ان الايمان ـ وهو قوة لا تتيسر الا بالتفكير الايجابى ـ يستطيع أن يبرىء جراحنا ٠٠ ولكن أعظم معجزاته انه يمكننا من أن نظفر بالغلبة على الخوف !


دائرة معارف
الثقافة العالمية
مطالعات
في الكتب والمجلات والموسوعات
ومشاهدات
في المسارح والمعارض
ودور السينما.



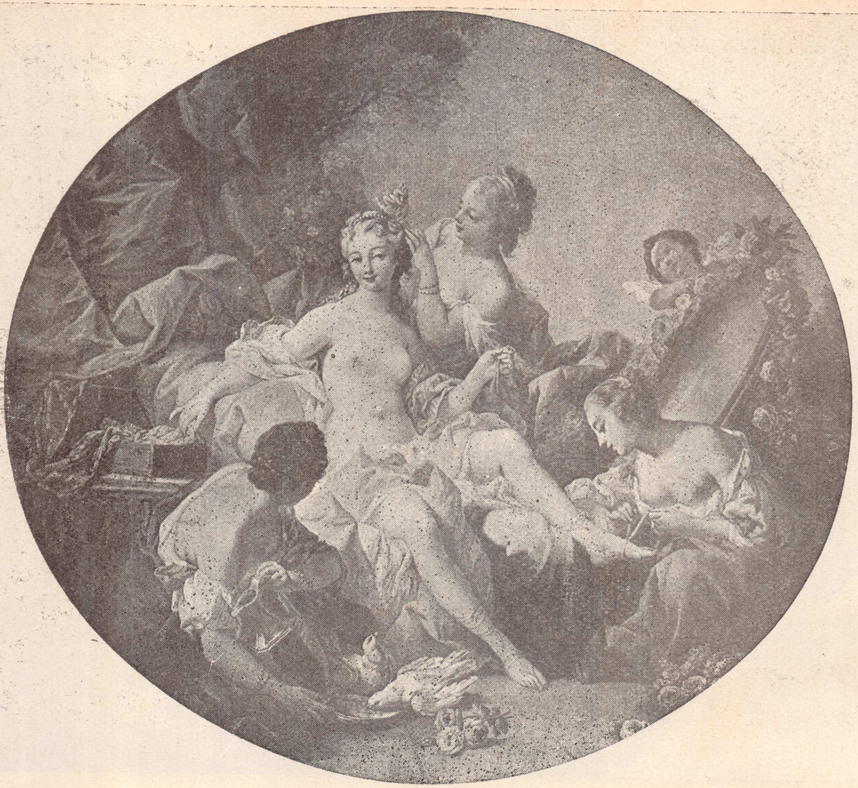
اختبر شخصيتك

هل تعرف رأى الناس فيك ؟

◆ ان المرء لا يستطيع ان يعرف مدى حب الناس له ، أو ضيقهم به ، الا اذا انصت الى الأحاديث التى يتبادلونها عنه فى غيابه .. وهو أمر قل ان تسنح الفرصة به .. على ان الأسئلة التالية تمكن المرء من ان يتعرف الى مدى شعور الناس نحوه .. واذا كانت قد وضعت فى صيغة توحى بأنها موجهة الى الجنس اللطيف ، فما ذلك الا لأن الجنس اللطيف هو اكثر الجنسين ولعا بأن يكون محبوبا لدى الناس ، وأكثرهم فضولا الى تعرف شعور الناس، واكثرهم فضولا الى تعرف الغير - لا سيما الجنس الآخر - نحوه .. أما فيما عدا ذلك ، فهى اسئلة تصلح للجنسين على السواء :

حاول - أو حاولى - الاجابة عن كل سؤال فى صراحة تامة، وصدق كامل .. ويلاحظ ان كل سؤال مكون من جزءين ، كل على نقيض الآخر ، فاذا كانت الاجابة «نعم» عن كل الاجزاء الثانية من الاسئلة، فمعنى ذلك انك لا تصلح - أو لا تصلحين - لمعاشرة الناس .. ولعلك قد اكتشفت ذلك بنفسك فعلا ! .. أما اذا كانت الاجابة « نعم » عن الاجزاء الأولى من جميع الاسئلة ، فانت اذن .. ملاك ! .. وان لم يخلق بعد بين الآدميين ملائكة !

وحتى اذا اجبت بـ « نعم » عن الجزء الاول من ٢٥ سؤالا فقط ، فهذا دليل على انك شخص لطيف المعشر .. أما الاجابة بـ « نعم » عن الجزء الثانى من ٢٥ سؤالا أو أقل فهى تكون بمثابة الضوء الاحمر ، الذى ينذر بالخطر .. وفى هذه الحالة لا بد من العمل على اصلاح نفسك ما استطعت .. فالمرء اذا بدأ يميل



« فينوس » تتزين !

لوحة للرسام الفرنسى « فرانسوا بوشيه »



المرأة لعبتها الرجل ! من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »

الى انتقاد الناس ، ولومهم ، وقبض يده عنهم ، لا يلبث ان ينحدر من سىء الى اسوأ ، بسرعة .. والاصدقاء وان تحملوا طويلا سوء الطباع وخشونة المعاملة ، الا أن لصبرهم نهاية ، ولن يلبثوا ان ينفضوا عنك ويخلفونك للوحدة الموحشة ..

ولا سبيل لتجنب هذه الوحشة الا بتحمل العناء من أجل معاملة الناس باللطف والحسنى ، ومن اجل ارضائهم واكتساب ودهم وميلهم .. وحذار من التعنت وصعوبة المراس وجمود الرأس وضيق الافق .. فهى فى أغلب الاحوال اسوأ عادة .

والآن ، اليك الاسئلة التى ترشدك الى شخصيتك .. فأجيبى عنها بكل صدق وصراحة :

١ ـ هل تفتحين بيتك لكل وافد ؟ .. أو تعتبرينه « برجا عاجيا » لا تستقبلين فيه الوافدين ما لم يستأذنوا مقدما فتحددين لهم موعد الزيارة ؟

٢ ـ هل تعتقدين أن البيت انما أعد للحياة وللاستمتاع بما فيه ؟ .. أو تغالين فى الاعتزاز بمقتنياتك وتكرهين ان يمسها أحد ؟

٣ ـ هل تؤمنين بمقتضيات المشاركة ؟ .. او انك تتوهمين ان كل شىء من حقك وحدك ؟

٤ ـ هل تراعين الغير وتحترمين وجودهم ؟ .. او ترين انك محور الوسط الذى تعيشين فيه ؟

٥ ـ هل تشعرين بمتعة فى « تقديم » الهدايا ؟ .. او انك لا تستمرئين سوى « تلقى » الهدايا ؟

٦ ـ هل تحبين اهل اللطف والفكاهة ؟ .. او انك لا تحفلين الا بما يمكن ان يدخلوه على نفسك من ايناس ؟

٧ ـ هل تقصرين اهتمامك على شئونك الخاصة ؟ .. او انك تقحمين نفسك فى شئون سواك وتفرضين تدخلك ؟

٨ ـ هل تتراجعين عن قرار اتخذته ، اذا كان فى رجوعك ارضاء لسواك ؟ .. او انك دائما متعنتة صلبة ؟

٩ ـ هل انت كريمة ، متلطفة مع الغير ؟ .. او انك تتوقعين دائما من الغير ان يكونوا هم الذين يراعونك ويجاملونك ؟

١٠ ـ هل تحسنين الاصغاء للغير ؟ .. او انك تحبين ان تستأثرى بالكلام طيلة الوقت ؟

١١ ـ هل تعتذرين اذا استبنت خطأك ؟ .. أو تفتاظين لذلك ؟

١٢ ـ هل أنت واسعة الافق والادراك ؟ .. او انت كتلة من التحامل والاغراض وسوء الظن ؟

١٣ ـ هل انت متساهلة ؟ .. أو تحبين ان تكون لك الكلمة العليا فى كل امر ؟

١٤ – هل تأخذين الامور كما تتأتى ؟ .. او انك تحاولين كشف العيوب والاخطاء ؟

١٥ – أأنت سريعة الانفعال والضجيج ؟ .. أم انك سهلة ، لينة ، واسعة البال ؟

١٦ – هل تؤثرين المجاملة ولو بلغت درجة النفاق ؟ .. او تحرصين على قول الحقيقة ولو كانت تخدش الشعور ؟

١٧ – هل للاخلاق الطيبة وحسن المسلك تقدير لديك ؟ .. او انك لا ترين لها داعيا فى الوسط العائلى ؟

١٨ – هل تسألين الغير آراءهم ؟.. أم تعينين اسم الفيلم أو المسرحية التى تريدين مشاهدتها ؟

١٩ – هل تعنين باقامة الولائم ؟ .. او تستغلين مسألة صعوبة الحصول على الاغذية كحجة لتفادى دعوة الغير الى مائدتك ؟

٢٠ – هل انت سخية اليد ؟ .. او انك تعمدين الى الاقتصاد من بعض النفقات العادية البسيطة .. فى السر ؟

٢١ – هل تضعين فى أكواب الضيوف كميات كبيرة من الشراب ؟ .. او انك تتريثين الى أن يذوب الثلج فى الاكواب فتبدو مليئة بالشراب مع ان ثلاثة ارباعها ماء ؟

٢٢ – هل تعيرين صديقاتك شيئا من ملابسك ؟ .. أو ترين انها عادة مستقبحة ؟

٢٣ – اذا كان ثمة شخص يعانى ضيقا ، فهل تبادرين الى التفكير فيما تستطيعين أن تفعليه لأجله ؟ .. او تقولين فى زمجرة وضيق وتراخ : « هل لا بد لى من مساعدته ؟ »

٢٤ – هل تضحين فى ابتهاج بسهرة خارج البيت لكى تمكثى الى جانب صديق مريض ؟.. أو انك تعتذرين – فى اسف – بأن لديك مشاغل ؟

٢٥ – هل تعملين على توفير الراحة للرجال ؟ .. او ترين انهم يجب ان يخشوشنوا ؟

٢٦ – هل تكتمين استياءك اذا كسر أحد عفوا احدى تحف الزينة الثمينة ؟ .. او انك تحرجينه ؟

٢٧ – أتحتفظين بسجاير لضيوفك ؟ .. أم تؤثرين ان تتجاهلى عادات الناس ؟

٢٨ – هل تتعرفين شعور سواك قبل ان تفتحى النافذة او تشعلى المدفأة ؟ .. او انك تفعلين ما تشائين حسب شعورك بالحرارة ؟

٢٩ – اذا ترك احدهم الضوء ساطعا فى احدى الحجرات ، فهل تطفئينه فى صمت وسكون ؟ .. او تثيرين ضجة ولوما ؟

٣٠ – هل تحاولين ايناس من يكون فى صحبتك ؟.. او تنتظرين

ان يعمل هو على تسليتك ؟

٣١ ـ هل تبدين اعجابك بالجمال واللباقة والذكاء ؟ .. او تحسدين من تتوفر لهم هذه الصفات ؟

٣٢ ـ هل تحبين ان تدعى لكل شخص فرصة الاستمتاع بدوره فى اللعب ؟ .. او تحرصين على ان توجهى اللعب دائما بحيث تتوفر لك وحدك الفرصة ، اى تقحمين نفسك فى كل دور ؟

٣٣ ـ هل ترحبين بأى حيوان شارد تقوده اقدامه اليك ؟ .. او انك تشعرين بأن رعاية الحيوان مهمة متعبة ؟

٣٤ ـ هل تشعرين باستمتاع عادى ـ طبيعى ـ بعملك ؟ .. او ترين انه كل شىء فى حياتك ؟

٣٥ ـ هل انت مغرمة بالناس ؟ .. أو تودين لو كانوا آلات لتلبية رغباتك .. لا سيما اولئك الذين فى خدمتك ؟

٣٦ ـ هل يجد فيك الناس اغراء يجذبهم اليك ؟ .. او انهم يجدونك ـ لا سيما فيما بينهم وبين انفسهم ـ مملة ؟

٣٧ ـ هل انت ممن يبتهج الناس لرؤيتهم ؟ .. او ممن يستاءون اذا رأوهم ؟

٣٨ ـ وباختصار ، هل تحبين الجنس البشرى ؟ .. او تكرهينه ؟

ظاهرة حيرت الاطباء :

الفقير الهندى

الذى يبصر بغير عينين ! !

ما رأى أطبائنا وعلمائنا ؟!

◆ **ليس هذا المقال الذى ننشره فيما يلى من تلك المقالات « الصحفية » التى تكتب لتثير فضول القارىء أو تملأ فراغا فى صحيفة .. وانما هو بحث جدى عجيب مزود بالاسانيد وأسماء مشاهير الاطباء الذين شهدوا بصحة ما ورد فيه .. وقد كتبه « رودلف فليش » ونشر ضمن محتويات كتاب « أحسن مقالات عام ١٩٥٣ » الذى صدر أخيرا .. ونحن اذ ننشره ، نحب أن نسمع رأى أطبائنا وعلمائنا الاجلاء فيما جاء به ..**

◆ **دخلت** المرضة حجرة الطبيب تحمل لفافة صغيرة، وفى أعقابها رجل خفيف السمرة ، أسود الشعر ، يرتدى سترة

كحلية اللون ، وقالت : « هذا هو مستر كيودا بكس »

وألقى الطبيب نفسه يحدق فى عينين سوداوين مؤتلقتين ، لا يكاد انساناهما يبينان وسط حدقتيهما لشدة اسوداد الحدقتين .. ثم تنبه لنفسه فقال للرجل: « المرضة تقول انك تستطيع أن ترى دون أن تستعمل عينيك ؟! »

فأجاب الرجل فى بساطة : « أجل »

ـ وانك تريدنى أن أعصب عينيك بضمادة .. ؟

ـ أجل ، أرجو لو تفضلت ..

ـ حسنا ، لامانع لدى من ذلك .. هل أحضرت تلك العجينة أيتها الممرضة ؟

واذ اطمأن الى أنها أحضرتها ، التفت الى الرجل قائلا : « ما أظنك تعارض اذا استخدمت عجينة فوق محجرى عينيك .. انها لن تؤذيك ، كما انها وسيلة فعالة فى حجب ابصار العينين .. اجلس هنا من فضلك ، واسند رأسك الى الوراء ، واغمض عينيك .. »

وانصاع الرجل دون معارضة ، فتناول الطبيب كتلة من عجين من الممرضة ، وقسمها الى جزءين كبيرين ألصقهما تماما على محجرى عين الرجل ، ثم أحكم أطرافهما حول حواف المحجرين .. وتناول بعد ذلك طبقة سميكة من القطن الابيض وضعها فوق العينين المليئتين بالعجين ، ووضع فوقها ثلاث أو أربع طبقات من قطن التضميد .. ثم شرع يلف شريطا من الشاش عرضه أربع بوصات حول رأس الرجل ليثبت الضمادة الضخمة .. وثبتت الممرضة طرف الشاش جيدا ، بينما تراجع الطبيب وأخذ يتأمل ما صنع .. ثم طلب الى الممرضة أن تأتيه بلفافتين أخريين من الاربطة ، وراح يلفهما حول رأس الرجل .. حتى اذا انتهى ، كان الجزء العلوى من وجه « كيودابكس » قد اختفى تماما تحت «طبقات الشاش» ، فيما عدا ثغرة عند أنفه لتمكنه من التنفس !

وقال الطبيب أخيرا : « والآن يا صديقى ، تستطيع أن تجوس بدراجتك خلال المدينة كما تشاء ، ولكننى لو كنت فى مكانك لاتخذت الحيطة والحذر من حركة المرور! »

فقال كيودابكس : « انى لشاكر لك هذا الفضل يادكتور » .. ونهض فانحنى للطبيب ، ثم للممرضة ، وتحول فسار الى الباب مباشرة ، وأمسك بالاكرة وهو يقول : « أرجو أن لا تقلق بشأن حركة المرور ، فانى أرى بجلاء تام ! »

وقبل أن يعقب الطبيب المذهول بكلمة، كان الرجل قد غادر الحجرة .. فسار فى خفة مجتازا ردهة المستشفى ، وهبط السلم ، وانطلق متخذا طريقه حول أركان المبانى حتى انتهى الى الباب الخارجى ، ثم الى الشارع الذى كانت تغمره شمس الظهيرة الدافئة .. وهناك ، كانت دراجته فى انتظاره وقد ثبت فى مقدمتها ومؤخرتها لوحتان ، حملتا هذه الكلمات :

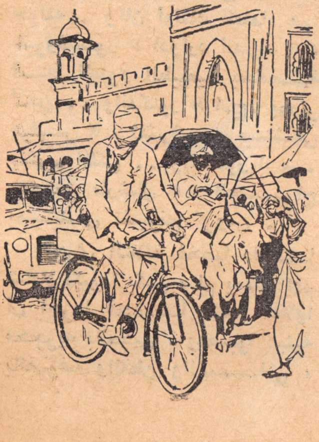
« كيودابكس .. الرجل الذى يرى بلا عينين !

« يظهر فى السابعة والنصف من مساء اليوم بالملعب الكبير »

الموكب الذى أحدث ضجة !

◆ وكان الى جوار الدراجة مندوب لاحدى الصحف المحلية، ومدير المسرح ، ورجل بدين ذو قبعة سوداء ، وآخر مقعد من نزلاء المستشفى ، جلس فى مقعد ذى عجلات ، وثلاثة من الغلمان .. بينما مال على أسيجة شرفات المستشفى عدد من المرضى راحوا يراقبون فى صمت «كيودابكس» وهو يحيى الحضور، ويذكر للصحفى بايجاز ما جرى له داخل المستشفى ، ثم يمتطى الدراجة وينطلق فى غمرة حركة المرور !

ومع ان كل النصف العلوى من وجهه كان مستترا وراء الضمادات السميكة ، الا أنه بدا كأنه يبصر كل ما حوله .. وسرعان ما كان حشد من الصبية يجرون على الارصفة بجواره .. ووقفت النسوة وفى أيديهن السلال محملة بالمشتروات، كما وقف السعاة ، وعمال الطرق، والكهول الذين كانوا يتمشون فى الطرق الدافئة .. وقفوا جميعا مشدوهين يحملقون فى راكب الدراجة المعصوب العينين .. وكان راكبو السيارات يتنحون عن طريقه فى جزع ، وخفف بعضهم من سرعة انطلاقه ومضى يتبع الرجل ، فسرعان ما تألف خلفه موكب أخذ يزداد رويدا .. وكان رجال بوليس المرور - عند مفترقات الطرق - يهمون بأن يستوقفوه ، ولكنه كان يضحك منهم ويلوح بيده محييا وهو ماض فى طريقه ..



ولم يحن مساء ذلك اليوم ، حتى كانت جميع مقاعد الملعب قد حجزت !

الطب والعلم يقفان حائرين !

◆ **وهذا** الذى حدث فى مانشستر ، حدث فى كل المدن والبلدان التى زارها « كيودا بكس » أثناء رحلته فى أنحاء انجلترا .. وكانت الاجراءات هى هى تقريبا فى كل مرة ، والاثر الذى تخلفه أعمال الرجل فى نفوس النظارة هو هو .. ولكن الى جانب النجاح الذى أصابه على خشبة الملاعب ، ظهر تطور هام فى مسألته ، اذ شرع الاطباء فى الاهتمام بأمره .. **واذا بثلاثة من أكبر العلماء مركزا وأجلهم قدرا ، يعلنون استعدادهم لفحصه فى لندن فى نهاية جولته.. وكان أولئك العلماء هم: البروفيسور « ادوارد أندريد » ، أستاذ العلوم الطبيعية بجامعة لندن .. والدكتور « ا.ج. بورتر فيليبس » ، المشرف على مستشفى بتلهيم الملكى .. والدكتور « س. جنينجز مارشال » ، الجراح بمستشفى تشيرنج كروس ..**

وأجرى الثلاثة فحصا دقيقا شاملا لكيودا بكس ، لم يسبق لهم أن أجروا فحصا مثله : ملأوا محجريه بالعجين ، وعصبوا عينيه بالصوف والقطن والشاش ، وغطوا وجهه بصفيحة معدنية رقيقة .. بل انهم ذهبوا الى لصق أجفانه بمادة «الكولوديون» الشديدة التماسك . ثم عمدوا لتفادى احتمال أن يكون «كيودا» قديرا فى قراءة الافكار ، الى اختيار كتب لم يسبق لاحد منهم أن قرأها .. وفى كل مرة لم يبد « كيودا » أى عناء فى قراءة ما كان يدعى لقراءته برغم كل تلك الضمادات السميكة !

ثم عرض « كيودا » على العلماء الثلاثة عملا جديدا خارقا ، أظهر به قدرته على أن يوقف دقات قلبه .. اذ قال للدكتور «فيليبس» : « أمسك شريانى النابض » .. وأخذ جسد الرجل يتيبس ، وانطبقت شفتاه انطباقا محكما ، وبدا على وجهه التركز والاستغراق .. ثم توقفت دقات النبض !.. وسجلت أجهزة فحص القلب الكهربائية صحة هذه الظاهرة ، وبينت رسومها ان القلب توقف تماما عن الوجيب ، وأخذ يعانى سلسلة من التقلصات العصبية

ولقد رأى العلماء فى توقف القلب عن الوجيب دليلا على قوة خارقة للسيطرة على الاعصاب ، ولكن الذى حيرهم الى حد كبير كان تمكن الرجل من أن يرى بلا عينين .. فقد كانت هذه الظاهرة مستحيلة من الناحية العلمية .. ولكنهم لم يكونوا يملكون سوى أن

يعترفوا بأن « كيودا » يستطيع ممارستها .. كانت أعجب وأغرب ظاهرة رأوها ، حتى انهم لم يجرأوا على أن يتعرضوا لتفسيرها!

البطل يفسر اللغز !

◆ **وشئت** أن أحاول استدراج « كيودا بكس » الى شرح هذه الموهبة ، فقابلته فى لندن وأغريته على الحديث .. فروى لى قصته فى بساطة، دون ما مبالغة ظاهرة، حتى أيقنت انه يدلى بالحقيقة كاملة .. وهذه هى القصة التى أفضى بها :

« اننى هندى من الهندوس، ولدت فى « اخنور » بولاية «كشمير» فى سنة ١٩٠٥ ، فى أسرة من الطبقة المتوسطة ، كل أفرادها مثقفون ، وكان أبى مهندسا .. وحدث حين كنت فى الثالثة عشرة من عمرى أن قدم الى مدرستنا مشعوذ قام ببعض الالعاب ، وانى لاذكر ان اسمه كان « البروفيسور مور » ـ فكل المشعوذين فى الهند يطلقون على أنفسهم لقب « البروفيسور » ـ وكانت ألعابه بديعة جدا ، أثرت فى نفسى للغاية ، فاعتقدت أنها سحر حقيقى ، وشعرت برغبة قوية فى أن أتعلم هذا السحر ، فلم ألبث أن فررت من البيت بعد يومين ، وقد عزمت على أن أبحث عن بطلى الجديد « البروفيسور مور » ، وأن أتعقب أنباءه .. وأخذت معى أربع عشرة روبية كنت أدخرها .. وكان ذلك فى سنة ١٩١٨ .

« ووجدت أن البروفيسور مور كان قد ذهب الى لاهور التى تبعد مائتى ميل عن بلدى ، فابتعت تذكرة للسفر بالدرجة الثالثة ، واستقللت القطار ، وذهبت فى أثره وحدى.. ووجدت البروفيسور فى لاهور ، يؤدى ألعابه فى فرقة استعراضية رخيصة .. فأنبأته باعجابى ، وعرضت عليه أن يتخذنى مساعدا وتلميذا ، فقبل .. وكان أجرى ثمانى «أنات» فى اليوم ..

« وعلمنى البروفيسور ان أؤدى لعبة الاطواق، فأشبكها بعضها فى بعض وأفكها ثانية .. وكانت مهمتى تقتضينى أن أقف أمام المسرح فى الطريق بثياب مضحكة، وأمضى أشبك الاطواق وأفكها، وأدعو الناس للدخول ومشاهدة العرض .. ولذت لى هذه المهمة لبضعة أسابيع ، وبدت أفضل من الذهاب الى المدرسة .. **ثم كانت صدمة قاسية حين تبينت أن البروفيسور مور لم يكن يعرف شيئا من السحر الحقيقى ، وانما كانت كل ألعابه حيلا وخفة يد .. وفى الحال لم يعد البروفيسور بطلا فى عينى ، وفقدت كل شغف بمهمتى.. ولكن فكرى**

ازدحم فى الوقت ذاته بفيض من الشوق القوى ، الطاغى ، الذى راح يدفعنى للبحث عن السحر الحقيقى ، ولتعرف شىء عن تلك القوة الخفية التى يسمونهـــا «اليوجا» ..

« لا ، لم أكن متدينا.. صحيح ان الشخص «اليوجى» يكون غالبا من المتطرفين فى التدين، ولكن هذا لم يكن حافزى على السعى وراء « اليوجا » .. بل انـك تستطيع أن تقول اننى كنت دعيا، غشاشا الى حد ما ، فقد كنت على الضد تماما من التدين والطائفية، وما كان سـعيى الى تعلم قوى « اليوجا » الا لسببين ، وسببين فحسب : الشهرة والثـراء .. وهما من أكثر الاشياء فى الدنيـا استثارا بازدراء «اليوجى» الحق .. ولهذا وجدت ان لابد من أن أتظاهر بالاسراف فى التدين اذا شئت أن تسنح لى أية فرصـــة للنجاح ..

تمرينات .. للسيطرة على الاعصاب !

« وهكذا هجرت البروفيسور مور بعد شهرين ونصف الشهر ، وقصدت الى « امريتار » حيث التحقت بفرقة مسرحية ، فقد كان على أن أتكسب عيشى أثناء بحثى عن السر ، لا سيما واننى كنت موفقا فى التمثيل اذ كنت عضوا بفرقة الهواة بالمدرسة .. وهكذا ظللت أتنقل مع الفرقة فى أرجاء البنجاب ثلاث سنوات ، بلغت فى نهايتها السادسة عشرة ، وأصبحت فى مقدمة نجوم الفرقة .. وكنت طيلة الوقت أدخر المال ، حتى بلغ مجموع ما أملك ألفى روبية .. فأحسست بأن الوقت قد حان لأنطلق فأعاود البحث عن «يوجى» يعلمـنى أسراره .. وان هى الا ستة شهور – فى سنة ١٩٢٢ – حتى حصلت على خطاب توصية الى أحد «اليوجيين» فى «هارداوار» .. ومن أجل هـذا الخطاب، وافـق على أن يعلمنى .. وكان التعليم يتضمن ممارسـة طائفة من أصعب التمرينات الرياضية، تهدف كلها الى تنمية السيطرة على الاعصاب والتنفس .. ولـكن صبرى نفد بعد بضعة أسابيع، فقلت لليوجى اننى انما أبغى تنمية قواى العقلية لا الجسـدية .. فكان جوابه :

– اذا اسـتطعت أن تنمى سيطرتك على جسدك، فان السيطرة على عقلك ستتأتى كنتيجة من تلقاء ذاتها !

« ولكننى أردت الامرين معا فى الحال ، فرحت ألح عليه حتى قال لى فى النهاية : « حسنا، سأعطيك بعض تمرينات تساعـــدك على تركيز العقل الواعى» .. واذ أبديت دهشتى ، قال :

«ان لكل أمرىء عقلين: العقل

الواعى : والعقل غير الواعى .. فالأخير مركز الى أقصى حد ، أما الواعى ، وهو الذى يستخدمه كل امرىء ، فمشتت ، غير مركز أو محصور .. ومن ثم فهو يشغل نفسه دائما بآلاف الامور المتباينة .. بالامور التى تراها حولك ، والامور التى تفكر فيها .. ولهذا، يجب أن تتعلم كيف تركزه وتحصره بحيث تستطيع حين تشاء أن تتصور أمرا واحدا، وواحدا فقط، دون أى شىء آخر على الاطلاق .. **فاذا أنت جددت فى السعى لذلك، فانك لن تلبث بعد حوالى خمسة عشر عاما أن تركز ذهنك الواعى على أمر واحد تختاره ، لثلاث دقائق ونصف الدقيقة على الاقل!»**

« هكذا قال اليوجى .. ومن ثم شرعت فى التدرب ، فكنت فى مساء كل يوم أجلس ، وأغلق عينى، وأمضى أتصور وجه شخص أحبه أكثر من جميع من عداه .. وجه أخى ! .. وكنت أستغرق فى تمثل وجهه ، وفى اللحظة التى يبدأ ذهنى فيها يتحول أو يحيد ، أوقف التدرب وأنتظر الى الليلة التالية قبل أن أعاود المحاولة ، لان أقل انحراف عن هدف التصور انما يعنى ان العقل الواعى متعب ولا بد له من أن يستريح ..

« وبعد أن أمضيت فى التدرب عامين ونصف العام ، استطعت أن أركز ذهنى تماما على تمثل وجه أخى لدقيقتين وربع الدقيقة .. وكنت ماضيا فى التقدم .. ولكن شيئا غريبا وقع لى .. فبينما كنت منصرفا الى تلك التدريبات ، فقدت حاسة الشم اطلاقا ، ولم أستردها قط حتى اليوم !

يمشى على النار !

◆ « ثم اضطرتنى مطالب العيش الى أن أغادر «هارداوار» الى كلكتا ، حيث أخذت أمارس أعمال الشعوذة العادية ، ولكننى حرصت دائما على أداء تمريناتى .. وفى ذات يوم سافرت الى « دكا » – فى شرقى البنغال – لاقوم بعرض العابى أمام طلبة احدى المدارس.. **وفى أثناء وجودى هناك ، حضرت عرضا قام به شخص أخذ يسير على النار ، حتى اذا انتهى من عرضه ، التفت يدعو فى سخرية من يرى فى نفسه القدرة على أن يفعل ما فعل .. فاذا بى أتقدم اليه مع ثلاثة آخرين .. وكنت الاخير بينهم، فتقدمونى..لكن أقدامهم أصيبت من التجربة بحروق بالغة .. وأخذ الجمهور يضحك ساخرا حين جاء دورى، ولكننى رحت أحاول أن أتذكر ما تعلمت ، فركزت ذهنى الواعى على شىء واحد ، هو ان: النار باردة ! .. وقلت لنفسى ان هذه النار باردة ولن تحرقنى.. واستغرقت فى ذلك الى درجة لم**

اعد معها أرى شيئا سوى النار.. وهكذا تقدمت فسرت فوقها .. وكانت نارا باردة بالفعل فلم أصب بأى حرق ! »

يثبت قدرته الخارقة للعلماء !

◆ **وقد** حدث بعد ذلك ببضع سنين أن سأل مجلس لندن للابحاث البدنية هذا الرجل العجيب « كيودا بكس » عما اذا كان يسمح لاعضائه باجراء بحث دقيق حول قدرته على السير على النار ، فلما وافق نظم عرض فى حديقة خاصة بكارشالتون ـ بمقاطعة «صرى» .. وقد نشرت الصحيفة الطبية البريطانية تقريرا وافيا عن العرض بعد ذلك فقالت :

« كان الخندق الذى أعد للنار يبلغ ٢٥ قدما طولا ، و٦ عرضا ، و٩ عمقا .. وقد استخدمت فى اشعال النار سبعة أطنان من كتل خشب البلوط ، وطن من خشب الوقود ، و١٠ هندردويت من فحم الخشب ، و١٠ جالونات من البارافين (البترول) ، و٥٠ صحيفة .. وأوقدت النار فى الساعة الثامنة والثلث صباحا ، فلم تحن الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حتى كانت جذوات النار قد بلغت مستوى الارض ، وكانت الحرارة شديدة ، واضطر الذين كانوا يحركون الوقود الى ارتداء ما يقيهم وطأتها .. وكانت الريح من القوة بحيث مضت تذكى وقدة الفحم حتى بلغت أقصاها.. وفى الساعة الثالثة فحص البروفيسور « بلانيت » قدمى « كيودابكس » وسجل حرارتهما (٩٣ر٢ درجة فهرنهيتية) وأبدى دهشته لانهما كانتا شديدتى البرودة .. ووجهت عناية خاصة للتأكد من أن الرجل لم يتخذ أية استعدادات لحماية قدميه من النار .. فغلستا بعناية ، وفحصتا للتأكد من أن بشرتهما لم تتعرض لاى علاج يزيد من سمكها أو خشونتها!.. ثم ألصق البروفيسور « بلانيت » بنعل القدم اليمنى لكيودابكس ـ أى باطن القدم ـ طبقة من المادة اللاصقة الطبية (البلاستر) مساحتها خمسة أثمان البوصة المربعة .. **وفى الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة أقبل « كيودا بكس » على الخندق ، فقطعه فى ٤ر٥ من الثانية ، واذ ذاك أخذ « البروفيسور بلانيت » حرارة قدميه ـ فى الثوانى العشر التالية ـ فاذا هى قد انخفضت قليلا ! (اذ كانت ٩٣ درجة فهرنهيتية) .. ولم توجد أية شقوق أو آثار فى قطعة « البلاستر » ، كما أن قدمى الرجل لم تصابا بأى ضرر !.. وكانت درجة حرارة النار عند السطح قد تجاوزت ٨٠٠ درجة فهرنهيتية !!**

وبعد أن سار « كيودا » على النار مرة أخرى ، تقدم أحد طلبة الطب فخلع حذاءيه وجوربيه وخطا الى الخندق ، فقطعه فى خطوتين سريعتين لم تستغرقا منه أكثر من ٢ر٢ من الثانية .. ومع ذلك أصيبت قدماه بحروق كبيرة ، وبقرحتين داميتين ! »

عزيمة وصبر .. من حديد !

◆ **وتابع «كيودا بكس»** رواية قصته لى :

« وكنت أنفعل طبعا حين أهم بالسير على النار فى البداية . على اننى لم أنفك عن أن أقول لنفسى : « انها لن تلبث أن تواتينى .. ان القوة لن تلبث أن تأتينى » .. وكنت طيلة الوقت أفكر فى شىء آخر .. شىء قاله لى « اليوجى » الشيخ مرة : « لقد اشتهر بعض الاتقياء بأنهم أوتوا قدرة على التركز الى درجة انهم كانوا يرون دون أن يستخدموا عيونهم الجسدية ».. **فكنت لا أفتأ أذكر ذلك القول ، وأصبو الى أن تتاح لى نفس القوة، فلما نجحت فى السير على النار ، قررت أن أركز كل همى للوصول الى تلك الغاية : أن أرى بلا عينين !**

« **وتابعت أداء التمرينات ، ولكن بطريقة أفضل من ذى قبل .. اذ أخذت أوقد فى كل ليلة شمعة وأروح أحدق فى اللهب ..**

ولهب الشمعة ــ كما تعلم ــ يتألف من ثلاثة أجزاء : القمة الصفراء ، تليها طبقة بنفسجية زاهية ، ثم طبقة سوداء فى قلب اللهب .. **فكنت أضع الشمعة على بعد ست عشرة بوصة من وجهى ، بحيث يكون اللهب أمام عينى تماما ، لا يعلو عنهما ولا ينخفض ، حتى لا أرهق عضلات العين بالتطلع الى أعلا أو النظر الى أسفل . ثم أشرع أحدق فى الطبقة السوداء من اللهب ، وكل ذلك لمجرد جمع شتات عقلى الواعى وتركيزه ، وتخليصه من كل شىء مما يحيط بى .. وهكذا أظل أحدق فى البقعة السوداء من اللهب حتى يتلاشى تماما كل شىء حولى ، ولا أعود أرى شيئا آخر .. ورويدا رويدا أغلق عينى ، وانصرف تماما الى تصور وجه أخى ..**

« وظللت أجرى هذا التمرين قبل أن آوى الى فراشى فى كل مساء ، حتى اذا كانت سنة ١٩٢٩ ــ وقد بلغت الرابعة والعشرين من عمرى ــ كنت قد أصبحت قادرا على أن أركز ذهنى على وجه أخى لمدة ثلاث دقائق دون أتفه انحراف. واعتدت دائما أن أتحرى الوقت بساعة من ساعات التوقيت المعروفة ، فكنت أتتبع تقدمى ، ثانية فثانية ، مما كان يشجعنى ويقوينى على المضى .. واستطعت اذ بلغت الرابعة والعشرين أن أفطن الى

شيء من المقدرة في نفسي .. مجرد شعور ضئيل .. شيء من التصور المثير بأنني حين أغمض عيني وأحدق بحدة في شيء ما ، مستجمعا كل ما لي من قوة على التركز – ويا لها من قوة ! – أرى ، أو أتصور انني أرى ، صورة مبهمة ، معتمة ، لمجرد الشكل الخارجي للشيء الذي أنظر اليه وأنا مغمض ! .. وكنت بطبيعة الحال أدرك ، أو أخال انني أدرك ، كيف كان ذلك يحدث ، وما الذي كنت أفعله .. كنت بتمثلي صورة أخي وأنا مغمض العينين أنمي رويدا حاسة البصر الداخلية في نفسي ، فان لكل امرىء منا حاستي بصر ، وحاستي شم ، وحاستي ذوق ، وحاستي سمع .. حاسة خارجية ، ظاهرة ، وهي الاكثر نموا وارهافا ، لاننا نستعملها .. وحاسة داخلية ، كامنة نستطيع أن ننميها بنفس الطريقة التي استطعنا أن ننمي بها الحواس العادية .. وعندئذ يتسنى لنا أن نشم بلا أنف ، وأن نذوق بلا لسان ، ونسمع بلا أذن ، ونتحسس بلا لمس ، ونرى بلا عينين !!

وهكذا كنت أكافح طيلة الوقت لانمي حاسة البصر الداخلية الكامنة في نفسي .. **وأصبحت أؤدي تمريناتي العادية كل مساء على لهب الشمعة ووجه أخي .. ثم استريح برهة ، وأحتسي قدحا من القهوة ، وأعصب بعد ذلك عيني ، وأجلس في مقعدي محاولا أن أرى ، وأبصر – ابصارا حقيقيا لا مجرد خيال – كل جسم في الغرفة ، بدون عيني !.. وأخذ النجاح يواتيني شيئا فشيئا .. وسرعان ما كنت أجري تدريباتي على مجموعة من أوراق اللعب ، وأنا معصوب العينين .. فكنت أسحب ورقة من أول المجموعة وأضعها أمام وجهي ، محاولا أن أراها ، ثم أكتب ما أراه .. وأتناول ورقة أخرى ، فأفعل بها ما فعلت بتلك .. وهكذا حتى أنتهي من جميع أوراق المجموعة ، فأنزع العصابة عن عيني ، وأراجع ما كتبته على الاوراق التي أكون قد حرصت على وضعها بالترتيب .. وسرعان ما استطعت أن أحرز من النجاح ما بين ستين وسبعين في المائة !**

مواظبة خارقة !

« وأقبلت على أشياء أخرى .. ابتعت خرائط ، بعضها تغطي سطحها شبكات تبين خطوط الملاحة ، وكنت أثبتها الى الجدار في غرفتي ، وأقضي ساعات أتفرس فيها وأنا معصوب العينين ، محاولا أن أراها ، جاهدا كي أقرأ الحروف الصغيرة التي تبين أسماء الاماكن والانهار .. وواظبت على

ذلك كل مساء طيلة أربع سنوات ..

« وهكذا لم تحن سنة ١٩٣٣ — وقد بلغت الثامنة والعشرين — حتى كنت أستطيع أن أقرأ كتابا ..

أستطيع أن أحجب عينى تماما ، ثم أقرأ كتابا ، دون أخطاء !.. وبذلك استطعت أن أحصل — أخيرا ، وبكل تأكيد — على تلك القوة الخارقة .. وسرعان ما أضفت الرؤية وأنا معصوب العينين الى ألعاب الشعوذة التى كنت أعرضها .. وأحدثت ضجة فى كلكتا ،

فبادر الاطباء هناك الى فحصى ، كما يفعل زملاؤهم هنا وفى كل مكان أذهب اليه .. ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يدرك للظاهرة تعليلا ..

« تسألنى عما اذا كنت أرى خلال المعدن ؟.. ولكنى لا أرى خلال شىء ، ولا خلال العصابات التى أضعها على عينى .. بل ان عينى نفسيهما لا تعملان اطلاقا حين تكونان تحت الضمادات .. وانما أرى — (على ما يبدو لى ، وان كنت أعترف اننى غير متأكد تماما) — من خلايا الاجزاء « العارية » من جلدى التى تكون فى مواجهة الشىء موضوع الرؤية .. ولو انك وضعت صفحة من المعدن أمامى ، لما استطعت أن أقرأ كتابا فى الجانب الآخر منها ، الا اذا سمحت لى بأن أمد يدى خلف الصفحة المعدنية لتكون بشرتها فى الجانب الآخر المواجه للكتاب .. اذ ذاك أستطيع أن أقرأ .. أى اننى أرى ببشرة أى جزء من جسمى .. فهل تحب أن تختبر ذلك بنفسك ؟ » .

ولم تكن هناك صفحة معدنية ، فاخترت الباب بدلا منها .. ونهضت فتناولت من رف الكتب أول كتاب رأيته ، ثم فتحت الباب وسألت « كيودا بكس » أن يقف خلفه ، وبعد ذلك فتحت الكتاب عند صفحة من الصفحات ، دون أى قصد ، ووضعته على مقعد خلف الجانب الآخر من الباب ، ثم اتخذت لنفسى موقفا يمكننى من أن أرى « كيودا بكس » والكتاب فى آن واحد

ومد « كيودا » يده على حافة الباب ، ثم تجاوزها ، حتى صارت فى ناحية الكتاب ، على مسافة قدمين منه .. وأخذت اليد تحوم وترتعش وتتلمس الهواء ، كذؤابات بعض الحشرات ، ثم انقلبت حتى صار ظهرها نحو الكتاب ..

وقلت له : « أقرأ الصفحة اليسرى .. من أولها ؟ »

وساد الصمت حوالى ١٠ ثوان ، ثم بدأ يقرأ .. بوضوح ، ودون أخطاء !

شعوب العالم وكيف تتزوج

عادات وتقاليد الخطبة والزواج

عند مختلف الامم والاجناس

كتاب للرحالة « ألان ديفيز »

تعتبر معظم الشعوب ان الابوة تقتضى مسئولية الأب عن كل من تنجبهم زوجته من أولاد ، ولذلك تهتم الجماعة باختيار الزوجة اهتماما كبيرا .. ومع ان الأب الشرعى للطفل عادة هو ابوه الفعلى الذى يرتبط معه برابطة الدم ، الا أن أهالى جزر تروبرياند – فى غينيا الجديدة – يرون ان اى رجل يقبل ان يكفل الطفل امام المجتمع ، يصبح ابا له .. وهناك شعوب لا ترضى بأن يقتصر الرجل على زوجة واحدة ، بل منها ما يسمح له بأن يتزوج من أكثر من واحدة .. **وهناك فئة نادرة تبيح لعدة رجال ان يتقاسموا فيما بينهم زوجة واحدة .. وفى ظروف اندر ، نجد ان عددا من الرجال يشتركون معا فى حيازة عدد من النساء ، وهو ما يسمونه بـ « الزواج الجماعى » !**

الزوجة الواحدة ..

.. وتعدد الزوجات

◆ **والاقتصار** على زوجة واحدة هو الشائع لدى اكثر الشعوب الراقية ، بل والشعوب البدائية أيضا .. ففى القبائل المتوحشة التى تعيش فى غابات الكنغو ، ومجاهل آسيا ، وجزر اندمانيس ، وعشائر « أيتا » فى جزر الفلبين ، وقبائل « الكوبو » فى سومطرا ، و « السيمانج » فى الملايو ، يقتصر الرجل على زوجة واحدة ، وتمتاز الروابط العائلية بتوثق عجيب ..

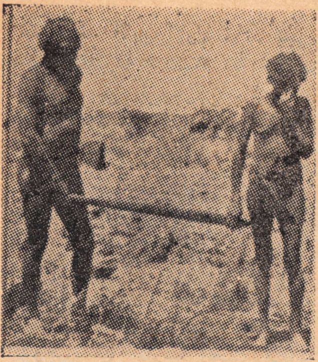
وكثيرا ما يكون الاقتصار على زوجة واحدة أمرا غير اجبارى .. **فالزوج عند الاسكيمو – مثلا – يتزوج عادة من واحدة ، ولكنه اذا حصل على أكثر من المستوى العادى من متاع الدنيا ، او شاء ان يرفع من قدر نفسه فى المجتمع ، تزوج من اثنتين او اكثر ! ..** وكذلك يقتصر الرجل من قبائل « البوشمن » – فى صحراء (كلهارى) الاسترالية – على زوجة واحدة ، ولكن بعضهم يلجأ الى تعدد الزوجات .. والزواج من واحدة فقط هو الشائع بين اهالى استراليا الاصليين ، ولكن الرجل اذا كبر فى السن او المقام ، حق له ان يتزوج مرة أخرى ، لا سيما اذا كانت زوجته الاولى قد اكتهلت ، فتقوم الزوجة الجديدة بتدبير القوت لها وله ! (كما ترى فى الصورة بالصفحة المقابلة)

وينتشر تعدد الزوجات بين كثير من الشعوب التى تعيش على الرعى والزراعة .. فلدى اهالى المراعى ، يعنى الرجل بقطعان الماشية والاغنام، بينما تجمع النساء النباتات التى تقتات عليها الاسرة، او يعملن لكسب القوت .. ولعل **تعدد الزوجات فى هذه المجتمعات راجع الى ان الرجل هو عائل الاسرة، وهو المسيطر على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع .. ولما كانت الماشية هى المورد الرئيسى للقوت ، لذلك كان من حقه اذا ما تكاثرت قطعانه ان يزيد من عدد زوجاته !** .. كما ان اغاراته على المجتمعات الزراعية المجاورة ، تتيح له سبايا يزدن من عدد نسائه ..

ومع ذلك نجد ان قبائل الطوارق ـ فى الصحراء الكبرى بشمال افريقيا ـ تفضل ان يقتصر الرجل على زوجة واحدة ، مع أن الاسلام يبيح له تعدد الزوجات ..

الزوجة الواحدة .. مهانة !

◆ وفى المجتمعات الزراعية ، نجد ان الحاجة الى زيادة الايدى العاملة فى الارض ، تحدو بالرجل الى الاكثار من الزوجات .. **وفى قبائل « ايبو » بنيجيريا ، تشعر المرأة بذلة ومهانة اذا اقتصر زوجها عليها ، فان هذا لا يعنى سوى انه فقير .. ومن العجيب ان النساء هناك يحبذن تعدد الزوجات !**



فى استراليا قد يتزوج الشيخ المسن ـ الذى اكتهلت زوجته ـ من شابة فتية تعينه فى جمع المحصول

وكلما ازداد عدد الزوجات ارتفع مقام الرجل فى المجتمع ، لان الزوجات يمثلن رأس مال عامل يستثمره الزوج وهو مطمئن الى أنه لن يعود عليه بخسارة .. بيد ان الزوجة الاولى تحظى بمكانة خاصة، فتستأثر بالاحترام العام ، وبكل الامتيازات القانونية والشرعية ، ويكون لها النفوذ الاكبر فى شئون الاسرة ، وتستمتع وحدها بكل ما يناله زوجها من اكرام فى المجتمع .. وان لم تعد هى الحبيبة اليه !

ويستشير الزوج هناك عادة زوجته الاولى قبل ان يتزوج بثانية، وهو لا يقدم فى الغالب على ذلك الا

بعد مولد الابن الاول ، اذ تحرم عادات القبيلة قيام اية علاقات جنسية بين الزوجين بعد مولد الطفل الا اذا انقضت على مولده ثلاث سنوات !

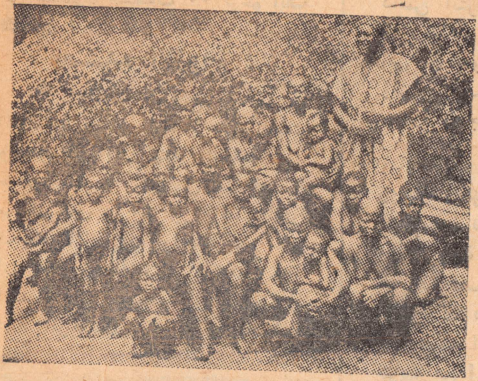
وللرجل فى قبائل « اللانجو » — فى أوغندا — الحق فى ان يتزوج ممن شاء من النساء ما دامت موارده تسمح له ، فان عدد النساء يزيد هناك على عدد الرجال بمراحل .. وكما فى قبائل « ايبو » يحرم على الزوجين ان يمارسا العلاقات الجنسية ثلاث سنوات عقب مولد اى طفل لهما ..

ومن الخرافات الشائعة أن تعدد الزوجات يشقى النساء ، لما يترتب عليه من نشوب الغيرة بينهن ، ولكن الواقع يثبت ان الزوجات يعشن معا فى وئام ، متعاونات فى اعمال البيت .. بل انهن كثيرا ما يتضامن ضد الزوج ، او يتحالفن للتستر على علاقاتهن الغرامية ، كما يحدث بين نساء قبائل « وابينا » فى تنجانيقا !

ولما كان الاسلام يبيح للرجل ان يتزوج من اربع نساء ، لذلك نجد البدو فى الصحارى العربية ، وفى سهول آسيا ، وفى صحارى « القازاق » ، و « الكاملوك » و « القرغيز » ، يقبلون على تعدد الزوجات ، اللهم الا اذا اقعدهم الفقر .. ولا يزال الزواج بأكثر من واحدة شائعا فى الشرق الاسلامى ، وان كانت المجتمعات المتحضرة والمثقفة فيه قد تحولت عن هذه العادة ، ورأت ان القرآن وان اباح الزواج من اربع ، الا انه قيد ذلك بوجوب المساواة والعدل بينهن ، وهو ما يشق تحقيقه .. وتنتشر هذه الروح قدما فى المجتمعات الاسلامية ، كما انها سرت الى القبائل والعشائر الصحراوية فى آسيا .. وفرضت فى بعض المناطق فرضا ، كما فى



عروسان من أهالى جزر (ميلانيز) بالمحيط الهادى ، حيث بدأت ارساليات التبشير تنفر القوم من تعدد الزوجات



زوج « منتج » من أهالى (الكاميرون) بافريقيا ، بين زوجاته العشر .. وعدد «قليل» من نسله ! والزوجات هناك يتعاون معا باخلاص لا تفسده الغيرة !

عشائر « القرغيز » اذ اصدرت الحكومة السوفييتية قانونا بتحريم الزواج بأكثر من واحدة !

◆ **ومع** انه لم يكن من حق الرجل فى الصين أن يتزوج الا من واحدة ، الا انه كان حرا فى أن يضم الى بيته ما شاء من المحظيات .. وقد أسىء فهم هذا اللون من تعدد القرينات ، فهو نتيجة منطقية لما كان يتطلبه نظام الاسرة فى الصين **.. فقد كان الرجل يؤمن بأن أرواح احداده الاقدمين تطالبه بأن ينجب أكبر عدد ممكن من الابناء الذكور ، فكان اذا عجزت زوجته عن تحقيق ذلك ، يلجأ الى الاكثار من المحظيات** .. وكان هذا النظام يؤدى ما يؤديه اليوم نظام الطلاق الحديث فى الغرب .. كان اعترافا بفشل الزواج .. ولكنه كان أكثر حكمة ، اذ كان يتجنب ما يؤدى اليه الطلاق من تصدع وحدة الاسرة .. وكانت الزوجة تظل محتلة مكانتها كشريكة لزوجها فى رئاسة الاسرة ، مهما كانت قد فقدت الاثرة لديه ..

ولقد صدر قانون لتنظيم الزواج فى الصين فى سنة ١٩٣١ ، **ونص فيه على أن اتخاذ المحظيات أمر غير مشروع ، وان فى وسع الزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها متهمة اياه بأنه « خان الزوجية » اذا ما اتخذ لنفسه خليلة .. ومع ذلك، فان التقاليد القديمة لم تنمح بعد .. بل ان من النساء من** استنكرن هذا التطور ، **فما كان ليهمهن فى شىء أن يتخذ أزواجهن من شاءوا من المحظيات ، طالما كانت هؤلاء يلزمن حدودهن فى البيت والاسرة ، ويقبلن أن يعاملن كخادمات .. ومن ثم فلا يزال بين الصينيين**

من يتخذون محظيات .. برغم أنف القانون !

تعـدد الازواج !

◆ وتعدد الازواج محدود فى العالم ، ويكاد يقتصر على التبت وبعض أطراف الهند الواقعة عند جبال هملايا .. ولعل منشأه أن من الرجال من يكونون بالغى الفقر بحيث لا يقوى الواحد منهم على أن يعول زوجة ، أو أن يكون عدد النساء فى المجتمع أقل بكثير من عدد الرجـال ، أو يكون هـؤلاء



عروس من أهـل (التبت) ، حيث يحدث كثيرا أن تتزوج المرأة من شقيقين أو أكثر من الرجال ، فاذا زارها أحدهم فى مخدعها ترك حذاءيه أمام الخيمة ليذود أخوته عنها !

دائمى الترحال ، طويلى الغيـاب فى رحلاتهم بحيث يحتـاج الامر الى من يعول النساء ويرعاهن .. ومن ثم يشترك كل عدد منهم فى حيازة زوجة واحدة ! .

والغالب أن يشترك الاخوة فى زوجة، ويكون أكبرهم عادة صاحب الاغلبية ، فلا يقترب من يصغرونه من الزوجة الا فى غيـابه .. على أنه اذا تصادف ان كان أحـد الاخوة - مهما كان ترتيبه بينهم من حيث السن - يقوم برحلات طويلة من أجل القوت ، فانه يؤثر بحق الانفراد وحده بالزوجـة طيلة مدة اقامتـه فى زياراته القصيرة لاهله .. وقد جرت العادة ان الزوجة تنفرد بحجرة ، بينما يقيم الاخوة الازواج معا فى حجرة .. فاذا زار احدهم حجرة الزوجة، وضع قبعته فوق حذاءيه عنـد بابها ، فلا يحق لاى واحـد من أخوته أن يدخل الحجـرة حتى ترفع هذه الاشارة ..

وينتشر تعـدد الازواج لدى قبائل « تودا » التى تعيش على الرعى فى تلال نيلجيرى بالهند.. وتعتبر الفتاة بمجرد زواجهـا من رجل ، زوجة لجميع أخوته.. حتى اللاحقين منهم !

على أن الامر يصبح معقدا اذا لم يكن الازواج أخوة .. فاذ ذاك لا يقيمون فى قرية واحدة ، بل فى



من تقاليد أهل (تودا) ـ بجنوب الهند ـ ان يطلب الشاب يد عروسه باحناء رأسه لأبيها ، الذى يمنحه موافقته بأن يطأ رأسه بقدمه ، وينطق بكلمة ((تاشكين)) (أى : أعطيك اياها)

قرى متعددة ، وتقوم الزوجة بزيارتهم .. بالدور !

وأعجب ما فى هذه الزيجات ، هى الطريقة التى تتبع لتعيين والد الابناء الذين تنجبهم الزوجة المشتركة .. اذ يجتمع الازواج ويقررون فيما بينهم من الذى يكون أبا..ثم يقام حفل فى احدى أمسيات الشهر السابع للحمل ، فتأوى الزوجة الى الغابات القريبة من القرية ، وفى صحبتها الزوج «الاب» ، الذى يحفر ثغرة مثلثة فى جذع احدى الاشجار ، ويضع فيها مصباحا ذا فتيل ، ثم يصنع من فروع الشجر والاعشاب قوسا وسهما ، رمزا للابوة .. فاذا ما خبا ضوء الفتيل وانطفأ ، عاد الاهل الى القرية ، ويبقى الزوجان ليتناولا الطعام بجوار الشجرة.. ثم يرجع الاهل ، فيقضى الجميع ليلتهم فى الغابة !

وكانت قبائل ((تودا)) تئد البنات عند مولدهن لتحتفظ بالنسبة بين الاناث والذكور ، وبالتالى بتعدد الازواج .. حتى جاء الانجليز فحاولوا بأساليبهم تحريم هذا الوضع ، ومنعوا ذلك التعدد .. وكانت النتيجة أن أصبح رجال الاسرة الواحدة يتزوجون عددا من النساء ، ثم يعتبرونهن زوجات مشتركات بينهم على السواء ..

الزمالة فى الزوجات !

◆ وليس ثمة نظام معين للزواج الجماعى فى أى مجتمع .. فالاسكيمو مثلا يكرمون ضيوفهم بأن يقدموا لهم زوجاتهم ! .. وتمارس قبيلة ((الشوكتشى)) ـ فى شمال شرقى سيبريا ـ نظام تبادل الزوجات ! .. فيتعاقد عدد من الرجال على ما يسمونه ((الزمالة فى الزوجات)) بحيث يكون لأى منهم الحق فى زوجات

رفاقه اذا زار دورهم ! . .

ويمارس بعض أهالى استراليا الاصليين نظاما لتبادل الزوجات ، وان كان النظام الاساسى عندهم هو زواج الرجل الواحد من زوجة واحدة

وعند ما يكون لكل من الرجال والنساء حق اختيار شريك الحياة، نجد ان الاختيار يقوم على عوامل متباينة .. فعند ما يحق للمرأة الاختيار ،نراها عادة تراعى القوة فى زوجها ، أو مدى ثروته وموارده .. وان كان للحب والعاطفة أثر كبير

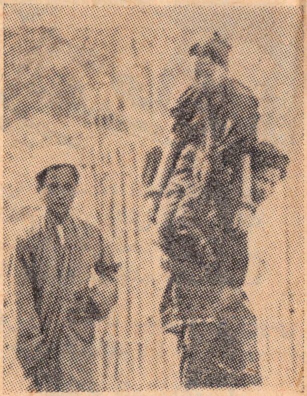


راقصة من (جزر سليمان) بالبحار الجنوبية ، تعتبر نموذجا للجمال كما يفهمه شبان تلك الجزر

مقاييس الجمال .. ألوان !

وتختلف الآراء فى جمال الانثى باختلاف الشعوب .. ففى أوربا الغربية والبلاد التى تتكلم الانجليزية ، يفضل الجمال الاغريقى .. وفى بعض المجتمعات — كعشائر القرغيز — تفضل فى المرأة البدانة وثقل الردفين .. وتحبس النساء — لدى بعض القبائل الزنجية فى أفريقيا الغربية — ليغذين بالقوة حتى يصلن الى مستوى معين من السمنة .. ويغالى أهالى قبيلة «الشوكتشى» فى سيبريا فى تقدير سمنة المرأة وضخامة ردفيها .. وكذلك الحال لدى أهالى « الكونغو » وقبائل «الهوتينتوت» ، حيث يزداد جمال المرأة بضخامة عجزها ..

أما فى سيلان ، فلا بد من عدد من الصفات لكى تكون المرأة مرغوبة : فلابد من أن يبلغ شعرها ركبتيها ، وأن يكون أنفها حادا كمنقار الصقر ، وثدياها بارزين ، وخصرها نحيلا الى درجة يمكن معها لقبضة اليد أن تطوقه ، وردفاها عريضين .. وكان مقياس تفضيل المرأة لدى الصينيين فيما مضى دقة حجم قدميها.. وكانت النساء فى الغرب ، فى بعض العهود ، يرتدين ((كورسيهات)) من الحديد ، ليظل خصرهن نحيلا ..



من تقاليد سكان جزر (سيليبس) أن تخدر الزوجة بالمخدرات التى تفقدها وعيها ثلاثة أيام قبل الزواج، على أن لا تلمس قدماها الارض فى تلك الفترة ، بل يحملها ابوها أو أخوها الأكبر !

ومع ان الزواج أصبح مسألة تهم الزوجين فقط ، فى المجتمعات الغربية ، الا أنه لا يزال فى بعض الطبقات - لا سيما تلك التى بقيت فيها أسرات ملكية - يتوقف على عراقة الاسرة ومدى ما يتحقق لها من مصالح من جراء الزواج ..



حسناوان من حاملات الجرار ببلاد اليونان ، حيث تتفق مقاييس الجمال مع نظرة الأمم الغربية

وفى روسيا أصبح الزواج عقدا يجرى عليه ما ينطبق على العقود .. ولا تزال الاسرة فى الدول اللاتينية - كاسبانيا وايطاليا وفرنسا - تقوم بدور كبير فى اختيار الزوجة للابن أو الزوج للابنة .. ومع أن **الزيجات التى تعقد بين الاغنياء والفقيرات - أو الغنيات والفقراء - تلقى تحمسا فى الافلام والقصص، الا أن المجتمعات الغربية لا تزال تنظر اليها فى استهجان !**



◆ فى «كتابى» السادس والعشرين، قدمت لك الحلقة الاولى من هذه السلسلة التى لا غنى لمثقف عن الالمام بها ، والتى تؤلف تراث الانسانية الخالد فى الأدب والفنون جميعا ، من نحت ورسم وموسيقى .. الخ .. وفيما يلى الحلقة الثانية من هذه الأساطير :

◆ **عند** ما انتزع الاله « كرونس » السلطة من أبيه ، لعنه أبوه وتنبأ له بأنه سوف يرزق ابنا ينتزع بدوره السلطة منه .. فصار كرونس يبتلع كل طفل يولد له بمجرد ولادته خوفا من تحقق النبوءة ! .. فلما ولد ابنه « زيوس » أخفته أمه « ريا » وقدمت لزوجها حجرا ملفوفا فى قماط ، على أنه الطفل ، فابتلعه فى جوفه دون أن يكتشف الخدعة .. !

.. وكبر « زيوس » فى الخفاء، حتى بلغ مبلغ الرجال ، وعندئذ أظهر نفسه فجأة لابيه ونازله ، فانتصر عليه ، وانتزع السلطة منه ! .. ثم سقاه سائلا سحريا جعله يتقيأ أطفاله الذين ابتلعهم ، وفى أثرهم الحجر - بديل زيوس !

وسلك زيوس خطة سلفه فسالم اخوته ، وولى كلا من الاربعة الذين اعترفوا به وخضعوا له ، حاكما على جزء من مملكته .. أما الباقون فقد تمردوا، فبدأت بينهم وبين زيوس « حرب العمالقة » !

سلاح الصواعق !

◆ ورأى زيوس من قمة جبل الاوليمب - مقر الالهة - تفوق أعدائه فى العدد ، وضخامة جحافلهم ، وأدرك مبلغ سطوتهم وخطرهم .. فراح يبحث لنفسه عن حلفاء على عجل . وبدأ باطلاق سراح سجناء الهاوية من العمالقة، بعد أن اشترط فى مقابل منحهم حريتهم أن يعاونوه بالاسلحة التى لا يملكها سواهم ، أسلحة الصواعق !

وأحدث السلاح الجديد ذعرا وأوقع الرعب والاضطراب فى صفوف الاعداء .. لكنهم سرعان ما أعادوا تنظيم صفوفهم وتجمعوا من جديد ثم هاجموا عدوهم زيوس بكل قوتهم محاولين أن يستردوا سلطانهم على الدنيا

وظلت الحرب مشتعلة الاوار عشر سنوات بلا انقطاع ، حتى

اضطر العمالقة فى النهاية الى التسليم والقاء السلاح .. فأعيد بعضهم مرة أخرى الى الجب، حيث عهد بحراستهم الى أخى زيوس المدعو «بوزيدون».. وأعلن الفاتح الشاب انتصاره مهللا ..

أما الاب المخلوع « كرونس » فقد انسحب الى ايطاليا ، حيث أسس مملكة تنعم بالسلام والرفاهية . وصار فى شيخوخته محبوبا من الجميع .

فرار الآلهة الى مصر !

بعد أن تخلص زيوس على هذه الصورة من العمالقة الثوار منى نفسه بالاستمتاع بسلطانه الذى استأثر به بطرق غير مشروعة .. لكن « جيا » - كى تعاقبه من أجل حرمانه أولادها من حقوقهم الشرعية - خلقت وحشا رهيبا دعته « تايفون » أو العاصفة ، له مائة رأس ، وينبعث اللهب من عيونه وأنوفه وأفواهه ، كما كان لا ينقطع عن اطلاق صرخات مفزعة رهيبة اضطرت الالهة الى الفرار من جبل الاوليمب مذعورة والتماس ملجأ لها فى أرض مصر ! .. وخوفا من أن يتبعها الوحش المخيف الى هناك تنكرت فى أشكال حيوانات مختلفة، فاتخذ زيوس هيئة كبش ، بينما تخفت أخته « هيرا » فى صورة بقرة !



رسم خيالى يمثل جبل الاوليمب ، الذى اختارته الاساطير الاغريقية مقرا للآلهة !

على أن ملك الالهة زيوس لم يلبث أن خجل من فراره وجبنه فاعتزم أن يعود الى جبل الاوليمب كى يقتل «تايفون» بصاعقته المدمرة .. ونشب بين الاثنين عراك عنيف طويل انتهى بانتصار زيوس على خصمه ، الامر الذى زاده غطرسة واعتدادا بنفسه .

لكن انتصاره كان قصير الاجل ، اذ سرعان ما خلقت له « جيا »

عملاقا جديدا دعته «انسيلادس» ، بغية أن ينتقم لتايفون منه.. لكنه هزمه بدوره وقيده بالاغلال فى كهف نارى عند سفح جبل « أتنا » ..وفى البداية صار الاسير ينفس عن غضبه وغيظه بالصيحات والزئير والانين ، وأحيانا كان ينفث من صدره نارا ولهيبا ، بأمل ايذاء خصمه .. **لكن الوقت ـ كما يقولون ـ كفيل باطفاء الغضب . وهكذا اعتاد «انسيلادس» سجنه، قانعا بأن يتقلب فى موضعه بين الحين والآخر ، فيحدث فى كل مرة ـ نظرا لضخامة جسمه ـ ما يسمونه بالهزة الارضية أو الزلزال ! (وهذه احدى الاساطير التى فسر بها القدماء بعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل والبراكين)**

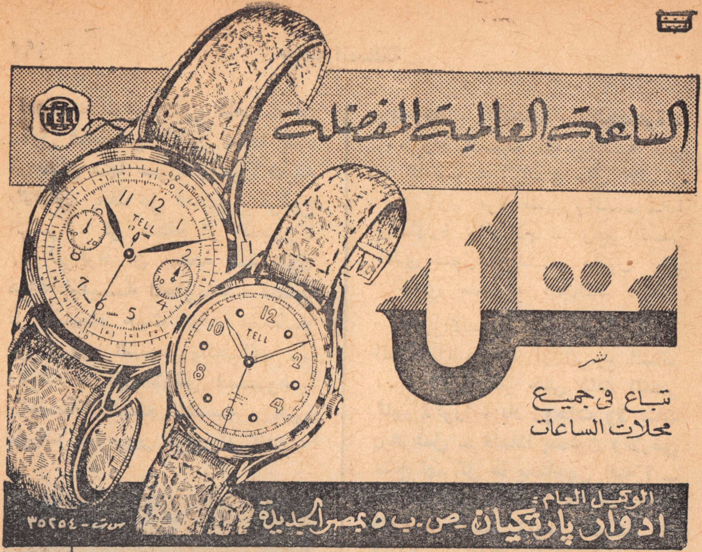
ملوك البحر والبر والجو

◆ **وهكذا** تغلب زيوس على جميع خصومه ، ودان له السلطان على الارض بغير منازع .. لكنه قدر صعوبة حكم السماء والارض والبحر حكما رشيدا بمفرده ، فتقاسم السلطة مع اخوته : أعطى « بوزيدون » ملك البحار والانهار، وألبسه تاجا رمزيا من قواقع البحر ونباتات الماء .. وولى «بلوتو» على الهاوية والعالم الاسفل، حيث لا ينفذ شعاع من الشمس أو النور .. ثم خص نفسه بملك الارض والسماء !

وساد السلام أرجاء الكون بأسره فلم تعد تسمع صيحة تذمر ولا همسة تمرد من العمالقة.. **وتزاوج العمالقة من بعضهم فاتخذ كرونس « ريا » زوجة له ، ورأى المدعو «ايابيتس» ربة جميلة من حوريات البحر تدعى « كليمين » فأحبها وتزوجها ، وأنجب الزوجان أربعة أبناء ضخام هم : أطلس ومينتياس، وبرومتيوس ، وأبيمتيوس .. الذين قدر لهم أن يلعبوا دورا هاما فى الاساطير اليونانية ـ وقد سميت باسم « أطلس » سلسلة جبال أطلس بالقارة الافريقية ، كما أطلق اسمه على دفاتر الخرائط الجغرافية فى شتى لغات الارض .. وما تزال التسميتان ساريتين حتى الآن !**

خلق الانسان

◆ **وانضم** برومتيوس الى جانب زيوس ، ضد أبيه ، فاختاره زيوس لتولى مهمة هامة هى خلق مخلوقات حية لتسكن العالم الجميل الفارغ ، وعاونه فى هذه المهمة أخوه ابيمتيوس .. فخلق الاثنان الطيور والوحوش والاسماك ، ومنحا كلا منها هبة خاصة من المميزات أو الصفات كالقوة أو النعومة أو الجمال أو الذكاء ـ تبعا لحاجة كل منها ـ وأخيرا خلق برومتيوس أذكى الكائنات قاطبة : الانسان !


الساعة العالمية المفضلة
تل
تباع في جميع
محلات الساعات
الوكيل العام:
ادوار بارتكيان - ص. ب ٥ بمصر الجديدة
س. ت - ٣٥٢٥٤
TELL


يونكر وروه
جهاز المطبخ
ذو الشهرة العالمية
يدار بغاز شل بوتاجاز
أو بغاز الاستصباح
جودة - ضمان - متانة
الموزع الوحيد بالقطر المصري:
فتحي ا. شتوده
١٥ شارع عماد الدين القاهرة

وكانت طريقته فى خلقه أن تناول قطعة من الطين نداها بالماء ثم صنع منها صورة مخلوق شبيه بالالهة ، يقف على قدمين ، مرفوع الرأس ، كى يتطلع الى النجوم ! .. ثم أراد أن يمنحه هبة تفوق هباته لبقية المخلوقات ، فصعد الى السماء حيث أوقد مشعله من قرص الشمس الخالد .. وهبط به الى الارض فوهب الانسانية الشعلة المقدسة ، التى تطورت مع مرور الزمن الى الفن ، والمعرفة ، والتجارة ، والحضارة ،



طفولة زيوس
(كبير الآلهة) ، عن لوحة مشهورة للرسام « ج. ف. واتس »

.. وتلا تلك الحقبة عصر « الذهب » ، الذى ذاق الانسان فيه لاول مرة طعم السعادة والطهارة والسلام - وهو العصر الذى صوره الشاعر ملتون فى احدى ملحماته الخالدة .

لكن الانسان لم يلبث أن مل العصر الذهبى ، أو الربيع الدائم .. وكان البشر حتى ذلك العصر كلهم ذكورا ، بلا زوجات ولا بنات وبلا عمل - فلماذا يعملون والارض تنتج لهم كل ما يحتاجون اليه ؟ - كما لم تكن لهم فنون ولا صناعات، فكان أن قسم زيوس السنة الى فصول ، فذاق البشر لاول مرة قسوة الريح والحر والبرد ، وتعلموا كيف يلجأون الى الكهوف بدلا من الحياة الممتعة فى الهواء الطلق .. وصاروا يحرثون ويبذرون ، بعد أن كانوا يحصدون أمتع المحصولات الفطرية بلا حرث ولا زرع ..

وكان لمتاعب الطقس والعمل أسوأ الاثر على بنى الانسان ، فأهملوا التعبد لآلهة الاوليمب ، بل اجترأوا على التنازع مع زيوس ذاته ومطالبته بمزيد من الهبات والامتيازات .. وانحاز خالقهم بروميتيوس الى صفهم ، حتى لقد ورط نفسه من أجلهم فى خدعة ضد الالهة لم تغفرها له قط . كان موضوع النزاع يدور حول نصيب



وزارة المعارف العمومية

تقدم العطاءات بعنوان السيد سكرتير عام وزارة المعارف العمومية بشارع الفلكى بالقاهرة بالبريد الموصى عليه او بوضعها باليدبمعرفة مقدميها فى داخل الصندوق المخصص لذلك فى ادارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة الثانية عشر من ظهر يوم الاحد الموافق ١٩٥٤/٧/٢٥ عن توريد عددوخامات الكهرباء واللاسلكى للمدارس الصناعية لسنة ١٩٥٤/٥٥ ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة المذكورة من مراقبة التوريدات لشئون المشتريات بشارع صفية زغلول (الانشا سابقا) بالقاهرة نظير دفع الثمن وقدره ٥٠٠ مليم (خمسمائة مليم) خلاف أجرة البريد .

٧٨٨٧



العملاق « انسيلادس » يتقلب فى أغلاله تحت سفح جبل « اتنا » فيحدث تقلبه الزلازل والهزات الأرضية ! (عن لوحة للرسام العالمى « ب. بيكار »)

كل من الالهة والبشر من كبش الفداء ، فقسم الكبش الى قسمين أخفى فى أحدهما اللحم الشهى تحت كومة من الجلود الكئيبة ، وغطى العظام فى الثانى بما يبدو كالشحم واللحم .. ثم دعا زيوس الى اختيار النصف الذى يحلو له ، فاختار أكثر القسمين اغراء ، وحين فتشه لم يجد فيه **غير العظام !.. ومن ثم أوقع** زيوس بالعملاق برومتيوس عقابه **الرهيب : قيده الى صخرة ضخمة من جبل القوقاز ، وقضى بأن تظل كبده طعما لنسر ضار طيلة النهار ، فاذا جاء الليل نما الجزء الذى أكله النسر من جديد ، كى تتكرر العملية البشعة فى النهار التالى وهكذا .. واستمر هذا النزاع والعذاب قرونا طويلة قدرت بثلاثين ألف سنة ! — حتى جاء « هرقل » آخر الامر فذبح النسر وأطلق سراح ضحيته ..**

أما البشر — الذين حرضوا برومتيوس على خداع الالهة — فقد ادخر لهم زيوس عقابه الاكبر فخلق لهم .. المرأة !

وفى الاسطورة التالية نرى ، ما كان من « حواء » !

اعلان

تقبل الادارة الهندسية بأسوان عطاءات عن عملية توصيلات مواسير من عمليات المياه الميكانيكية بنواحى السباعية والزنيفة بالرمادى قبلى بمركز ادفو وفارس وبنبان قبلى واقليت بمركز كوم امبو والشلال بمركز أسوان الى هذه النواحى وتحدد ظهر يوم الخميس ٧/٢٢ سنة ١٩٥٤ موعدا لفتح المظاريف وتقدم الطلبات للادارة الهندسية بأسوان على ورقة تمغة فئة خمسين مليما للحصول على نسخة من دفتر الشروط نظير دفع مبلغ جنيه واحد بخلاف مائتى مليم أجرة البريد وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى يوازى ٢ ٠/٠ من قيمته لا يلتفت اليه

٧٩٨٢

وزارة الشئون البلدية والقروية

مصلحة الشئون القروية

تقبل العطاءات بمصلحة الشئون القروية حتى ظهر يوم ٤ اغسطس سنة ١٩٥٤ عن توريد وتركيب شبكة مواسير بساط - المنزله - المطرية وفروعه لتغذية منطقة مركز المنزله وبعض قرى مراكز دكرنس وفارسكور مديرية الدقهلية .

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات والرسومات من المصلحة بالمبنى المجمع بميدان التحرير بالقاهرة نظير دفع مبلغ عشرين جنيها على ان يقدم الطلب على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما بخلاف أجرة البريد وقدرها ثلاثمائة مليم وكل عطاء غير مصحوب بتأمين مؤقت كامل وقدره ٢ ٠/٠ اثنين فى المائة من قيمة العطاء لا يلتفت اليه .

٧٩٧٢

اعلان

تقبل عطاءات بادارة العقود والمشتريات بسلاح الاسلحة والمهمات بالمعادى لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم ١٩٥٤/٧/١٨ عن توريد الف متر زجاج تريلكس . ويمكن الحصول على الشروط مقابل مبلغ ٢٥٠ مليما يضاف اليه مبلغ ٤٠ مليما اجرة البريد . وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة الخمسين مليما

٧٩١٣

مجلس مديرية أسوان

يقبل مجلس مديرية اسوان عطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم الاحد الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٤ عن توريد اقمشة وملابس وبطاطين وخامات احذية وخيزران وعدد صغيرة للاقسام وآلات موسيقية وادوات دراسية لمؤسسة تربية البنين باسوان ويمكن الحصول على الشروط من المجلس مقابل مبلغ ٣٠٠ مليم يضاف اليه مبلغ ٣٠ مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما .

٧٩٥٧

اعلان

تقبل العطاءات بمكتب السيد مدير ادارة الميزانية والعقود والمشتريات بوزارة الداخلية لغاية ظهر يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٥٤ عن مزايدة تأجير مقصفى مصلحة الهجرة والجوازات والجنسية وادارة اللوائح والرخص بمبنى المجمع بميدان التحرير عن المدة من اول اغسطس سنة ١٩٥٤ الى نهاية شهر يونيو سنة ١٩٥٥ وتطلب الشروط من المكتب المذكور نظير مبلغ ١٠٠ مليم يضاف اليه ٣٠ مليما أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة الخمسين مليما .

٧٩١٦

محتويات الكتاب

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



جبروت .. وروعة — للفنان الانجليزى هـ . س . هيكمان



ظلال النخيل ..

للفنان الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامي



كتابي

قلب .. فى مهب الريح !

هو: سعاد ! لماذا وضعتك الأقدار فى طريقى، مادامت تنوى أن تعود فتأخذك ؟ ولكن .. أى حق لى فى أن أزجرك !؟ قلبى هو الأحق بالزجر .. فانها غلطته !

هى (فى هدوء) : بودى لو اذكرك بهذا .. غدًا، حين تنسانى !

هو: كيف أنسى أحلامى الهائمة بين أجفانك ؟ دعينى أطيل النظر فى عينيك . مالهما تهربان من عينى، وأهدابهما تختلج، ككتاب يقلب الهواء العابث صفحاته، أو شريط تتحرك صوره فى سرعة تخطف الأبصار ؟.. أوصيهما أن يتمهلا، كى أقرأ فيهما صحائف حبى، وأتملى بروائى الجميلة . أى نوع من المرايا حدقتاك ؟ منذ عرفتهما أحببت الظلام، كى أراهما تلمعان لى وحدى، فترتسم على صقالهما أوهامى السعيدة . كم من ليال قضيتها ساهرًا فى شرفتى المطلة على البحر، أتلقى هواءه الرطب على جبينى، فى نشوة المحموم، وأنصت لهمسه الحلو فى أذنى، فأحس بمثل اصطفاق الأمواج فى رئتى، وكأن قلبى طائر حبيس يرف بين قضبان صدرى، يبغى الفرار !؟.. وكم من ليال سهرتها فيها أذرع السماء ببصرى وأرصد عينيك وهما تثقبان الظلام، وتنيران أمامى الطريق !؟.. سعاد ! محال أن يكون عمر هوانا ثلاثة أسابيع . لكأننى عرفتك منذ دهور .. عرفتك قبل أن ألقاك !

من قصة "السراب"، إحدى قصص هذا العدد

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩